جسيكا سشيفارو





ترجمها عن السويدية
أثمار عباس

رواية

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

كتاب Kitab

جنس ثالث

الصِبْيَة

عنوان الكتــاب: **جنس ثالث - الصبِيَة**

اســم المؤلــف: **جيسيكا سشيفاور**

اســم المترجــم: **أثمار عباس**

المـوضـــــوع: **روايـــــة**

عدد الصفحات: **208 ص**

القيــــــاس: **14.5 ❖ 21.5 سم**

الطبعـة الأولى: **1000 / 2016 م – 1437 هـ**

ISBN: 978-9933-536-36-7



سورية . دمشق . ص ب **4650**

تلفاكس: **+963 11 2314511**

هاتــــف: **+963 11 2326985**

E-mail: info@ninawa.org
ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org


دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع


Ayman ghazaly

العمليات الفنية:

التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة – القسم الفني: دار نينوى

تأليف
جسيكا سشيفاور

جنس ثالث
الصِبيَة

SPOT LIGHT ON RIGHTS C

This edition has been produced with a subsidy by the spotlight On rights programme in abu dhabi

تم إصدار هذا الكتاب بدعم من برنامج «أضواء على حقوق النشر» في أبو ظبي

ترجمة
أثمار عباس

Jessica SchieFauer

كاتبة سويدية

حائزة على جائزة August لعـام ٢٠١١، مجموعـة «الكتـب الـسويدية المختصة بالأطفال والفتية».

رواية جنس ثالث أو «الصبيَة» هـو عملهـا الثـاني الـذي يخاطـب عمـر الشباب.

المترجمة

أثمار عباس

- مواليد العراق.
- ممثلة ومسرحية.
- تَرْجَمَتْ من اللغة السويدية الى العربية:
  - غضب ميديا وعقدة النساء المهجورات
    medeas vrede – غودرون أكستراند

Ochandra dumpade kvinnors krisoch utvcckling
GUDRON EKSTRAND

  - أنصت الى ذاتك تأليف تد هاريس وآن لاغرستروم
- تقيم في مسقط - سلطنة عمان - هاتف: ٠٠٩٦٨ ٩٥٢٧٥١٨٠
- الإيميل: **athmar@yahoo.com**

إن رحلة الاكتشاف الحقيقية لا تكمن وراء السعي والبحث عن مناظر وآفاق جديدة، وإنما أن تكتشف الأشياء لتراها بعيون جديدة!

مارسيل بروست

لدي هنا حكاية، سأرويها لكم لكنها ليست لأيٍّ كان، إنها حكاية لمن يرغب في أن "*يرى*"، إنها قصة لمن لديه الجرأة في أن يحمل عدسة مكبِّرة ويضعها أمام عينيه لينظر حتى يرى ويستكشف الأشياء، عندما تضع العدسة المكبرة أمام عينيك ستكون لديك القدرة على التأمّل والكشف، عندها سترى الغرائب والعجائب، أما إن كنت أعمى في رؤية الأمور فهذه الحكاية لا تناسبك، لكن إذا كنت تملك عيوناً مفتوحة وذهناً منفتحاً أو من النوع الذي "يتقبل" فانصت جيداً.



تبدأ الحكاية في مكان ما قرب الغابة، ذات مساء ربيعي وبينما كان البخار يتصاعد متوهِّجاً موشحاً باللون الأحمر من منازل الجيران، وكانت السماء تبدو زرقاء صافية، والغابة ساكنة هادئة من خلال الزجاج الرقيق لنافذة المنزل القديم، وفجأة رن صوت الهاتف عالياً، تجمّدت في مكاني فجأة متسائلة، وأنا أنصت بذهول إلى صدى الصوت المفاجئ الصادر من هاتف المنزل الأسود، حيث أنّ هاتف المنزل من النوع القديم وهو أخرس على الدوام، مركونٌ هناك على الطاولة، لم نسمع له صوتاً أو ضجيجاً طوال مدة إقامتي الطويلة في هذا البيت. لكنه الآن بدأ يقرقع ويحدث ضجيجاً عالياً أشبه بنباح كلب عجوز أجش، ظل التلفون يرن ويرن مراراً وتكراراً، رميت الأعشاب من بين يدي واتجهت إلى المنزل وأنا في حَيرةٍ من أمري وتساؤلٍ مَن المتّصل؟! انزلقت يدي وأنا أضعها على مقبض الباب لأفتحه، فتحت الباب ودخلت وبينما أنا أمشي فوق أرضية الممر الخشبية، تتبعني رائحة الغابة التي دخلت معي وملأت المنزل برائحة أشجار الصنوبر والزهور والأعشاب المسائية أمسكت الهاتف الأخرق بيدي المليئة بالتراب وقبضت بأصابعي الرطبة على السماعة وعندها شعرت بهزّات طنينه تهز راحة يدي، رفعت السماعة ببطء، كان سمعي كله مشدوداً إلى الصوت، أنفاسي محبوسة، أجبت وترددات صوتي وطريقة تنفسي السريعة العالية كشفت مشاعري المتحمسة:

- كيم؟ هل هذا أنت؟

يبدو من صوتها أنها كبرت، ولكنني عرفتها فوراً، وعندها أمسكت سماعة الهاتف بكلتا يدي، وكأنني حضنته بأصابعي المتسخة بالتراب، لو لم يبح صوتي وحبالي الصوتية، كانت قد تشنجت لكنت قد صرخت الآن بأعلى صوتي من هلعي وفرحتي الكبيرة، جفّ حلقي وبالكاد فتحت فمي واستطاعت الكلمة أن تخرج منه:

- نعم، هذا أنا!

- وأخيراً... لقد بحثت عنك كثيراً!

أغمضت عيني ليظهر وجهها وملامحها أمامي: إنها فتاة في الرابعة عشرة خداها مرقّطان بالنمش، لها بقع صغيرة على وجهها منذ الولادة، شعرت بأن فمي أصبح جافاً وريقي تيبّس، حاولت أن أجمع بعض اللعاب كي أقول لها شيئاً لكن لم يخطر على بالي سوى أن أقول لها:

- لم أرك منذ فترة!

ضحكت وردت:

- نعم.... لم نر بعضنا منذ فترة طويلة نعم....

بيلا فتاة خجولة جداً، وعادة ما تمشي وأصابع قدميها متجهة إلى الداخل، كانت في المدرسة تعاني من مشاكل في الكلام عندما تتحدث، وهي نادراً ما تتحدث، وعندما تتحدث تتلعثم وتتعثر في الكلام، كانت بيلا تزرع البذور في التربة وتصنع لي الحياة، كنا نسكن في نفس المنطقة في مجمع خاص بالفلل، وكان بإمكاني أن أرى منزلها من خلال شباك غرفتي، الآن حينما أغمض عينيَّ يبدو كأن كل شيء واضح تماماً في ذاكرتي:

بيلا.... والألعاب....

كنا نلعب أنا وبيلا في بيت مزهر الورود الزجاجي، كان البيت يقع وراء الحديقة الخلفية لمنزل بيلا، حيث المكان أشبه بقصر لنا، كانت بيلا تزرع الورود ومختلف أنواع الزهور ونباتات الظل ولم تكن حديقة النباتات الزجاجية مزرعة فحسب ولا هي مكان للعب الأطفال، بل كانت عبارة عن مزرعة واسعة جداً مغلقة للكبار أيضاً، لكن بيلا ليس لديها أحد من الكبار الناضجين في المنزل، كانت وحدها فقط من يهتم بتلك الزهور فهي تزرع وتسقي وترعى النباتات والورود في ذلك البيت الزجاجي بالإضافة إلى ذلك كانت تهتم بحديقة المنزل أيضاً، وبيلا وحدها هي من يهتم بزرع النباتات وسقيها وهي وحدها من يرعى البيت وكل شيء لم يكن لدى بيلا أحد يقوم بذلك أو يساعدها فهي التي كانت تنظف وتطبخ الطعام وتغسل الصحون، وتقوم بكل الأعمال المنزلية ولا أحد عندها ليقوم بذلك ولا أحد لديها ليحضر إلى اجتماعات الأهالي مع المدرّسين في المدرسة ولا من يأتي إلى حفلات التخرج ولا الدعوات ولا أي شيء آخر لم يكن لديها أقارب أو أحد إلّا والدها لكنه كان مُقعداً ولا يغادر البيت أبداً، بسبب مرضه الذي يضطرّه إلى تناول الحبوب المهدئة طوال اليوم وبالتالي فلا يستطيع الحراك إنه أشبه بالنائم في "غيبوبة" طوال الوقت، أما والدتها فلا أحد يعرف عنها شيئاً أبداً، بيلا تقول للجميع أنها توفيت عند ولادتها ولم تقل شيئاً آخر عن أمها سوى ذلك، لكن هناك الكثير من الإشاعات التي ينبغي منا نحن الأطفال أن لا نستمع إليها لكننا كنا نسمعها، إحدى هذه الإشاعات كانت تقول إن والدتها تعيش في مستشفى المجانين وإن إشاعة أخرى تقول إن أمها كانت شاذة وهربت مع امرأة أخرى تحبها، ولكن لم يكن هناك ما هو مؤكد من هذه الإشاعات ولا أحد يعرف إن كانت صحيحة أم لا.

لكن بيلا كانت تحب زراعة الورود فهي تأخذ البذور وتضعها في التربة لتصنع لنا الحياة، ويعود هذا الفضل إلى جدّة بيلا، التي وهبت بيلا بيت مزهر الورود هذا.

لقد كانت جدة بيلا شخصية غامضة لا نعرف عنها شيئاً، أتذكر القليل عنها، كان لون شعرها أحمر كلون شعر بيلا تماماً، وكانت عندما تبتسم تلمع لثتها الحمراء على بشرتها البيضاء، كانت بيلا صغيرة جداً عندما جاءت الجدة بأمتعتها وأغراضها وانتقلت إلى إحدى غرف المنزل، وعاشت فيه، وحفرت قطعة الأرض هذه في حديقة المنزل المهملة، وبدأت في زراعتها وعندما كبرت بيلا قليلاً علّمتها جدتها كيف تزرع وتضع البذور في التربة، وكيف تعتني بالنباتات والزراعة، وذات يوم اختفت الجدة، حملت أمتعتها وغادرت ولم تترك أي أثر لها سوى مرآة يد صغيرة منسية وشعرة واحدة حمراء طويلة على الأرض التقطتها بيلا ووقفت أمام الغرفة الخالية من أمتعة الجدة وهي تداعب شعرة الجدة بين أصابعها.

لم يبق لبيلا سوى بيت النباتات الزجاجية، كانت الجدة قد شيّدته وعملت على بنائه وأصلحته وأصبح جميلاً وفي حال جيدة.

كان زجاج النافذة يبرق في ضوء الشمس فتومض النباتات والورود وتلمع المزرعة كلها، منذ ذلك اليوم، أي منذ اختفاء الجدة تقضي بيلا جلَّ أوقات فراغها في بيت المزرعة.

عندما تكون بيلا متواجدة في المزرعة، يملؤها الحماس والرغبة الجامحة لتزرع وتستكشف كل شيء في عالم النباتات، لا شيء لا تعرفه بيلا في عالم النباتات، حتى وإن كان قليل الأهمية إلا وتعلمته وتحققت منه وتفحصته وعرفته. كانت بيلا تشعر بالراحة والاهتمام ويملؤها الحماس، وكلما دخلت

المزرعة، تجد كل شيء في مزرعة بيلا جميلاً ومثيراً للاهتمام، نعم كل شيء، كل شيء في عالم الزراعة والنباتات والورود كان يثير فضول بيلا للاستكشاف والمعرفة، وبقيت بيلا تسقي وترعى الزرع والورود ببراعة تامة لا تشوبها شائبة، والنتيجة لديها نباتات وورود وزهور وضاءة، تتفتح كل يوم وتكبر تحت إشراقة الشمس، ليس هناك أجمل وأروع من مزرعة بيلا في منطقتنا كلها، إنها مليئة بالألوان والأشكال والزهور الجميلة.

وقفت هناك وفي يدي سماعة الهاتف وأنا أنظر إلى الأفق عبر الشباك متطلّعةً إلى السماء الصافية، وأترك للمساء الأزرق أن يمحو ذاكرتي وأن يطمس صوري التذكارية، قلت لها:

- ماذا تريدين؟

تنهدت بيلا وأخرجت زفيراً طويلاً فصدر عنه ضجيج مزعج في الهاتف:

- أريدك أن تأتي.

شعرت بقشعريرة ورعشة في أسفل ظهري، ثم عضضتُ شفتي وأصبح صوتي بالكاد يُسمع وقلت بهمس:

- لا أعرف.

صمتت بيلا للحظة، ثم قالت بهدوء:

- يجب أن تأتي يا كيم. أنت مدينة لنا بهذا، مومو قادمة وهي في طريقها إلى المزرعة!

ثم أغلقت بيلا الخط وأصدر عند إغلاقه ضجيجاً عالياً، بقيت حاملة سماعة الهاتف في يدي، ولا يزال في أذني تشويش، أتحقق المكالمة، كنت

أرغب بالمزيد من سماع صوت بيلا الذي كنت أنصت إليه قبل قليل، ولكنه اختفى.

كان شعر مومو كثيفاً غزيراً جداً، لونه بني غامق، كانت تملك ظهراً مستقيماً ونظرات فضولية جريئة، كانت تقف ذات يوم على الرصيف أمامنا، في الحي الذي نسكن فيه وبدأت تسألنا أشياءً، ونحن نجيب على أسئلتها، ومنذ ذلك الحين أصبحنا صديقات لم ننفصل عن صحبة بعضنا البعض أبداً، كانت مومو تملك طاقة كبيرة، كانت تصطحبني معها إلى مختلف المحلات الشعبية للملابس والأشياء المستعملة، كانت تختار قبعات غريبة الأشكال والأحجام وتضعها فوق رأسي وتلف حول عنقي مختلف أنواع الشالات والأوشحة البشعة، وتقول لي:

- اشتريها!

أرد عليها ضاحكة:

- مستحيل، لا يمكن ذلك أبداً!

عندها تضحك هي الأخرى ولا تعير أهمية لرأيي، ومهما كانت بشاعة تلك الأغراض إلا أنها تدفع ثمنها وتشتريها لنفسها.

لقد ترعرعت مومو في منزل كبير في الريف وسط عائلة فنية مليئة بالابداع والمواهب المتعددة، كان والدها ووالدتها مبدعين كباراً، وعندما انتقلت مومو وعائلتها إلى منطقتنا، لم يستغرق وقتاً طويلاً حتى انتشرت الإشاعات، وبدأ الكلام يدور عنها وعن عائلتها، - عائلة مومو - أنها عائلة مثالية لا مثيل لها، عائلة لا تشبه أياً من العائلات التي رأيناها من قبل، كانت غرفة المعيشة أشبه بمشغل تستعمله والدتها للاشتغال على

أعمالها، إنها خياطة ماهرة، تقوم بجمع مختلف أنواع الأقمشة والأشياء وتحوِّلها إلى أشكال جميلة رائعة، أحياناً تعمل وأحياناً أخرى لا تعمل، أما الطابق العلوي فكان أشبه بأتيليه مرسم يعمل فيه والدها، إنه مهندس معماري كبير يعمل بالزراعة ويصنع قوالبَ وأشكالاً وشخصيات من الجص والطين والمعجون الصناعي والورق وغيره، وهكذا فهما يعملان أحياناً ولا يعملان أحياناً أخرى.

في الواقع إنهما لا يعملان إلا عندما يكونان بحاجة إلى نقود، عندها يضطران إلى القيام بأعمال مبدعة جديدة، ليحصلا على المال عدا ذلك فهما غالباً ما يقضيان وقتهما المتبقي ملتصقين قرب أدواتهما وموادهما استعداداً لبدء أي مشروع جديد.

وسط هذه الأجواء والفنون والإبداعات قام الوالدان بتربية فتاة اسمها مونيكا، لكننا أطلقنا عليها اسماً آخر، وكنا ندعوها بـ(مومو)، كانت مومو تملك موهبة فن المراقبة والملاحظة الدقيقة جعلت من كل شيء يصنع أو يستعمل في منزل والديها من مواد وقطع وأدوات لها، إنها تمسك بأي قطعة في يدها تشكّلها كيفما تشاء، لديها القدرة على تغيير الأشكال أو تحويلها إلى أشياء أخرى تحلو لها، كانت مومو تحوّل كل المواد والأدوات، ثم تعود وتغيِّرها إلى شيء ما يحلو لها، مادامت لديها كل هذه الفنون من حولها فلم لا تستغلها، كانت مومو تتقن فن الخياطة (التطريز والقص واللصق)، وكانت تنجح في أن تغيِّر شكل المادة التي تأخذها من والديها إلى شكل آخر، ودائماً لديها مشروع فني ما، تشتغل عليه، كانت عيونها تشعّ بالبهجة كلّما شكَّلت أقمشة مختلفة ووضعتها تحت ماكنة الخياطة، كان صوتها يرتفع حماسة أحياناً عندما تخبرنا عن الأقمشة التي خاطتها وصنعت منها شكلاً ما.

في هذا الربيع كنا قد أكملنا أنا وبيلا وومومو (الرابعة عشر عاماً) حافظنا على صداقتنا واحتفظنا بها، وبقينا منطوين على أنفسنا، في الشتاء عادة ما نقضي أيام البرد القارس في غرفة ومومو الدافئة الجميلة، لكن خلال الأيام والليالي الدافئة من العام نجلس في حديقة منزل بيلا أو ندخل إلى البيت الزجاجي للنباتات، عندما يكون الجو ماطراً هناك كنا ننصت إلى صوت الحشرات ونستمع إلى قطرات المطر وهي تضرب الزجاج، وعندما تشرق الشمس من جديد نشاهد قطرات الندى على أوراق الأشجار وهي تجفُّ على الأغصان، وكنا نتأمل بفضول تزاوج الذباب على أوراق زهرة الأقحوان إنه أشبه برقصة عنيفة وفريدة ترسلها عبر أوراق الزهور الرقيقة التي تهتز.

كل مساء، كنا نسقي النباتات في البيت الزجاجي، كانت بيلا تملأ الإبريق الأخضر من المنزل بالماء، وكنا نساعدها في حمله عبر حديقة المنزل إلى البيت الزجاجي، لم تطلب بيلا المساعدة منا أبداً لكنها لم تمنعنا أيضاً عندما نبادر لمساعدتها، كانت ترشدنا وترينا كيف نفعل ذلك بصمت.

كانت بيلا تعرف جميع أنواع الورود بأكملها، أسماءها، أصنافها، أشكالها، وكل شيء، لكنها لا تتحدث عن ذلك وأنا لم أطلب منها. لم يكن ذلك مهماً بالنسبة لي، لذلك لم أسألها يوماً.

عندما تغيب الشمس وتستلقي النباتات بهدوء، وتنطوي على نفسها تبقى فقط حديقة بيلا "مزهرة الورود" مشرقة وتضيء كالمصابيح المتوهجة بالضياء، حتى يتخيلها المرء مثل الألعاب النارية التي تطلق في منتصف ليالي أعياد رأس السنة، عندما تغيب الشمس ويحل الظلام، وتبدأ أضواء الشوارع الصفراء بالانتشار على المنطقة بشكل ناعم وخفيف قد يتصور

المرء أن ورود بيلا المخملية ونباتاتها الناعمة سوف تستسلم للظلام وتنام لكنها لا، لا تفعل، إنها تتلألأ بشكل أجمل وتفتح فمها لليل كأنها تصيح للنجوم صارخة:

- أنا هنا!....

- انظروا إليّ!....

الليل لونه أسود، لكنني مليئة بالألوان!.

عشنا أياماً وليالِيَ وسط أجواء هذه الحديقة المشرقة وألوانها الزاهية المتلألئة، كنت أنسى من أكون، أنسى اسمي، أنسى حتى أنني أملك جسداً نما وكبر، ويكبر، ويكبر حتى كنت أشعر أنه يكاد ينفجر من الكبر والطيران.

كان بيت مزهر الورود أشبه بالمنطقة الحرة، غرفة بقوانين أخرى لا تسري عليها القوانين المعمول بها، كل شيء يختفي عندما أدخل عبر باب الزجاج إلى مزهر الورود، يختفي كل شيء، المدرسة وقوانينها، ممرات المدرسة ومشاكلها، البيت وأهلي، حتى بيلا تختلف وتصبح إنسانة أخرى، داخل المزرعة تصبح نظرتها هادئة وحادة وحركاتها دقيقة مليئة بالثقة أما في المدرسة فهي مجرد فتاة مليئة الجسد ذات شعر أحمر ونقاط نمش وشامات على وجهها، تملك شخصية صامتة وتفضل ألّا تثير انتباه أحد قدر المستطاع، وأنا ضعيفة، حزينة، رأسي كبير وساقاي ضعيفتان، جلدي حساس جداً، أُصبت بأكزيما وتصيبني الحساسية كلما لامست شيئاً غير معروف، وفوراً يظهر طفح أحمر على بشرتي، وفي فصل الصيف لا يطيق جلدي أشعة الشمس القوية، ولا أتحمّل هواء الشتاء البارد، ولا أستطيع أن

آكل الطماطم الحمراء ولا البرتقال الأصفر؛ لأنني أصاب بحساسية محرقة حول فمي، أو أنفي وعندما أُصاب بالحساسية أضطر إلى وضع المساحيق والكريمات الكريهة الرائحة لبضعة أيام لمعالجتها.

إن جلدي البناتي الرقيق يفضل الهواء الجاف الصافي، الخالي من الرطوبة وينبغي لجدران الحائط أن تكون مغلفة بالورق أو تكون مليئة بصور الدعايات بالإضافة إلى تعقيم دائم بماء الكلور (المعقم) وأضواء النيون المغلفة، لقد كرهت هذا كله كرهت جسدي كنت أشعر بشيء غريب يجلس فوقي أو بدلة من المطاط تتلبسني، جلد من البلاستيك ملتصق بجسدي يحكني ويخدشني، وكلما حاولت أن أحكّه وأكشطه بأظافري أجد صعوبة، كلما حاولت أن أخرمش تلك البدلة لأمزقها بأظافري وأصابعي لا ينجح الأمر، وأفشل ولم أستطع إزالتها عني.

في الليل كنت أحلم أن جسدي قد سقط مني، كان الأمر في غاية البساطة وفجأة أجد زر "سحّاب" في جلدي وأفتحه، كان السحّاب يختلف موقعه من حلم إلى آخر، أحياناً أجده على ساقي وأحياناً أجده على بطني وأحياناً أجده على طول ظهري أو بين الساقين، كنت أفتح السحّاب وأطلق سراح جسدي وأشعر بهواء بارد منعش يهوّي جلدي الحقيقي من تحت جلدي المطاطي، أشعر كالمكنسة الكهربائية التي تشفط جلدي الصناعي وتبعث الهواء وتُهوّي جلدي الحقيقي.

كنت أشعر أنني أقشر جلدي وأنزعه كما أخلع قطعة ثياب متسخة عن جسدي وأنا أدوس على الأرض بقدمي أشعر ببرودتها وهي تسري على باطن أقدامي الجديدة ولكن عندما أذهب إلى المرآة لأرى كيف يبدو شكلي الحقيقي كل مرة أستيقظ وأنا في طريقي إلى المرآة ولم أتمكن من أن أرى نفسي.

ذات يوم عندما كانت بيلا تعمل على فرز وزراعة بذور ورودها الحمراء في مزهر الورود، قصصت عليها حلمي، كنت أجلس القرفصاء قربها، أناولها المسحاة الصغيرة وهي تغرزها في الأرض، حكيت لها ما كنت أشعر به بالضبط في الحلم وكيف جلدي كان ينفك ويسقط عن جسدي.

كان على وجه بيلا بقع من الطين وعلى شعرها عشبة خضراء صغيرة، وكانت تنصت إليَّ بجدية تامة، لم تقل شيئاً ولكنني أعلم أنها كانت تفهم كل شيء.

نعم، لقد بلغنا الرابعة عشر عاماً هذا الربيع، وكنا نُخبئ أنفسنا في بيت مزهر الورود الزجاجي كي لا نصبح أكبر، لقد ابتعدنا واختلينا بأنفسنا وتجنبنا الآخرين من أقراننا، كنا نحذر على الدوام من أن نستمع أو نستسلم إلى تسجيلات أغاني هرموناتنا التي تسيل في دمائنا؛ لأننا نتوقع إذا استمعنا إليها أن تستولي علينا في أي لحظة، وتأسرنا برضى أو دون رضىً منا، وسوف تتغلب علينا شئنا أم أبينا.

كنا ندرك ببساطة شديدة ما الذي ينتظرنا في حياتنا، ذات يوم سنستيقظ صباحاً ننهض من الفراش ونحن مدركون أنه حان الوقت لنتخلى عن ألعابنا الطفولية ونكبر، وعندها علينا أن ننظر حولنا ونرى الآخرين ونتعلم منهم ونفعل ما يفعلون ونتعلم منهم كيف يدخنون ويشربون الخمر، نتعلم منهم كيف يقبِّلون بعضهم البعض، وأننا نعرف أنه سيأتي يوم يجب علينا أن ندع الفتيان يلمسون أجسادنا بأيديهم بينما نحن جالسات لا نعمل شيئاً، تكون الواحدة منا مرتدية كعباً عالياً رفيعاً وتلوي قدمها أو الشيء الوحيد الذي تفعله هو أن تضع ساقاً فوق الأخرى، وعندما تتعب عضلات ساقها تبدل الساق لتضع بدلها الأخرى وهكذا، لكننا امتنعنا عن ذلك كله، لم

نكن نرغب في هذا، (أنا وبيلا وومومو) بل نحن نرفض! كانت أجسادنا تبكي وتتقلب وكنا متململين نشعر بالزهق والقلق، والملل يتسلق إلى أجسادنا وضيق في الصدر، كنا نسير كحيوان كبير، هائج متضايق في منزل آبائنا، أجسادنا تصرخ بانزعاج راغبة بشيء ما يسكتها، شيء يستطيع أن يهدّئ من جيشان العواطف الغريبة التي تفور وتمور محتجةً كأمواج بحر ثائرة، ولكن أينما سرنا أو توجهنا وجدنا النساء فقط وتفاصيلهن، لقد أغمضنا عيوننا وأغلقنا فمنا رافضين أن نتقبل ما لا مفر منه، رافضين ما لا نستطيع تجنبه لقد كانت الغريزة، كنا نشعر بشيء أشبه بشرارة مشتعلة، إحساس كأنه جمرة تشتعل في صدورنا، شيء يمكنه أن يصيبنا في كل مكان (إنه التحول إلى سن المراهقة وانقلاب الجسد والهرمونات التي تجتاح الجسد وفورانه المليء بالشهوات والرغبات).

ولهذا كنا نلجأ هاربين إلى بيت مزهر الورود، أعطينا ظهرنا للعالم وفررنا إلى ملاذنا الذي نبحث فيه عن عزاء ومواساة عند الأرض وبين الورود والحشرات.

كانت المدرسة أيام الدراسة عبارة عن خطط إستراتيجية وحرب تكتيك واشتباكات بين الطلاب، كان الطلاب يقفون في ممرات المدرسة على شكل تكتلات ومجاميع أحدهم ضد الآخر، كانت مجاميع الفتيات منفصلة عن مجاميع الفتيان، كنا نُمرِّن أنفسنا ونتظاهر بأننا منشغلون بما يدور داخل مجموعتنا، وبينما نحن نخدع الآخرين بأننا نتكلم ونصدر أشياء أخرى للفت الانتباه إليها إلا أننا كنا نُبْقي في الوقت نفسه أعيننا مفتوحة على الممر، نراقب كل ما يجري وما يدور حولنا نستمع إلى كل كلمة يقولها الفتيان، من يأتي ومن يذهب، نراقب أيَّ خطوة يقوم بها الصبيان، وأينما اتجهوا، نقدّر

ردّة فعلهم، وما هي ملامحهم، ماذا ينوون فعله، كنا نقف هناك حذرين تماماً من الصبيان، وذلك يمكن في أي لحظة لأحد الصبيان أن تصدر منه حركات لا أخلاقية فقد كان الصبيان يقومون بإصدار حركات في ألسنتهم ليثيروا الفتيات ويحثوهن على الجنس، فكانوا دائماً يتوجهون نحوهن وهذا ما كان يحدث طوال الوقت عندما تمر مجاميع الصبيان قرب الفتيات يستغلون الفرصة، ويقومون بحركات إباحية، فعندما يقتربون من الفتيات ويصبحون قريبين جداً منهن يفتحون أزرار بناطيلهم وينزلون سراويلهم ويخرجون أعضاءهم الذكرية، فتظهر أعضاؤهم واقفة متحجّرة، وهم يشدون عليها بأيديهم ويصدرون أصواتاً يقلّدون بها أصوات أفلام الجنس الإباحية، أو يساعد بعضهم البعض بالإمساك بإحداهن ليلاعب بلسانه ويلحس عدة مرات خدود الفتيات، ثم بعد ذلك يطلقون صرخات عالية ويصرخون كالذئاب الجائعة، في كل مرة يقوم الصبيان بهذه الحركات نتظاهر بأننا لا نتأثر ولا نرغب في الجنس أبداً، ولمواجهتهم أو للرد عليهم كانت هناك طريقة واحدة، كانت نافعة جداً وهي:

أن تحافظ على هدوئك أن تبقي فمكِ مغلقاً، أن يبقى ظهركِ مستقيماً وأن تتظاهري بالتماسك ينبغي ألّا تصدر أي حركة ولا إيماءة تظهر بها مشاعرك حتى وإن كان كلامهم وأفعالهم يمسك تحت الجلد ويخترق المسام.

على الأغلب نجحت هذه الطريقة، كنا نحرص أن نحدق إلى بعضنا البعض ونحن نتحدث، ونستمر بالكلام حتى وإن نسيت عن ماذا كانت تتحدث إلا أنها تستمر في الكلام، ولا تتوقف، كنا نحرص على تشجيع بعضنا البعض وإقناع بعضنا دون كلمات، فقط بحركات وإيماءات ونحفزها على التحدث، بهز رؤوسنا كنا نواسي بعضنا بكلام صامت كأن

نقول لها: لا تقلقي بشأنهم لا تبالي لا تهتمي لهم لا تستديري، لا تديري وجهك نحوهم، أكملي حديثك، لا تظهري لهم أنك خائفة، كرمىٰ لله، لا تدعيهم يروا أنك أصبحت خائفة، ولكن كانت هناك أوقات سانحة ينتهز الصبيان الفرصة ليفعلوا ما يفعلوه بنا عندما يقع الاختيار علىٰ واحدة منا، يقترب الصبيان منها، وهم يحدقون بأعينهم العنيدة التي تقدح شراراً وعندما يقتربون أكثر يصوبون نظراتهم القاسية عليها، ثم يلتفون حولها بحيث يشكلوا دائرة كاملة، ثم يقتربون أكثر فأكثر إلىٰ درجة تشعر بأنفاسهم وهي تبني حائطاً، سوراً قوياً، أمام وجه الفتاة وعندما يصعب علىٰ البنت التخلص منهم، أو لا يمكنها الابتعاد عنهم أو حتىٰ تجنبهم لأنهم يغلقون كل شيء أمامها، إنهم حولها من كل اتجاه، يقفون كالأصنام في مكانهم، ثم تمتد ألسنتهم إليها ويلحسوا خدودها، ثم يدورون برؤوسهم يفتشون عن شفاهها بينما يدعون أيديهم الصبيانية تنزلق منسلّة بين أفخاذها لتعبث بلا شفقة بجسدها، وهم يهمسون أشياء أخرىٰ وبأصوات مصطنعة، ويتلفظون بعبارات حب كاذبة، كلمات لها وقع زائف، فإن استطاعت الفتاة أن تحافظ علىٰ صمتها طوال الوقت وإذا نجحت في تصويب عينيها بصورة ثابتة نحو الأرض بينما هم يتفحصون جسدها، ويستكشفونه بأيديهم وألسنتهم، وبعد أن ينتهون يصيبونها بدفعة قوية علىٰ صدرها ويبصقوا بصقة سريعة أمام قدميها، وقبل أن يلتفتوا ليغادروا يصفونها بكلمات بذيئة ويشتمونها ويقولون بصوت أشبه بفحيح الحيّة:

– أنت فتاة مقرفة قبيحة، بشعة للغاية فرجك مثير للاشمئزاز حقيرة لا أحد يرغب في مضاجعتك حتىٰ لو دفعت له مقابل ذلك مالاً كثيراً.!

كل هذا ونحن نقف هناك صامتين لم ننبس ببنت شفة نبقي فمنا مغلقاً، ونعدُّ بصمت من العشرة إلى الصفر لنكون قادرين على التحمّل والوقوف في مكاننا ثابتين وننتظر أن ينتهي هذا وتنتهي الأمور على خير لكن أحياناً ننهار أنا وبيلا ومومو ونصرخ في وجوههم أن يتركوننا وشأننا، ونحاول بيأس أن نفلت من أيديهم، نبصق على وجوههم ونركلهم بركبنا، لكن دون فائدة، لم يكن ممكناً، كل محاولاتنا ميئوس منها، إنها معادلة غير عادلة، ليس هناك تكافؤ في القوى بيننا، إنهم أقوى منا بكثير، كانوا يمسكون أيدينا الصغيرة بقبضة يدهم القوية، وهم يضحكون ويسخرون منا، كانوا يمسكون أيدينا المشدودة بعضلاتهم وهم يبتسمون، كانوا هم وحدهم فقط من يقرر متى تنتهي اللعبة، كنت لا أتحمّل ذلك أبداً، لقد كرهتهم وكرهت الأولاد جميعاً، كان بوسعي تحمل أي شيء أي إهانة ممكنة غير ذل وإهانة هؤلاء الصبيان كان لدي الاستعداد لتقبل أي شيء كي أتخلّص وأتجنّب كلامهم المزدوج ذا المعنيين وإشاراتهم التي يفصحون بها والموجهة فقط ضدنا نحن الفتيات، تلك الكلمات العاطفية المؤثّرة التي تقطر عسلاً التي يقولونها لنا، أيديهم بالرغم من كل شيء كانت دافئة على أجسادنا، ابتسامتهم التي تضرب دواخلنا وتجعلنا نشعر بشيء ما في صدورنا، ثم بعد ذلك ينزلون علينا بالإهانات يدفعوننا ويهزؤون ويسخرون منا ويبصقون كأنهم يقدمون دليل إثباتٍ على عدم فائدتنا، وأننا غير مؤهلات وأننا شيء غير مرضي لهم، غير كفء بل مقرفات.

في الليل أبقى مستيقظة لا أستطيع النوم وأنا أحاول أن أغمض عيني لأنسى ما حدث، كنت أستلقي على فراشي أحاول نسيان أيديهم، نظراتهم، أنفاسهم، كنت أفكر بشكل محموم كيف يمكنني أن أتجنب إثارة غضبهم

كنت أحلم أحلام اليقظة عن الانتقام، كنت أتخيل بأنني كبيرة جداً وقوية، وخشنة وأن صوتي صوت ذكوري داكن قاسٍ، كنت أصرخ على الصبيان ومن شدة صوتي يتطاير شعرهم في الهواء، راجعة إلى الوراء كنت أبصق عليهم وعلى خدودهم كأنهم يستحمون ببصاقي ثم بعد ذلك يهرعون ركضاً هاربين مني وأنا أتسكع بتثاقل كبطل عملاق في ممرات المدرسة، الجميع يخاف مني لكن في الواقع لم أكن ضخمة الجسم ولا صوتي خشن ولا قوية، بل أنا رقيقة، جسدي نحيل وهزيل وهذا ما كان يزعجهم مني ويثير غضبهم، وهذا ما لا أستطيع التخلص منه.

كانت بيلا ترسل بطلبية لشراء البذور والنبتات من جميع أنحاء العالم لبيت مزرعتها مشتل الزهور، كنت أذهب معها إلى مكتب البريد مرة واحدة من كل شهر على الأقل لنحضر الشتلات، كانت بيلا تحمل باكيت الشتلات وعيونها تضيء وتتلألأ من البهجة والحماس، وعند وصولنا إلى منزل بيلا نجلس هناك في المطبخ إلى مائدة الطعام لعدة ساعات، ونحن نصنّف التشكيلة الكبيرة من النّبتات والبذور، ونفرز بعضها عن بعض، كانت البذور مغلّفة ومعبأة بعلب ومظاريف صغيرة ذات فتحات ضيقة، كلما فتحنا علبة أو مغلفاً تفوح منه رائحة عجيبة غريبة تصل إلى خياشمنا تملؤها بقوة كانت البذور ذات أشكال وأحجام مختلفة، بعضها كان كبير كحجم جوزة والأخرى كانت حبات بيضاء صغيرة بحجم ذرات الرمل، بحيث يصعب رؤيتها، بالكاد نشعر بوجود شيء ما في المغلف كانت بعض النبّتات توضع في علب كبيرة تحتوي على كتل يطلق عليها الجذور الهوائية أما النبتات الهشة والبراعم الخضراء الصغيرة توضع في مكعبات بلاستيكية صغيرة ذات فتحات وفجوات هوائية، وذلك كي تحافظ عليها وتحميها من الحرارة وتغيرات البيئة، وكي لا تخرب وتتلف وهي في طريقها من بلد إلى آخر.

كانت بيلا مولعة بمشترياتها فهي تقف بينهم تنتقي وتجمع وتلتقطهم بدهشة كبيرة بينما كان كتاب عالم النباتات مفتوح الصفحات على طاولة المطبخ، وكنت أساعدها في مراجعة وتدقيق الأسماء والمكونات المطبوعة على أغلفة العلب والمظاريف والتأكد من قائمة المشتريات بأنها هي نفسها التي كتبت على الفاتورة، وضعت بيلا أصبعها على صفحة المقدمة في كتاب عالم النباتات، وبدأت تقرأ قائمة محتويات أسماء الورود باللغة اللاتينية، بينما كانت تبحث: ميلتونيا كانديدا أونسيديوم تيجرينيوم فانيلا بلانيفوليا وغيرها، ثم بعد ذلك نقوم بمقارنة صور الزهور التي في الكتاب مع صور الزهور الموجودة على أغلفة العلب، وذلك كي تتأكد بيلا من أسمائها وأشكالها، وهكذا يكون لدى بيلا معرفة تامة وإلمام بالزهور التي تزرعها بحيث يكون من شأنها أن تدرك جيداً ما الذي تزرعه في مشتلها.

ذات صباح من صباحات يوم السبت كنا جالستين أنا وبيلا في مطبخها أمام علب البذور والنبتات التي وصلت إليها حديثاً، وقبل الظهر تماماً كنا قد انتهينا من فرز وتوزيع البذور وتصنيفها، وكل شيء كان على ما يرام، عبّرت بيلا عن ارتياحها وأومأت برأسها راضية، وكانت على وشك أن تعيد العلب والبذور والنبتات إلى مكانها عندما وقع نظرها ولمحت شيء ما هناك في أسفل الصندوق الكرتوني وقالت:

- أوه، هناك شيء آخر لم ننتبه إليه!

كان هناك في الكرتون قارورة صغيرة من البلاستيك وفي أسفل باطن القارورة كان هناك شيء أشبه بكتلة خضراء ووسط هذه الكتلة كانت هناك ورقة خضراء رقيقة تنمو خارجة من الكتلة، حملت بيلا القنينة البلاستيكية

بحذر وقربتها باتجاه ضوء المصباح بعناية لتتحقق منها بوضوح وترىٰ ما بداخلها وقالت:

- ما هذا؟

مددت رقبتي وألقيت نظرة فاحصة باتجاه الضوء، أنظر بعينين نصف مغمضتين كي أرىٰ:

- ما هذا الشيء؟

عبست بيلا وقطبت حاجبيها ونظرت عن كثب وقالت:

- إنها صنف ما، نوع ربما من أنواع الأوركيدة؟

قلّبت بيلا القارورة ولفتها لترىٰ ما إذا كان مكتوب عليها اسمها أو نوعها إلا أنها لم تجد أي شيء، نظرنا مرة أخرىٰ إلىٰ فاتورة قائمة المشتريات، لكننا لم نجد فيها شيئاً آخر إضافياً، في الأخير هزت بيلا كتفيها بلا مبالاة، ونهضت من الكرسي وقالت:

- لنزرعها في مزهر الورود ونرىٰ ما الذي يحدث.

في صباح اليوم التالي كانت بيلا واقفة أمام منزلنا وأصبعها ثابت علىٰ جرس المنزل وبيدها الأخرىٰ تطرق علىٰ الباب كي تتأكد من أنني سمعت صوت ضرباتها سمعت تمتمات والدي من الطابق العلوي وهو يتساءل:

- ما الذي يجري هناك؟ من الذي يطرق الباب صباح يوم الأحد بحق الجحيم (يوم العطلة) بهذا الشكل؟

ارتديت سروالي الرياضي سريعاً، وتسللت بخفة عبر الممر وتوجهت نحو الباب وفتحته، تعثرت بيلا فوق عتبة الدار، وأمسكت بي من كتفي وقالت:

- مذهل إنه لأمر مذهل رائع تماماً!

قالت جملتها مباشرة دون لف ودوران وأدارت رأسها وراحت تركض مرة أخرى في الشارع عائدة إلى بيتها، لم تنتظرني وظلت بيلا تركض دون أن تلتفت خلفها استندتُ بكل ثقلي إلى الباب كي لا أسقط، إنه شعور شديد بالكسل وذلك لأنني لم أكن قد صحوت من النوم جيداً صحصحت مجدداً ونظُرت من حولي أبحث عن شيء أرتديه في قدمي.

في ذلك الصباح وجدت نفسي واقفة في مزهر بيلا للورود، وأنا مرتدية قميص النوم والجزمة (حذاء أبي المطاطي).

أحسست بنسائم الربيع تهب من جدران مزهر الورود، وهي تلاعب ملابسي ويتطاير قماش قميصي الرقيق، نظرت بترقب وتأني عبر فتحة المدخل المنخفضة ورأيتها هناك كانت هناك! نعم إنها هناك إنها مجرد غصن نحيف لم تكن سوى ساق شاحب الاخضرار يبلغ ارتفاعه نصف متر في قمة الغصن كانت هناك كتلة على وشك أن تنشق وتتفتح عنها قطرات مزهرة على شكل دمعات أمسكتْ بي بيلا بيديها الاثنتين، كان جسدها بارداً وصوتها يرتعد ويرتجف، وهي تقول:

- ليلة واحدة يا كيم لقد كبرت النبتة في ليلة واحدة فقط!

تفقدت الغصن بنفسي وتفحصته جيداً في نظراتي، وتخيلته ربما كان مخملياً ناعم الملمس وتساءلت:

- متى تظنين أنها ستتفتح؟

- في أي لحظة لم يتبقّ لها الكثير!

هزت بيلا رأسها وتطاير شعرها الأحمر في الهواء، وعضت شفتها، وقالت بملاطفة جميلة:

- في الواقع لم يتبقّ الكثير من الوقت حتى تتفتح وتزهر!.

كنت قد جرجرت بيلا وسحبتها بالقوة لتترك مزهر الورود، فقد كانت تفضل أن تتناول فطورها هناك، كانت تريد أن تجلب اللبن والكورنفلكس والمربى إلى المزهر لنتناول فطورنا هناك كانت لا ترغب في مغادرة المكان وتريد أن تأكل وتشرب وتتغيب عن المدرسة كي تراقب فقط ليل نهار النبتةَ العجيبةَ كانت على استعداد حتى أن تنام هناك، فقد كانت تريد أن نحمل فرشنا وأغطيتنا والأضواء اليدوية وننام في مزهر الورود لكنني رفضت نظراً لبرودة الجو في هذه الأيام، فقد كنا لا نزال في شهر نيسان، ولا تزال قطرات الثلج لم تذب بعد من على الأشجار، ولم تخرج الزهور بعد من سباتها وبرد الشتاء.

كانت ظهيرة عاصفة، أمطار غزيرة، رياح قوية في الخارج، كنا ثلاثتنا منكبّين على المجلات ثلاثتنا في فراش مومو في غرفتها نتصفح ونقلب المجلات الغريبة التي قد سرقتها مومو من أدراج والديها المغلقة وجلبتها لنا لنطلع عليها كان مكتوباً على الغلاف "مستورد" وهناك أختام سوداء عليها، كانت المجلات عبارة عن نوع من الكاتلوج "دليل" لعارضات أزياء عراة، لكنهم يرتدون فقط مختلف الأنواع من أقنعة الحيوانات الموضوعة على وجوههم. إنها صور مخيفة بشكل فظيع، شعرت بالرعب وأنا أنظر إليها لكن مومو أعجبت بها لقد كانت عيونها تبرق، وتلمع وأصابعها تتراكض وهي تبللها بلسانها ولا تلحق قلب الصفحات من شدة تأثرها وكانت تمسد بطرف أصبعها قناع النمر وتمسح على وجهه وكأنها تعيد رسمه من جديد، ثم فجأة أغلقت المجلة بشكل سريع وقالت:

- حفلة تنكرية! يجب أن نقيم حفلة تنكرية، ها ما رأيكم؟!

ثم قفزت من السرير وذهبت إلى تابوتها الخشبي وفتحت الغطاء حيث كانت مومو تحتفظ بمختلف أنواع الأقمشة والملابس المختلفة من عدة عصور، وكذلك الأقنعة.

- بإمكاني أن أخيط لكم أجمل الملابس التنكرية والأقنعة، ويجب علينا تقديم الطعام أيضاً! والرقص!

كانت خدودها تشتعل وتتوهج احمراراً لمجرد ذكر كلمة "حفلة تنكرية" بدت لها اقتراحاً جذاباً ومذهلاً، وكأن الكلمة نفسها لها صوت رنين، وترن لتقول هناك أشياء مجهولة، أشياء وصور مليئة بالألوان، خطر على بالي وأنا أرى نفسي وصورتي الجديدة، كيم بالقناع والملابس المختلفة، كيم الصامتة الجدية شاحبة الوجه، تخيلت كيف يبدو شكلها بالملابس التنكرية منظر مختلف أقنعة لاصقة على وجهها وألوان مزركشة.

صمتُّ، لم أقل شيئاً لكنني أحياناً كنت أشعر بالغيرة بشكل رهيب من مومو وبيلا، وذلك لأنهن يملكن اهتمامات وهوايات خاصة بهن، يمارسنها في أوقات فراغهن، لكن أنا لا هواية لي ولا اهتمامات لديَّ ولا أملك شيئاً آخر سواهن.

أنا لا أملك غير فراغ كبير يسكنني، وكأن باطني خاو لا معنى له كنت أشعر كأن شيئاً يصرخ في داخلي بأن هناك خطأً ما، شيء زائف يجعلني لا أملك شيئاً.

أومأت لها برأسي بإشارة حماسية:

- نعم، لنقم بذلك! دعونا نفعل، ما رأيك بيلا؟ هل يمكننا ذلك؟

وبدأنا ننظر إلى بيلا كلانا أنا ومومو كأننا نحاول أن نقنعها من شدة شعورنا بالسعادة والحماس، كي نوقعها هي الأخرى لتكون معنا في لعبتنا هذه.

كانت بيلا تسخر أحياناً وتتندّر على أفكار مومو، وتقول إنها مجرد اختراعات وحيل فكاهية، وفي كل مرة تقول بيلا ذلك أتخيلها تماماً كجدتها عندما كانت تتكلم، لكن هذه المرة لم تقل بيلا أن فكرة مومو "تفاهات" بل أومأت برأسها مؤيدة مع ابتسامة على شفتيها بأنها توافقنا الرأي.

- يمكننا أن نقوم بذلك في بيت مزهر الورود!

قالت بيلا، وهي تلقي بنظرها قليلاً إلى السجادة على الأرض.

- سيكون أبي بالطبع في المنزل وأنتم تعرفونه، وتعرفون طبيعته.

نعم كنا نعرف بالطبع حالة أبيها لكن حديقتها كانت من أجمل الأماكن التي عرفتها في حياتي، وارتفعت حرارة حماسي وازدادت الإثارة في جسدي ورحت أصفق بيدي من الفرحة والسرور.

- نعم نعم نعم هذه الليلة!

لكن مومو لوّحت بأصبع السبابة غير موافقة وهي تنبش في صندوقها، وأخرجت شريط المقياس من بين الأغراض، وقالت:

- بالطبع هذا غير ممكن! الجو لا يزال بارداً ولا يزال لدينا الكثير من التحضيرات والمزيد من التجهيزات والإعداد للحفلة، تعالي إلى هنا كي آخذ مقاساتك، ارفعي يديك لأتمكن من أخذ مقاس صدرك.!

وقفنا أنا وبيلا كي تأخذ مومو مقاساتنا، وقفنا منتصبتين عاريتين لوقت طويل نرتدي الجوارب فقط، ويدانا مرفوعتان كأجنحة طائرة، بينما مومو تلف حولنا وبيدها شريط القياس تقيس وتكتب الأرقام في دفترها، كنت ألقي بنظري إلى عيون بيلا، وإذا بي أرى نفس البريق الذي يشع من عيوني تماماً يتلألأ في عيونها.

في تلك الليلة سمعت من يطرق على نافذتي كانت مومو وبيلا واقفتين خارج نافذتي، مومو بشعر منكوش غير ممشط ويبدو عليها النعاس بينما بيلا كانت يقظة نشيطة، كنت أرتدي بيجامة النوم، فسحبت لحافي تلحفته ولففته حول كتفي استعداداً للخروج، تسلقت إطار النافذة ونزلت إلى الحديقة، لامست قدمي أرض العشب الرطبة شعرت ببرودة تسري في جسدي، وبدأت أرتعش من شدة البرد، كان الليل صافياً عميق الأزرقاق، عطره منتشر، والمكان مليء برائحة الليل وقد خمدت الرياح وأصبح الجو هادئاً، كان هناك خارج بيت مزهر الورود على الطاولة مجموعة من أكوام الكتب مكدسة، وكانت بيلا قد حملت بجهد كبير جميع كتب عالم النبات من مكتبتها، ووضعتها على الطاولة قبل أن تأتي وتوقظنا، الآن نقف هناك نحن الثلاث، نشعر بالبرد، ونتساءل باضطراب وفضول وعيون محدقة.

كانت النبتة الغريبة تنتصب هناك كالملكة تحت سقف زجاج بيت مزهر الورود، كان رأسها كبيراً على شكل بوق "آلة الترومبيت" بدا وكأنه، مُثقل مليء بالسوائل، لكنه لم يكن متدلياً إلى أسفلِ ساق النبتة، لا بل كان مستقيماً بصورة ثابتة بحزم ينظر باتجاه ليل السماء.

عندما نظرت إلى هذه الزهرة تذكرت العطش، وكلما نظرت إلى منظرها الطويل المستطيل يخطر في بالي الشوق والحنين وأن أفتح فمي بدهشة لمنظر لسانها البنفسجي المرسوم بمنتهى الدقة وأوراق أغصانها والرهافة الشديدة للون الأبيض والأصفر الممتزج هناك في داخلها.

من خلال هذه الأفكار التي كانت تدور في رأسي تذكرت كلام الممرضة التي كانت في مدرستنا، حضرني صوتها وشرحها لنا لسن البلوغ والمراهقة بصورة مفصلة، وكيف ينمو الشعر لكلا الجنسين في المناطق الحساسة،

وذلك لحماية أعضائهم التناسلية، ثم هززت رأسي كي أنزع هذه الأفكار وأتخلص من صوت الممرضة، إذ لا ينبغي أن أفكر بهذه الطريقة، وبهذه الأمور، وأنا اقف بالقرب من وردة كهذه.

كانت مومو واقفة مكتوفة اليدين تحدق إلى الزهرة وبصوتها النعس تقول:

- أي نوع من الزهرات هذه إذاً؟

ابتسمت بيلا وهي تميل برأسها للخلف، ملامح وجهها لا يبدو عليه أي جواب، مجرد تعجب، دهشة، وتساؤل، كان تحت أظافرها تراب أسود وبقع خضراء على ركبتيها تلمع بضوء الليل، لم تقل بيلا شيئاً، فقط أمسكت بيد مومو، لم تمانع مومو في ذلك فدعت بيلا تمسكها وهي تقودها إلى رأس الوردة، كانت بيلا قد علمتنا كيف نمسك أغصان الورود، وكيف ندغدغها بأطراف أصابعنا، عندها شاهدنا نحن الثلاث كيف أن الوردة كأنها زفرت وتنفست وأخرجت نفساً، ثم ألقت برأسها على يد مومو، لقد استلقت برأسها الكبير إلى يد مومو كي تتدغدغ، حينها انقطعت أنفاس مومو، وأعادت يدها إلى الخلف قليلاً وسألت بعد لحظات:

- كيف فعلت الوردة هذا؟

ضغطت بيلا بيدها على أوراق الوردة كي تتحسسها، ثم قالت:

- أظن أنها "كارنيفور" زهرة آكلة لحوم البشر هذا النوع من الزهور تشعر عندما يلمسها أحد، نلمسها وإن استحق الأمر يمسكون بضحيتهم يحللونه ويمتصونه، أمسكت مومو بيدها وهي تنظر إلى الوردة بنظرة تعبّر عن القرف من الوردة وشعرت بالخجل كوني منذ لحظات قصيرة ظننت فعلاً أنها وردة سحرية حقاً كنت قد سمعت بالورد الذي يأكل لحوم البشر،

ولكن لم يتصادف أن رأيت واحدة من قبل ولم أظن أنها بهذا الجمال، كانت بيلا لا تنظر إلينا بل كان نظرها مركزاً على الوردة.

- أعتقد أنها كارنيفور ولكن لم أستطع أن أجد أي معلومة عنها في كتبي.

وأخيراً جاء الجو الدافئ والمساء الملائم لحفلتنا التنكرية، كنا كالأطفال الصغار المبتهجين متحمسين قبل ذهابهم إلى عرض السيرك، كنا نركض طوال الأسبوع ذهاباً وإياباً بين منطقتنا ومنزل مومو لنرى بلهفة شديدة كيف أصبحت ملابسنا التنكرية وهي تتحول إلى شيء غاية في الجمال على يد مومو السحرية.

لقد سمح لنا أهلونا أنا ومومو بالنوم لليلة في منزل بيلا، لقد وافق والد مومو في الحال وكذلك والدي وافق أيضاً رغم أن والدي ووالد مومو فوجئا قليلاً، وكانا مستغربين كيف سنقضي حفلتنا التنكرية هناك، وعندما طلبت رأي أمي أومأت برأسها موافقة رغم أنها كانت قلقة على وضعي لقد رأيت القلق في عيونها وهي تنظر إلى خصري الهزيل وتطورات جسدي وتحولي من طفلة إلى شكل فتاة بالغة، كما تشعر بالقلق أيضاً من نظراتي التي تغيرت في الشهور الأخيرة، لقد سمعتها تقول لأبي بأني يجب أن أتوقف عن هذه الألعاب، وأنها لا تظن أن فكرة استمراري في ممارسة تلك الألعاب والأزياء التنكرية فكرة جيدة لفتاة بعمري وهمست إليه بحذر وقالت:

- إنها كبرت على تلك الألعاب!.

لم تكن تعلم أنني كنت أسترق السمع إليهما لكن أبي رد عليها بهدوء وقال:

- ينبغي أن تكوني سعيدة طالما لا زالت ابنتنا تفضل اللعب بالألعاب الطفولية، سيحين الوقت وقد يحصل الأسوأ من ذلك.

في ذلك الغروب تركت منزل والدي المرتب النظيف، وأخذت قميص نومي وفرشاة أسناني ووضعتهم في الحقيبة، حملت الحقيبة على ظهري وخرجت.

كانت بيلا قد نقلت بعضاً من أثاث حديقة منزل والدها إلى قطعة الأرض العشبية بالقرب من مزهر الورود وأضاءت الشموع حول المكان، وكانت قد وضعت على طاولة الخشب - المزعزعة - غير الثابتة صينية وإبريق شاي بني اللون وأكواب وصحون ووعاء كبير من العسل وصحن كبير من الكعك والفواكه.

كانت بيلا هي المسؤولة عن بطاقة والدها الائتمانية البنكية كان والدها قد أعطاها إليها منذ فترة طويلة، وبالتالي هي من يقوم بشراء مشتريات المنزل واحتياجاته، كانت بيلا مسؤولة عن مصاريف البيت، وكل شيء، وكانت هي عادة من تتفقد النواقص وتحرص على التأكد من وجود الطعام في المنزل ولم يسألها والدها يوماً عن النقود، لم يطلب منها فاتورة أو إيصالاً لشيء ما، إنه لا يسأل عن شيء أبداً.

- لا يمكننا الجلوس هنا دون أن نرتدي لباس الحفل التنكري!

قالت مومو وأكلمت:

- كذلك سنفسد الحفل إن بقينا هكذا يجب علينا أولاً ارتداء ملابسنا التنكرية، ثم الجلوس إلى مائدة الحفل! ثانياً لا ينبغي علينا أن نغير ملابسنا في مكان واحد، لأن ذلك من شأنه أن يخرب الحفل أيضاً، وكذلك ينبغي

علىٰ كل واحدة منا أن ترتدي ملابسها في مكان بعيد عن الأخرىٰ حتىٰ لا يفسد عنصر المفاجأة، وأيضاً يجب علىٰ كل واحدة منا أن ترىٰ هي نفسها أولاً ولوحدها أمام المرآة كيف يبدو عليها اللباس التنكري. قالت مومو هذا فأومأنا أنا وبيلا برأسينا بالموافقة بحماس.

أعطت مومو لكل منا كيس ورقي في داخله ملابسنا التنكرية أخذت كل واحدة منا كيسها ودخلنا منزل بيلا وانتشرنا داخله، أخذنا حذرنا ونحن نقترب من غرفة المعيشة التي ينام بها والدها ومشينا بهدوء حتىٰ لا نوقظه، دخلت كل واحدة منا إحدىٰ الغرف وحرصنا علىٰ إغلاق الباب جيداً وذلك حسب تعليمات مومو والتزمنا بما قالته لنا، وذلك لأننا شعرنا بأنها مسألة تهمنا فعلاً، كانت فكرة مومو، هي عندما نغلق الباب ونرتدي لباسنا التنكري، يعنىٰ أننا نقوم بخلع شخصيتنا الحقيقية ونرتدي ملابس أخرىٰ لنصبح شخصيات مختلفة.

ألقيت نظرة علىٰ داخل الكيس لأرىٰ ما نوع القناع الذي سأرتديه.

عندما كانت مومو تأخذ مقاساتنا كنا لا نعرف أي لباس اختارته لنا واتفقنا علىٰ أن لا نرىٰ ولا نعرف ماذا كانت تخيط ولا أي قناع سنرتدي، ولا نعرف كيف سنكون، ولا كيف نتصرف كي لا نتدرب علىٰ قناعنا التنكري ويكون دوره مفاجئاً لنا، وهكذا خاطت مومو لنا ثلاث بدلات تنكرية في بداية اشتغالها كنا أنا وبيلا نساعدها لكنها لم تدعنا نرىٰ الملابس، حتىٰ نرىٰ لمساتها الأخيرة والنتائج النهائية، مهما كنا نتوسل إليها ومهما رجوناها إلا أنها كانت تتملّص وتهز رأسها قائلة:

- ينبغي أن نتحلىٰ بالصبر بين حين وآخر.!

انحنيت والتويت وزحفت على الأرض عصرت نفسي، صرخت، قفزت، استدرت كي أستطيع أن أرتدي الثوب التنكري الضيق والغريب بعض الشيء، ثم بعد ذلك رأيت نفسي في المرآة، كان نسيج القماش لونه فضي وسميك كان الجزء السفلي من اللباس غير محدد إنه شيء ما بين تنورة وسروال كأنه لباس الساموراي، كان طويلاً يصل إلى الأرض، الجزء الأعلى من اللباس كان قوياً على شكل درع مجهز بقطع صغيرة صلبة وكأنها عتاد حربي بحيث أخفى ثديي البناتي إلى مستو مسطح وحوله إلى صدر صبي، فكرت في "الأخوة قلب الأسد" في فيلم "تنجيل" الذين كانوا يخيفونني عندما كنت صغيرة، بلباسهم وحركاتهم، مسدت بحرص بيدي على القماش الخشن الذي أرتديه تأملت شكلي الجديد أصبحت براقة، لامعة وتخيلت نفسي قائد طاغية أو حاكم مستبد يسيطر بحكمه على عالم ما في مكان ما ربما في كوكب آخر في جانب آخر من العالم.

فكرت للحظات في الأمر ورأيت أن هذه الأفكار طفولية حقاً ونحن لم نعد صغاراً لقد كبرنا وقريباً سنصبح في الرابعة عشرة تذكرت نفسي كيف كنت عندما كنا نقوم بالتخطيط والتحضير في غرفة مومو نشاكس بعضنا بضجر وملل وقص القماش ونأخذ المقاسات ونحضر لهذا الحفل، وتذكرت والدة مومو وهي تغيب، وتظهر لنا في كل ساعة في الغرفة بينما كنا منشغلات، كانت والدة مومو تراقبنا بحدة بصر ونظرات ذات مقدرة على الفهم الجيد، وكانت تدخل أيديها الماهرة المليئة بالخبرة إلى عالمنا وتمسك المقص وبلمسة واحدة، سريعة، تعدل وتقص قطعة القماش، وتعمل التصاميم التي نريدها كانت كل لمسة منها للقماش أو أي قطعة من عدة الخياط كأنها تعطينا عيون البالغين لنرى بها الأشياء، وكنا نفهم كم هذه المواد والأقمشة والكارتون والورق المقوى والرسومات عليها وطلاء

الفضة والألوان والأربطة المطاطية... إلخ وكل الأشياء التي كنا نشتغل عليها طفولية وغير احترافية كم كنت أكرهها عندما كانت تشعرنا بهذا الإحساس، كم كنت أرغب أن أصرخ في وجهها وأكشف عن أسناني المتوحشة، وأقول لها: لا ينبغي لها أن تكون هنا معنا في هذه الغرفة لأنها تفسد كل شيء.

هززت رأسي ونفضت ذكريات والدة مومو وأخرجتها بعيداً عن رأسي وبالرغم من أنها لا تزال موجودة هناك إلا أنني أحسست بالسعادة في أعماقي، وشعرت فجأة برغبة في الغناء، لأنني كنت مقتنعة أن صوتي سوف يكون مختلفاً في ملابسي التنكرية هذه إذا فتحت فمي الآن سيكون صوتي قوياً خشناً وجميلاً، لكنني التزمت الصمت، ولم أرغب في أن أبوح بشيء، وأنا لم أكن جاهزة بعد ولم أستعد بشكل كامل، كان داخل الكيس قناع وعلي أن أرتديه لتكتمل شخصيتي، لقد صنعت مومو لي قناعاً أيضاً، تناولت القناع من الكيس وقلبته بين يدي.

عندما لامست يدي الجبس تذكرت اللحظات التي قامت مومو بصناعته لي كانت قد وضعت الجص على وجهي وهو مبلول شعرت ببرودته وتذكرت اللحظات والإحساس الجميل، وكيف ظل الجبس يحكني على وجهي، وكانت مومو لا تدعني أحركه أو ألمسه وتركته إلى أن يجف، وأخذ شكل وجهي وعندما انتهينا تنفست الصعداء، وأزاحت مومو القناع عن وجهي برفق شديد فتحررت وأخذت نفساً عميقاً.

أمسكت بخيوط القناع الرقيقة سحبتها ووضعته على وجهي، كان ضيقاً وأخذ يشد شعري ويؤلمني من جهة فروة الرأس، لكن سرعان ما غيّرت رأيي عندما نظرت إلى صورتي في المرآة، ورأيت نفسي بعيون أخرى،

لعبة الشطرنج مع دانتيل مزركش على الرقبة، كان يعتمر قبعة حادة المنظر وعليها أزرار مدورة، كان قناع وجهه أشبه بدمية ألوانها تلمع وخدود مدورة حمراء، وعيون صغيرة وحزينة، انحنى بياروت وكائن الصحراء وتبادلوا التحية بينها أنا وبياروت حيينا بعضنا بانحناءة، ثم جلسنا إلى مائدة الحفل وظهورنا مستقيمة مستعدين للاحتفال.

لقد استمتعنا بتلك الليلة وشعرنا براحة لا توصف إنها ليلتنا الأولى التي نكون بها معاً، أكلنا الكعك والمعجنات اللذيذة والفواكه الطازجة وشربنا الشاي المحلى بالسكر وكأننا ثملنا من شدة حلاوة الشاي وظلام الليل وسحره، كانت تفوح روائح ورود بيلا المسائية وتزداد عطورها ونحن نرقص تحت أضواء النجوم، كنا نمسك بأيدي بعضنا البعض ونحن نغني. وقد اختلقنا أغانينا الخاصة بنا، وأخذنا نغنيها كما نرغب وكما يحلو لنا، رقصنا طويلاً ودرنا حول بيت مزهر الورود الذي كان يتلألأ بشكل عجيب تحت ضوء القمر حيث انعكس لمعان الورود على المكان بشكل غريب، ووضع كائن الصحراء يديه التي تشبه مخالب القط حول فمه على شكل قمع مخروط وبدأ يصدر عويلاً كالذئاب متوجهاً برأسه نحو السماء، لعبنا ولعبنا ورقصنا طويلاً إلى أن سقطنا على العشب من التعب، وأصبحنا كومة كبيرة لا نستطيع الرقص، وبقينا مستلقيات فوق عشب الحديقة ومن حولنا تفوح روائح التعرق والمكياج والجص، ولو كنت قد خيّرت أن أحتفظ بلحظة من حياتي كي أعلقها على جدار غرفتي، لكنت اخترت تلك اللحظة واحتفظت بصورة بياروت وكائن الصحراء وقائد الطيور، وهم مستلقين أحدهم قرب الآخر ببطونهم المليئة بالحلويات وعيونهم المليئة بالتعب والسعادة، وخيارات الألعاب الكثيرة التي لا نهاية لها من حولهم.

نذهب ونتمشىٰ فوق الصخور، أو نمشي فوق الأعشاب الخضراء كل شيء كان جميلاً، ورائعاً، والهواء أشبه بنغمة موسيقية عذبة، كانت نسمات الهواء تعزف لحناً موسيقياً في كل خطوة نأخذها وتسمعنا غناءً يفرغنا من نفوسنا القديمة، في كل خطوة اتخذناها كنا نكبر ونفرغ من الأنا القديمة.

كنا جميلات جداً كنا جميلات جداً.

كم كنا جميلات! كم كنا جميلات!

التفت إلىٰ هناك خارج بيت مزهر الورود، بين لهب الشموع وضوءها الخافت كان يقف "كائن الصحراء" لم أكن أعرف اسمه، ولم أر مثله من قبل علىٰ الإطلاق لكنني أدركت عندما رأيته واقفاً أمامي من أنني أستطيع أن أصنّفه بين الكائنات، ولهذا أطلقت عليه "كائن الصحراء"، كان يرتدي بدلة لونها كلون رمال الصحراء لباس ضيق ذي أكمام طويلة يصل حوالي ثلاثة أرباع اليدين وكان يضع حول المعصمين أساور من المعدن الثقيل الخشن، وكانت الأظافر مبرودة كالسكين الحاد ومصبوغة باللون الأسود والشعر كثيف ومربوط بمربط من حديد في منتصف الشعر علىٰ شكل ذيل الحصان، وكأنه ساقط كشلال من أعلىٰ فروة الرأس، كان قناع الوجه مصنوع من الجبس ومثبت بحزام من الجلد لونه بني غامق متين مشدود حول الرأس وكان علىٰ قناع الوجه شعيرات من شعر القطط لكن ليس علىٰ الأنف أو الفم فقد كانا بشريين، كانت ألوان القناع مرسومة بدقة باهرة تثير الاعجاب، عندما اقترب (كائن الصحراء) منا انحنىٰ نحونا ليلقي التحية وانحنيت أيضاً أبادله التحية، التفت برأسي وإذ بي أرىٰ "بياروت" قادم يمشي نحونا عبر العشب، لم يكن بياروت، ولكن هكذا خطر في بالي عندما رأيت مشيته قادماً باتجاهنا بقناعه وملابسه التنكرية التي هي أشبه بمربعات

عيون جديدة من خلف القناع، بدأت أنظر إلى نفسي الجديدة كلياً عندها لم يعد يهم إن كنت أتألم قليلاً.

كان وجهي أشبه بوجه عصفور لا أستطيع أن أعرف كيف أبدعت مومو صنع هذا القناع لا أعرف حقاً كيف تمكنت من بناء هذه التركيبة للمنخار وخدود العظام ورسمت العيون ولونها الأسود، لا أدري؟!.

عندما لويت رقبتي وبدأت أحرك رأسي والتفت جانباً، كنت أبرق وكان جلدي الجديد يلمع، فكرت أنني كالعصفور صاحب الريش الرمادي والفضي الذي كان يحرك منقاره باتجاه السماء وعنقه الطويل الذي يحركه كحركات الأفاعي، عندها أدركت على الفور أن الكائن الذي في المرآة هو أنا وأن شخصية كيم ذهبت واختفت.

فتحت الباب وتسللت خلسة، أخطو خطواتي بحذر وأمشي خطوة خطوة، كنت أفتش عن الآخرين، حينها لم أجد أحداً في بداية الأمر، لم يظهر أحد في الأفق، لكن عندما خرجت إلى الحديقة لمحت ظلالاً هناك قرب بيت مزهر الورود، لعل ذلك بسبب حلول المساء وبدأ الظلام في كل مكان، كان وميض الشموع خافتاً وضعيفاً، بينما خيالات الظل كانت واقفة ثابتة.

مشيت في الحديقة على طول الممر المرصوص بالحجر، كنت أشعر وأنا أمشي بسروالي الواسع الكبير من حول ساقيَّ كأنه بالون وشعرت بأنني كالطائر المخوّض الذي يخبُّ في الماء بحثاً عن الطعام، نظرت بطرف عيني، ولمحت أحداً يفتح الباب هناك، وبدأ يخطو بخطوات بطيئة على عشب الحديقة.

ذهبنا باتجاه بيت مزهر الورود، ثم رزحنا هناك إلى المائدة الجميلة الباذخة الجمال والخيرات والنعم المركونة خارج بيت مزهر الورود كنا

كانت بيلا مشغولة تماماً بزهرتها الغريبة، إنها تحتل كل تفكيرها، كان هاجسها الوحيد مراقبتها وتفحّصها طوال النهار، لقد درست بفضول وحب استطلاع كل سنتمتر فيها، كانت تمسك بيدها المشرط لتنكش به والملقط في اليد الأخرى تلمس به أجزاء الزهرة وأحشائها، كان لديها مجموعة كاملة من الأدوات والمعدات الخاصة بالنباتات، ملاقط مقصات قامطة مشبك أداة نكش البتلات وغيرها، كانت تتفحص الزهرة وتنظر إليها عبر عدسات مكبرة، كنت أقف بالقرب منها في بيت مزهر الورود وأستمع إلى تساؤلاتها وهي تتأمل تلك الزهرة، كان الهواء ذا رطوبة عالية، وكانت بيلا تفصل وتباعد بحذر واحتراس شديد بين أوراق السبلات والبتلات بالقامطة وتكشط ذرة من حبات اللقاح الأصفر موجود هناك بكميات كبيرة وبعدها ترفعه بالملقط إلى الضوء عند عدسة التكبير كي ترى ما الذي التقطته من تلك البراعم الصغيرة وقالت:

- في الواقع هذا هو شكلها!

أزاحت بيلا البتلات في الملقط على جنب كي تدعني أرى أنا أيضاً ثم قالت:

- لا يوجد لديها حبات أسدية لديها مدقات أنثوية فقط! هل ترين؟

هززت رأسي بمعنى لا، إنني لا أفهم شيء.

كانت الزهرة من الداخل عبارة عن فوضى من حبات لقاح أصفر سبلات خضراء وبتلات وانتفاخات وحبات طلع ومياسم وأشياء صغيرة لا أستطيع أن أميز بينها أو أفهم شيئاً عنها.

أشارت بيلا بالملقط، وقالت:

- هذه المدقات الصغيرة التي هناك.... تعني أنها زهرة إناث.

نظرت إلى بيلا باستغراب.

- ألم نكن نعرف ذلك منذ البداية؟

ابتسمت بيلا وقالت:

- لا، لم نكن نعرف كنا نظن فقط أنها أنثى.

ثم رفعت بيلا الملقط قرب عينيها مرة أخرى وتمتمت بينها وبين نفسها:

- لم أكن أعتقد ذلك. حقا لم أكن أعتقد ذلك!.

إن أي زهرة تتكون من أربعة أجزاء رئيسية، هي الكأس والتويج والأسدية والمدقات.

الكأس وهو الجزء الخارجي من الزهرة ويتكون من عدة تراكيب شبه ورقية أو شبه تويجية تدعى سَبَلات، ويتكون التويج من بَتَلات (تويجيات).

أما الأسدية والمدقات فهي أعضاء الزهرة التكاثرية، حيث الأسدية هي أعضاء الزهرة الذكرية والمدقات هي أعضاء الزهرة الأنثوية.

تحتوي كل زهرة إما على أسدية أو مدقات وأحياناً تحتوي على الاثنين معاً، وتدعى الخنثى.

إن الأزهار التي تحتوي على الأجزاء الأربعة تسمى أزهاراً تامة أما الأزهار التي ينقصها جزء أو أكثر فتدعى أزهاراً غير تامة، إضافة إلى أجزاء الزهرة الرئيسية يوجد هناك في أكثر الأزهار غدد رحيقية تقع عند قاعدة الزهرة.

تكون أعداد مكونات كل محور رئيسي في الزهرة إما ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو مضاعفاتها في معظم الأنواع، فمثلاً في نبات الزهرة الثلاثية يتكون

الكأس من ثلاث سَبَلات والتويج من ثلاث بَتَلات، أما الأسـدية فعـددها ست أسدية، وتتكون المدقة من ثلاثة أجزاء متساوية، قد تكـون المكونـات منفصلة عن بعضها مثل بتلات الخشخاش أو الورد أو تكـون ملتحمـة أي متصلة ببعضها البعض، ويكون التويج على شكل أنبوب أو جرس أو بـوق أو جراب أو صحن إذا كانت بتلاته ملتحمة كما هو الحال في أزهار نباتـات أمجاد الصباح، والنرجس البري، والبطونيات، قد تكون البـتلات ملتحمـة عند قواعدها وحرة عند القمة كما هو الحال في زهرة الربيع المـسائية ورعـي الحمام، وبهذا تكون قاعدة التويج أنبوبية أو شبه جرسية وحوافة هدّابية.

تترتب أجزاء الزهرة الرئيسية حول مركز الزهرة في نمط دائري بحيـث إذا قسِّمت الزهرة طولياً من المنتصف في أي اتجاه تكون الأنـصاف متماثلـة، وتدعى مثل هذه الأزهار متماثلة شعاعياً، كما هو في أزهار الحـوذان وأمجـاد الصباح، وأزهار معظم النباتات الأخرى أمـا إذا كانـت الأنـصاف متماثلـة عند تقسيم الزهرة طولياً في اتجاه واحد فقط، فـإن الأزهـار تـدعى متماثلـة جانبياً، كما في نبات السحلب أو زهرة الخطم، وأنف العجل وأزهار بعـض الأنواع الأخرى تتكون السَّبَلات التي يتألف منها الكأس قبل أي جزء آخر في الزهرة في معظم الأنواع النباتية، وتعمل على حماية الأجزاء الداخلية التي تتكشف في الزهرة وغالباً تبقى السَبَلات متصلة في الزهرة بعد تفتحها.

تشبه السَّبَلات أوراق النبات، ويكون لونها مخضرّاً، وتقع أسفل الزهـرة في كثير من الأنواع، كـما هـو الحـال في نباتـات الحـوذان والمغنوليـة، إلا أن السَّبَلات والبتلات في أزهار أنـواع نباتيـة أخـرى تتـشابه بحيـث يـصعب تفريق بعضها عن بعض، كما هو الحال في النباتات التابعة لعائلـة الـسوسن والزنبق والسحلب، ويسمي علماء النبات هذه التراكيب المشابهة للبـتلات

بأشباه التويجيات، كما أن لأزهار بعض الأنواع سبلات ملونة عوضًا عن البتلات مثل أزهار شقائق النعمان والكبديات والعائق وأذريون الماء.

أما التويج يتكون من بتلات، وهو الجزء الرائع المنظر وذو الألوان المبهجة وفي معظم أنواع الزهور تجذب ألوان البتلات ـ وكذلك السَّبَلات الملونة ـ الحشرات والطيور التي تساعد في نشر لقاح الأزهار حيث تنشأ الألوان من مركبات كيميائية معينة موجودة في أنسجة النباتات ومنتشرة في جميع أجزائه لا في البتلات أو السَّبَلات وحدها لكن وجود كميات كبيرة من الصبغيات الخضراء، أو البنية في الأجزاء الأخرىٰ يجعلها غير ظاهرة وتتزركش بتلات كثير من الأزهار ببقع أو أشرطة أو علامات أخرىٰ تعمل علىٰ جذب الحشرات والطيور وتظهر رائحة الزهور من مواد زيتية موجودة في البتلات، وتعمل الروائح القوية مثل الألوان علىٰ جذب الحيوانات.

ان الأسْدية وهي (أعضاء الزهرة الذكرية التي تنتج الطلع) ليست لافتة للنظر في معظم أنواع الأزهار، ومع هذا تكون الأسدية أكثر أجزاء الزهرة جاذبية في أزهار بعض النباتات الأخرىٰ مثل أزهار السنط المذكَّرة التي تتألف بدرجة كبيرة من خصلة ريشية كبيرة مكونة من أسدية ملونة، تتألف السداة في أزهار معظم النباتات من جزأين ـ الخيط والمئبر يشبه الخيط ساقًا خيطيًا، أو شريطيًا له قمة منتفخة تشكل المئبر، يتكون المئبر من أربعة تراكيب شبه كيسية صغيرة جدًا يتكون بداخلها الطلع، تتفتح هذه التراكيب لنثر حبوب الطلع، تكون الأسْدية بعد نضجها منفصلة في كثير من الأنواع النباتية، لكن تلتحم في أنواع أخرىٰ مكونة أنبوبًا يحيط بالمدقة، كما هو في أزهار الخطمي وأنف العجل، وقد تلتحم الأسدية مع جزء

زهري أو أكثر فمثلاً أسدية زهرة الجنتيانا ملتحمة مع البتلات وأسدية أزهار السحلب ملتحمة مع المدقات.

إن المدقات وهي (أعضاء الزهرة الأنثوية التي تحمل البذور) تحتوي أزهار بعض الأنواع النباتية على مدقة واحدة مثل نباتات الفصيلة البقولية أو على مدقتين أو أكثر كما هو في بعض الأنواع النباتية الأخرى. وفي كثير من الأنواع تلتحم المدقات وتشكل مدقة مركبة وتدعى بالمدقة أيضًا للتبسيط، وتدعى كل مدقة في المدقة المركبة الخباء حيث يتكون الخباء في معظم الأنواع من ثلاثة أجزاء وهي الميسم والقلم (حامل الميسم) والمبيض، الميسم هو الجزء اللزج ويقع على قمة الخباء، والقلم هو أنبوب رفيع يصل الميسم بالمبيض، والمبيض هو تركيب أجوف يقع في قاعدة الخباء، ويحتوي على بويضة أو أكثر........

كنت أستمع وأنظر إلى بيلا وهي تدخل الملقط إلى رأس الزهرة كي تنقل واحدة من حبات المدق وتضعها على لوح زجاجي صغير ارتجفت الزهرة؛ لأنها تخدشت وتمايل رأسها، وكأنها غير راضية، وأنا أحسستُ بألم في معدتي من ذلك المنظر فقلت لها:

- إنها لا ترغب في ذلك! بيلا! إن الوردة تريدك أن تتوقفي، ولا تفعلي معها ذلك مرة أخرى.!

نظرت إليَّ بيلا بجدية وقالت بصوت حازم لكن بنبرة لطيفة أيضاً:

- لن يضرها ذلك بشيء!

وابتسمتْ لي وناولتني الملقط، وقالت:

- هل تريدي أن تجرّبي؟

أخذت الملقط الحاد من يدها وأنا مترددة شعرت بوزنه في يدي، ثم أومأت بيلا برأسها لتشجعني:

- إنها ليست مسألة صعبة!

وأزاحت بيلا جانباً من البتلات لتفسح لي المجال كي أتمكن من أن أكون أقرب مكان من رأس الوردة الكبير، ألقيت بنظري إلى داخل رأس الوردة وحاولت أن أستجمع قوة نظري لأرى كل ما بداخلها، بنظرات فاحصة ركّزت نظري وشعرت وكأنني أغمس رأسي وأغوص تحت الماء كانت الألوان غير طبيعية إنها حادة قوية واضحة ولاذعة بشكل تجعل العيون وكأن بها حرقة، وبدا صوت بيلا وكأنه قادم من بعيد:

- هل تري أكياساً صغيرةً هناك؟

نظرت جيداً، ثم شاهدت بين أقدام المدقات هناك أشبه بكرات صغيرة صغيرة، لم يكونوا أكبر من حجم حبات القرنفل، كان شكلهم متوتراً مشدوداً منتفخاً وجلدها رقيق منتفخ.

أومأت بحرص بأنني أراها نعم!

- اقطعي لنا واحدة ودعينا نرى ما بداخلها!

وضعت طرف الملقط على غشاء سطحها الرقيق وضغطت بخفة بيدي فقطع الملقط الحاد كيس صغير، وكأنني فقعت بالونة مليئة بالماء، خَرَّ من الكيس مادة صفراء سائلة فاحت منه رائحة عطرة فواحة، دخلتْ أنفي واخترقت خياشمي.

أخذت بيلا الملقط من يدي، وانحنت عليه وسارت إلى الأمام بحرص وحذر كي ترى بشكل دقيق وقالت:

- ممتاز!

نظرت

أمعنت بيلا النظر بطرف الملقط الحاد وتفحصته جيداً بشكل دقيق، ثم غمست ظفرها بالسائل وقربت أصبعها إلى أنفها وأخذت تشم رائحته بحذر:

- إن رائحته كرائحة العسل!

وراحت بيلا تفتش من جديد في أحد كتبها السميكة وبدأت تتصفح صور النباتات وتقلب الصفحات بحثاً عن هدف معين ما، ثم حصلت على الصفحة التي تريدها، وطلبت مني أن أنظر معها إلى الصورة، نظرت إلى الصورة، كانت بحجم الصفحة صورة ليرقة كاملة، كانت الفراشة ذات أجنحة باهتة البياض، لكنها محتقنة فأصبح جزء منها بلونٍ بني شاحب وكان جسد اليرقة طويلاً مكسواً بشعيرات مقرفة، وكذلك بدا منظر رأسها غريباً في عدسة التكبير خشناً بشعاً بشكل غير معقول، وعيونها مخيفة بشكل لا يطاق بحيث يصعب النظر إليها، وكان ذيلها ملفوفاً من الأسفل وهو أشبه بآلة موسيقية مدهشة المنظر.

لقد أشارت بيلا إلى صورة خرطوم الفراشة الذي في الكتاب إنه عبارة عن أنبوب طويل ماص أشبه بخرطوم، إنه ينطوي على نفسه عند عدم استعماله بينما شفتا الفراشة تعملان كالغمد لحماية الخرطوم، حين تستعمل الفراشة خرطومها لامتصاص الرحيق، وتساعدها على ذلك عضلات توجد في الرأس تسحب الرحيق إلى تجويف في الرأس، وعندها يغلق الغطاء في مؤخرة الخرطوم، فيمنع خروج الرحيق، نظرت بيلا إلى الصورة وقالت:

- إنه خرطوم الفراشة أنظري لقد أصبح هنا بقعة صفراء صغيرة من الرحيق على الورق!

ثم أكملت تقول:

- إنه ثاقب وحاد كالإبرة، إن خرطوم الفراشة يشبه تماماً "الحقنة الطبيّة".

تعمل الفراشة ثقباً في الكيس وتمتص كالإبرة سائل رحيق الأزهار كله، إن عملية الامتصاص لا تنتهي بسرعة إنها تتطلب بعض الوقت وأحياناً يتطلب المكوث على الزهرة لبضع دقائق، وهي تمص إلى إن تنتهي.

- أنظري هنا صورة الفراشة واقفة تمتص سائل رحيق الأزهار، وفي الوقت نفسه تلتصق حبوب اللقاح بها!.

- هل ترين هذا هنا في هذه الصورة؟ قالت بيلا، وهي تؤشر بيدها على إحدى الصور في الكتاب.

أومأت برأسي لها مؤيدةً.

كانت أرجل اليرقة مليئة بالأشواك، وكأنها أشبه بأرجل سرطان البحر.

- ماذا سيحصل بعدها؟

أغلقت بيلا الكتاب وتنهدت نهدة طويلة، وقالت:

- بعدها نتمنى أن يكون هناك وردة ذكر، كي تهبط عليها الفراشة في المرة المقبلة، ولكن لا أعرف كيف لنا أن نجد فراشة ذكراً.

كان الهواء دافئاً والأرض ساخنة، وذلك بفعل أشعة شمس الربيع الساطعة، وكانت آخر حصة لنا في المدرسة هي درس الرياضة، لعبنا لعبة كرة القاعدة، وهي بالطبع من اختيار الأولاد إنها لعبة من ألعاب الكرة،

تشبه لعبة البيسبول الأمريكية، وبطبيعة الحال وافق الجميع نزولاً عند رغبة الصبيان.

كنا أنا وبيلا وبومو بطيئات الحركة، نقف كالكسالى في منتصف الملعب بالكاد نخطو خطوة واحدة باتجاه اليمين أو خطوة واحدة باتجاه اليسار أو نراوح في مكاننا كنا نمد أيدينا مرة مرتين ثلاث لنمسك الكرة، ونحاول التقاطها، لكننا لم نفلح ولا مرة واحدة، إننا لا نحب لعبة كرة القاعدة بالرغم من أننا أحياناً كنا نلعبها في الملعب الذي يقع خلف منزل مومو حينها كنا نضرب الكرة بالمضرب الخشبي ضربة قوية بكل قوتنا، وكنا نلحقها ونركض ونلف حول الملعب وننجح تقريباً في إمساك الكرة في كل ضربة، ولكن هنا في ملعب المدرسة اللعبة تختلف، إنها شيء آخر تماماً كان الصبيان يلاحقون بنظراتهم كل حركة، كل لمحة تصدر منا، نحن البنات، ينظرون ويترقبون كل شيء لا تفوتهم أي فرصة للسخرية منا والتعليق، كانوا يقومون بحركات لخداعنا كأن يحاولوا رمي الكرة إلينا إلا أنهم يرسلونها بعيداً ساخرين يتضاحكون.

كانت لدى مومو ساقان طويلتان قويتان، لكنها لا تستغل هذه الميزة، وكانت تتحرك متثاقلة في الملعب كأنها تحاول أن تجعل نفسها غير مرئية وحمقاء جبانة قدر المستطاع، كنت أقف هناك في الملعب معكوفة اليدين، لم أكلف نفسي حتى غمزة أو همزة لتشجيع الفريق عندما صرخ بي معلم الرياضة بأعلى صوته أن أحاول على الأقل أن أقوم بشيء ولو قليلاً من أجل الفريق.

كان ثديا بيلا يهتزان ويرتجان من فوق إلى تحت كلما تحركت في الملعب، كان حجمهما كبيراً جداً، وعندما تركض لا يمكن لأي قميص بلوز رياضي

في العالم يستطيع إخفاءهما وعندما كانت تحاول وتبذل قصارى جهدها وتركض جاهدة وراء الكرة لتقدم شيء من أجل الفريق بأعلى سرعتها نسمع على الفور صافرات الصبيان وتعليقاتهم السمجة يصرخون فوراً ويصفقون بأيديهم فتحمرّ وجنتا بيلا، وتلهبا ناراً وعندها تتوقف عن الركض حينما تسمع صوت أحد الصبيان صارخاً:

- تعالي إليَّ يا حبيبتي تعالي قربي لألمسهما تعالي كي أنال من نهديكِ!!!!

فجأة انقلبت معدتي وشعرت بالغثيان، فكرت هكذا للحظات بأنني تحولت إلى ذلك العملاق الكبير الذي أتصوره دائماً في أحلام اليقظة وتخيلت نفسي كيف أسير بخطواتي الواسعة على أرض الملعب، وألتقط بيدي الضخمة العملاقة الصبيان وألقي بهم بضربة سهم واسعة سريعة بعيداً على بعد آلاف الأميال خارج الملعب والمدينة والمجتمع، لكن جسدي الضعيف وجنسي اللطيف، جسد فتاة نحيل لا يقوى على شيء، صمتُّ وخفضت نظري إلى الأرض، فوقفت هناك أشعر بعدم ارتياح في معدتي، وبقيت أبتلع وأبتلع لعابي كي أمنع رغبتي في التقيّؤ، كان معلم الرياضة واقفاً هناك بصافرته يستمع ويرى كل شيء، لكنه لم ينطق بكلمة واحدة، وضع الصافرة على فمه، وصفّر معلناً انتهاء الحصة، وأن اللعبة انتهت، ثم أومأ بحركة أثناء كلامه لي وإلى مومو أن نلتقط المضارب الخشبية والكرات وشارات الطريق الحمراء، ونحملها كلها إلى غرفة مخزن الألعاب الرياضية، كان ذلك أشبه بنوع من العقاب لمن لم يبذل مجهوداً رياضياً في حصة الرياضة ويكون مجبراً على جمع الأغراض بعد انتهاء الحصة وحملها إلى المخزن فالجميع ببساطة يعرف ويرى من هو المعاقب، وهذا هو المقصود من ذلك الفعل وهو أن ينفضح أمر الشخص ويشار إليه كمرتكب لخطأ

ويصبح مرغماً على حمل الأغراض وكذلك دفعه للإحساس بالخجل لأنـه لم يجهد نفسه بما يكفي في ممارسة الرياضة، كانت مومو مشدودة وهي تنفّذ ما طلب منها المعلم بينما أنا تراخيت وتخلّفت وبقيت أنظر إلى بيلا وهي تسير نحو غرفة تغيير الملابس ورأسها منحن إلى الأرض، ركضت نحوها وأدركتها، وعندما وضعت يدي على كتفها توقفت وابتسمت لي ووجهها شاحب اللون، وقالت:

- إنهم غير ناضجين!

كنت أرغب أن أرد لها الابتسامة أيضاً، كنت أريد أن أرد عليها بإيماءة تريحها وتواسيها كنت أتمنى أن أقول لها:

- نعم نعم إنهم غير ناضجين وإنهم حمقى، لا تهتمي أو تبالي لأمرهم!

لكنني لم أكن أستطيع، لم أستطع أن أبتسم لها ولا أن أطيّب خاطرها بإيماءة، لم أستطع فعل أي شيء، ذلك لأنني كنت أعرف أن الأمر هو أكبر من عدم نضجهم، بل كان الأمر على العكس تماماً، كان الفتيان يستضعفون الفتيات بالفعل، ويستغلّون كونهم صبيان ليفعلوا بنا ما يشاؤون فعله، تأثرت جداً وشعرت بالغثيان مرة أخرى وبحرقة داخل بلعومي وإنني بحاجة إلى التقيؤ، وبدل من أن أتقيأ خرجت مني كلمة بقوة التيار الكهربائي:

- صبيان!

ثم قلت لها:

- ينبغي أن يكون هناك من يوسعهم ضرباً، ينبغي ضربهم إلى أن يتأدبوا، شخص ما يوجّه لهم لطمة على وجوههم كي لا يعيدونها أبداً مع

أي فتاة كانت، نظرت بيلا إليّ وعيونها تومض مليئةً بالتعجب من كلامي، ثم هزت كتفها وقالت:

- أريد أن أستحم، ثم بعد ذلك نذهب إلى المنزل.

كانت بيلا تمسك بذراعي واضعة يدها داخل يدي ونحن نسير معاً في طريقنا باتجاه المدرسة، عندما وصلنا وجدنا مجموعة الشباب واقفين خارج البوابة بالانتظار، توقفت أنا في مكاني، ولم أتحرك، لكن بيلا لم تتوقف استمرت بالتقدم كأنها اتخذت فجأة قراراً حاسماً مع نفسها بأن ترفض، لن تتركهم يخيفونها إنهم لا يملكون الحق بترويعها فرفعت بيلا ذقنها عالياً وتركت ذراعيها ممدودتين على الجانبين ولم تعكفهما كالعادة وتوجهت مباشرة إلى الأمام نحوهم، وللحظة اعتقدت بأنهم سيتفرقون ويفسحون لها المجال ويدعونها تمر، لم أنتبه إلى ما قالوه لها، لكنني سمعت فقط طبقة صوتهم بنبرته المزيفة وكلماتهم الكاذبة والمنمّقة وهم يقولون:

- افسحوا لها الطريق دعوها تمر، دعوها تمر!

لقد ترك الشباب بيلا تخطو بضع خطوات نحو الباب وقبل أن تصل طوّقوها داخل مجموعتهم والتفّوا حولها بشكل دائرة وراحوا يضغطون بأجسادهم على جسدها قليلاً قليلاً، وبينما هم يعتدون على جسدها بدأ الشباب بإدخال أيديهم من تحت ملابسها، وراحوا يلمسون نهديها وهي تصرخ وترفض غاضبة وتحاول أن تفلت من قبضتهم الخانقة إلا أنها لا تستطيع وأصبحت في متناول أيديهم يلعبون بها ما يشاؤون، خلعوا ملابسها سحبوا حمالة صدرها ورفعوها في الهواء كانتصار كبير لهم، وأخذوا يلوّحون بملابس بيلا الداخلية فوق رؤوسهم في الهواء، وهم يطلقون ضحكاتهم الساخرة ويؤشرون.

كانت بيلا تقف محدودبة على بُعْدِ عدّة أمتار بعيداً عنهم وهي عارية تغطي صدرها العاري بكلتا ذراعيها وشعرها منكوش متطاير على وجهها، ظلّت بيلا تضغط بقوة على صدرها بيديها وهي واقفة ثابتة في مكانها لا تتحرك.

مَرَّ كل شيء بسرعة فائقة كلمح البصر، عندما حدث ذلك لم يكن باستطاعتي فعل شيء ولم يكن بوسعي مساعدة بيلا، كانت ساقي قد تسمّرا وقدماي تحجرتا في مكانهما ولم أستطع تحريكهما وشعرت بتشنّج في قدميَّ كأنني أُصبت بشلل وفقدت الحركة ولكن عندما غادر الصبيان سرعان ما تحسنت حالتي ورجعت أشعر بقدماي مرة أخرى فاندفعت مسرعة إلى بيلا مباشرة وصرخت وراء الصبيان لتأنيبهم:

- يا مصاصي القضيب أولاد القحبة اللعنة عليكم أيها الشياطين ليس لكم الحق أن تفعلوا ذلك! لكن اللعبة انتهت بالنسبة للصبيان، لم ينظروا إلى بيلا، ولم يعودوا يهتموا بها ولم يبالوا لصراخي ولعناتي عليهم إطلاقاً، ألقوا بملابسها على صدري، ثم أداروا ظهورهم لنا وذهبوا إلى غرفة التبديل كأن شيئاً لم يكن، أعطيت بيلا ملابسها.

كانت بيلا مرتبكة مشوشة فاقدة السيطرة على نفسها، سقطت حمالة الصدر منها على إسفلت الشارع، تركتها هناك دون أن تشعر، وارتدت قميصها فقط، وعكفت ذراعيها حول صدرها ووقفت هناك أمسّد بيدي على شعرها وربتّ على وجنتيها ملاطفة وقلت لها:

- بيلا يا جميلتي لا تدعيهم يدخلون أو يلمسون داخلك أرجوكِ لا تسمحي لهم أن يمسوا داخلك لا تدعيهم يمسوك!

كانت بيلا تجاهد بقوة لتمسك نفسها كي لا تبكـي تـضغط بيـدها علىٰ عيونها بشدة كي تكبت دموعها، أنفهـا كـان يرتجـف والمخـاط يـسيل علىٰ شفتها العليا، حضنت بيلا ومسحت علىٰ ظهرهـا، في هـذه الاثنـاء لمحـت مومو تخرج من غرفة مستودع المواد عنـدما شـاهدتنا أسرعـت مومـو إلينـا راكضة، نظرت مومو إلىٰ حمّالة صدر بـيلا الـذي كـان لا يـزال ملقـىً علىٰ إسفلت الشارع، ولم تنطق بكلمة واحدة، ولم تسأل شيئاً أبداً فقط احتضنتنا بذراعيها بصمت.

كنا نقف هناك نحضن بعضنا البعض، ونواسي بعضنا بأجسادنا، كانـت قلوبنا تنبض معاً، لم أكن أعرف إن كان قلبي يـدق سريعـاً أم هـي نبـضات قلب بيلا التي تتسارع، بحيث استغرق عدة دقائق كي أعود لأتنفس بشكـل طبيعي وأجد إيقاع نبضي العادي.

بعد ذلك اليوم لم نر مومو، ولم نسمع عنها شيئاً انقطعـت عـن المدرسـة لأكثر من أسبوع كامل، وأوقات العصاري كنـا نلمحهـا مـن وراء الـستائر جالسة في منزلها حزينة تخيط الملابس، مررت من قرب منزلها عـدة مـرات، وكنت علىٰ وشك أن أطرق البـاب، ولكننـي لم أفعـل، كنـت أمنـع نفـسي، وذلك لأنني كنت أشعر مثلها تماماً فنحن إذا التقينا سنستعيد سريعاً وجـوه الصبيان وملامحهـم، وسـوف تلاحقنـا صـورة بـيلا وهـي تحتـضن بيـديها جسدها العاري، هذه الذكريات سوف تعاودنا عندما نلتقي.

كانت هذه الصور تظهر في ذهني كل ليلـة، تـبرز ملامحهـا أمـامي كلـما أغمضت عيني، إنها تلاحقني في كـل ليلـة، ولا أسـتطيع أن أهـرب منهـا، كنت أتوق لوضع قناع علىٰ وجهي كي أختبئ به، وأهرب من نفسي ومـن العالم كنت أرغب بأن أرتدي لباساً يجعلني أكون إنسانة أخرىٰ غير كيم فتاة

SBBS

أخرىٰ غير التي يلاحقونها في ساحة المدرسة، كل يوم قناع يجنبني التعرض للمواقف المحرجة، ولعبة المطاردة التي يطاردوننا بها كل يوم.

مضت الأيام سريعاً وانقضت أيام المدرسة، كنا نسير أنا وبيلا بنفسية محطمة في ممرات المدرسة، وكنا نشعر بالأذىٰ عندما كان المعلمون يسألونا كل يوم عن مومو، كنا نهز أكتافنا ونجيبهم بأننا لا نعرف عنها شيئاً.

ذات ليلة من ليالي الجمعة كان الوقت متأخراً عندما خلدت إلىٰ الفراش وكان القمر ساطعاً مشرقاً كضوء كبير يشع من خلال لوح زجاج نافذتي كنت مستلقية أتقلّب في فراشي لا أستطيع النوم، وذلك لأنني شعرت بأن الغطاء كان خشناً علىٰ بشرتي الحساسة، ثم فجأة رأيت ورقة صغيرة تتهاوىٰ في هواء الغرفة قذف بها أحدٌ ما من فتحة النافذة، كانت رسالة مقتضبة وقصيرة، ولكن فيها معلومة كافية:

- لقد أكملت عملي الآن، غداً موعدنا مساءً.... م!

قرأت الرسالة ووضعت الورقة تحت وسادتي، وحلمت تلك الليلة بالفراشات الزاهية الجميلة.

كان المساء دافئاً، فصل الربيع أوشك علىٰ الانتهاء، وسيحل محله فصل الصيف، كانت أوراق الأشجار قوية واضحة حادة الاخضرار وعندما التقينا ثلاثتنا لم ننطق بكلمة واحدة، سلمت مومو لكل واحدة منا كيسها الورقي، نظرنا بصمت بعيون بعضنا البعض فقط، ثم أخذتْ كل واحدة كيسها بشكل رسمي تقليدي.

عندما فتحت الكيس الورقي في غرفة بيلا وأخرجت لباسي التنكري شعرت بضربات قلبي تزداد وتتسارع، وكادت أن تصبح مثل مطرقة تدق في آذاني.

لقد خاطت لي مومو لباساً تنكرياً بزي نمر، وهو عبارة عن معطف طويل من جلد النمر مع غطاء على الرأس وكفوف طويلة مرقعة باللون البني تصل إلى الكوع وعلى كل أصبع من تلك الأصابع هناك مخلب طويل ملون باللون الذهبي، أما قناع الوجه فلم يكن مصنوعاً من الجص ليخفي ملامح وجهي لا وإنما كان عبارة عن جورب شفاف رسمت عليه خطوط رشيقة باللون البني الداكن ذات انحناءات رقيقة جميلة سحبت الجورب ذا الخطوط البنية ووضعته على وجهي، وارتديت المعطف ووضعت غطاء الرأس وبقيت أنظر إلى نفسي في المرآة للحظات.

خرجت صرخة قوية من فمي اصطدمت بزجاج المرآة وارتدّ صوتها إلى الغرفة، كان الصوت حاداً قوياً مدوياً كأنه دويٌّ مفرقعات ظل يرتطم ويرتد بقوة بين جدران الغرفة كلها.

بعد أن هدأت وأخذت فكرة عن شكلي واستوعبت هويتي الجديدة جيداً تمكّنت أن أنظر في المرآة مرة أخرى لتعزيز هويتي الجديدة ولأتأكد من اضمحلال شخصيتي واندماجها مع شخصيتي الجديدة نظرت في المرآة وإذا بي أرى نمراً مخيفاً، نمراً واقفاً يحدق بي بعينيه الصفراوين اللتين تشبهان شعلة نار تلتهب، شاهدت نمراً يتطلع في وجهي مباشرة بوجهه الساحر المتوهج الداكن الخطر كأنه يهدد العالم من حوله إنه يشبه نمر حكاية "الولد في الغابة" "شيري خان".

وهكذا تمكّنت من ترسيخ هويتي الجديدة داخل نفسي ونظرت من جديد إلى نفسي في المرآة مرة أخرى، وهذه المرة كنت أرى نمراً مخيفاً.

كان الرداء الواسع قد أخفى جسدي النحيل وغطاء القبعة خبّأ حركة جسدي المعتادة وأصبحنا نتحرك معاً، عندما أتحرك يتحرك هو أيضاً وكلما

تحركت، يتحرك هو أيضاً ولكنه كان لا يتحرك مثل فتاة ضعيفة محنية الظهر ووجهها مليء بحب الشباب ولا كتلك الشخصية المريضة بالتوتر والقلق لا، بل كان يتحرك داخلي نمر، نمر قوي يتمشى ويتنقل كالملك، كنا وكأننا نحن الاثنين كواحد وأصبحنا واحد، أنا وهو أنا - هو وهو - وأنا.

نعم في الواقع أعترف أن مومو قد تفوقت على نفسها هذه المرة في صناعة الملابس، لقد أبدعت وفاجأتني بإبداعها. عندما كنت أسير متوجهة إلى بيت مزهر الورود، وأنا أشعر بثقل الرداء على كتفي، وعلى جميع أنحاء جسدي أدركت حينها أن مومو قد خططت لهذا المساء بدقة متناهية من وإلى أصغر التفاصيل، كان بيت مزهر الورود مضاءً بوهج مشاعل جميلة، وعلى ما يبدو أن مومو تمكّنت من إحضار جهاز ستيريو أيضاً ضخم الصوت، حيث صوت الموسيقا يتدفق من داخل بيت مزهر الورود بشكل خافت، ويأتي صوت الطبول والإيقاعات بشكل مبهم هادئ يشي بنوعٍ من الغموض، وألحاناً موسيقية تتماوج وتتمايل الروح لها وهذا ما جعلني أفكر باللون الذهبي وبياض العيون اللامعة.

لقد استضافتنا مومو عند وصولنا إلى موقع الحفل، وعندما اقتربت منها عند المائدة الخشبية عرفت أنها كانت متنكرة بزي رجل "إمبريالي" "استعماري" مرتدية قبعة بيضاء وفوق شفتها شوارب تقليدية، تقدمت إلى مدخل البيت الزجاجي، ولحظة فتحت باب مزهر الورود لمحت رأس الزهرة وهي تومئ بحركات خفيفة ثم تنحني وتومئ برقبتها وكأنها عازمة على أن تلقي نظرة خاطفة علينا، والآن انفتح باب الشرفة وظهر الرجل الإمبريالي وهو يضحك مسروراً، خرج من باب الفناء ذي "الظهر الفضي"، كان الرجل الإمبريالي يمشي ويضرب بقبضة يده على اليد

الأخرى، متوجه نحونا وعندما وصل إلينا أخرج صوت زعيق كالقرد ثم انفجر ضاحكاً، حتى أنني لم أستطع أن أتمالك نفسي من الضحك، وبعدها انحنى لنا الرجل الإمبريالي، وألقى التحية وأشار لنا بيديه المرفوعتين باحترام إلى مائدة العشاء وقال:

- أهلاً بكم أصدقائي الأعزاء في المدار الاستوائي تفضلوا إلى مائدة العشاء فالطعام جاهز!

كانت السماء نقيّة ومرصعة بالنجوم وكنا مستلقين على العشب الأخضر أمام بيت مزهر الورود الزجاجي ننظر إلى السماء، ونضع رؤوسنا على بطون بعضنا البعض.

كانت مومو قد خلعت قبعة الرجل الإمبريالي، وأصبح شعرها الكثيف على صدري النمري، الورود متفتحة من حولنا يتوهج باطن جوفها الناعم بشكل ضوء خفيف يضيئها في الظلام، الزهرة لا زالت تنظر إلينا من فتحة باب البيت الزجاجي كان وجهها ناعماً منفتحاً على نحو سلس، مما جعلني أفكر بالفراشة كيف لها أن تدخل إلى داخل الزهرة وتثقب كومة من أكداس الرحيق بخرطومها الحاد الثاقب العنيف، وتمتص رحيق الأزهار كيف لها أن تمتص الرحيق؟ كيف؟

رفعت جسدي قليلاً واستندت بمرفقي إلى الأرض وحملت كوب الشاي، وأنا اتأمل تلك الحركة البارعة الماكرة للفراشات كيف لها أن تجد في كومة أكداس أكياس الرحيق ما يناسبها هي بالذات يا للعجب!

ثم بدأت أخاطب جميع الورود والزهرات بشكل محترم:

- أيتها السيدات والسادة هل ترغبون بقليل من قطرات شراب مخمر أصيل؟

رفعت مومو رأسها من فوق صدري، ونظرت إليَّ باستغراب، لملمت ردائي وثبتُّه حول جسدي، ثم مشيت بخطى واثقة باتجاه الزهرة.

دخلت إلى داخل الزهرة وبدأت أتفحصه فرأيت حاويات الرحيق قابعة وسط التاج واكتشفت أيضاً أنها منتفخة ومليئة جداً بالرحيق وعلى وشك أن تنفجر، كانوا كالدمامل الصغيرة تحضنهم أوراق حامية وكأنها تشكّل حاويات لاحتضانها، كانت الأكياس مشدودة كأنها تتألم من انتظار مشوب بالتوتر، مليئة بشيء، بحاجة إلى أن يخرج منها.

وقفت بيلا على قدميها وهي مرتدية زي الغوريلا، كان مزاجها رائعاً ممتازاً طيلة الليلة، كانت تضحك وتصدر صرخات عاتية كأصوات القرود في كل ثانية، لكنها أخيراً شعرت بالتعب وأصبح صوتها مبحوحاً أجشَّاً وأخذت تترنّح أثناء المشي، سارت تتهادى باتجاه بيت مزهر الورود.

- أوه، نعم! سوف توهب لنا حياة أخرى جديدة تدخل أجسادنا وستكون النجوم حميمة ووفية لنا حتى الممات!.

هنا ضحكت مومو وكتمت ضحكتها من شكل بيلا المنهارة، ومن حركاتها، وهي واقفة هناك على اللوح الحجري بملابسها التي أصبحت أضحوكةً عليها فقد ارتفع سروال الغوريلا، وأصبح بإمكاننا أن نرى جواربها الشخصية، لكن بيلا أصرّت أن تتحدث بجدية واستمرت بكلامها الجاد ونظرت إلى مومو التي التزمت بدورها الصمت والجدية، ثم قالت بيلا:

- أيتها السيدات والسادة، دعونا نعقد اتفاقاً بيننا، دعونا نعد رحيقاً من مخلوط الشراب السحري كي نشربه لوحدنا معاً، ونعد بعضنا بعضاً بأن لا

نخبر أحداً آخراً أبداً، ولا نبوح بكلمة عن شرابنا السحري هذا مهما كان ومهما حصل على الإطلاق!

وبينما كانت بيلا تتحدث، فجأة رفعت كوب شايها عالياً باتجاه السماء ورفعنا كؤوسنا بدورنا أيضاً، فقفزت بيلا قفزة عالية من الفرح.

ركضت بيلا مهرولة نحو الزهرة وقفت أمامها وأمسكت برأسها وحنته إلى الأسفل بحذر، انحنت الزهرة بسهولة مذعنةً لرغبة بيلا.

- نعم! نعم، أقسم أنا أيضاً بأن لا أتكلم أبداً!

أقسمنا نحن الثلاثة بأن لا نتكلم كلمة عن شرابنا السحري هذا.

لقد خزقت بأصبع السبابة لمخلب النمر واحدةً من الأكياس الزرقاء الصغيرة المنتفخة التي على الزهرة، وتدفق منها الرحيق الكثيف وسال فوضعنا منه قطرة واحدة فقط في كل كوب من أكواب الشاي، ثم رفعنا أكوابنا وتبادلنا الأنخاب.

شربنا (شرابنا السحري) المخلوط مع الشاي جرعة واحدة وفجأة أحسسنا باختلاف طعم الشاي فقد أصبح حلو المذاق مع تنكيهةٍ باهرة لا تقاوم، وبعد أن انتهينا من شرابنا السحري رفعنا أبصارنا عن أكوابنا ونظرنا في وجوه بعضنا البعض، ثم غرقنا في صمت عميق.

عندما شربنا شرابنا السحري أُصبنا بالخرس، ومشينا في صمت مطبق عبر حديقة منزل بيلا متجهين إلى غرفة نومها وعندما دخلناها كنا صامتين لم ننطق بكلمة واحدة، ثم وقفنا أمام المرآة التي كانت على باب خزانة الملابس (هي مرآة وباب للخزانة في الوقت نفسه) وبدأنا نخلع ملابسنا قطعة قطعة عن أجسادنا ببطء شديد كنا نتركها تتساقط من على أجسادنا

كما لو أننا كنا نقشرها بتأن واحدة تلو الأخرى، ثم نتركها تتساقط إلى الأرض بحركة بطيئة جداً، كنا نحدق بأجسادنا في المرآة دون كلام، نتنفس فقط وننظر تارة إلى أجسادنا، وتارة إلى صورتنا في المرآة، كنا ننظر بين الفينة والأخرى إلى أسفل أجسادنا، ننظر فقط وأعيننا تحدق إلى المرآة، وكأننا نرغب في أن نسألها:

– هل هذا صحيح الذي نراه؟

– هل هذا الذي يحدث حقيقي أم هو مجرد حلم أو ربما سنصحو منه بعد قليل، لنتقيأ، ثم نتذكره بعد ذلك كمجرّد حلم فقط؟

وقفنا نحن الثلاثة عاريات في غرفة نوم بيلا أمام المرآة الموضوعة على أبواب الخزانة المصنوعة من الخشب الأحمر، وقفنا ننظر إلى أجسادنا ونرى أنفسنا وهويتنا الجديدة بذهول ودهشة، لقد اختفت النهود من أجسادنا، ولم يعد لها أثر واضمحل خصرنا المنحني الأنثوي وأصبحنا مستقيمي الورك كالصبيان، وتحول الكتفان والذراعان إلى أشكال تختلف عن أكتافنا وأذرعنا، وظهرت لنا أشكال جديدة، كالأعضاء والعضلات تحت جلودنا حتى بدت كأنها واضحة من خلال الجلد وأصبح لدينا حناجر خشنة ورقاب أعرض وفي منتصف البلعوم كبرت تفاحة آدم فجأة وأصبحت كبيرة كثمرة البرقوق الناضجة حتى صرت وأنا أبلع لعابي أشعر كأنها واقفة في وسط بلعومي تتمايل وتقفز بوزنها الثقيل، أما بطوننا الغارقة بالدهون فقد انسحبت إلى الداخل، ولم يعد هناك أي دهون وإلى أسفل الجسم لم يعد هناك فرج بين الفخذين كان الشعر لا يزال موجوداً إذا أمسكناه وشددنا عليه بأصابعنا في الاتجاه المعاكس سيؤلمنا، وذلك لأن هناك تحت الشعر يوجد قضيب (عضو الذكر) وأسفل القضيب كان هناك جلد طري يغطي

الحشفة كان معلقاً تحت كمرة القضيب كيسان، كان شكلهما مجعداً ويشبه أكياساً من الجلد، وبداخلهما حجران بيضاويان.

كانت مومو أول من فتحت فمها لتتكلم فجاء صوتها أغلظ من المعتاد، تكسر وتصدع، وانشق في المقطع الأخير من الكلمة، وصار كصرخة الأولاد وهم يتقاذفون الكرة فيما بينهم :

- يا إلهي!

أمسكت مومو وعاء الخصيتين بيدها وبدأ الدم يتدفق إلى وجهها، نظرت إليها ورأيت كيف انسحبت الخصيتان وانحصر كيس الصفن وعينا مومو مفتوحتان من الدهشة:

- ياللـ.... إنها تشبه ذلك........

ولمست خصيتيَّ أنا أيضاً ووضعتها بين يديَّ، شعرت بدغدغة خفيفة في الحجاب الحاجز وارتعاشة بين ساقي تشبه رفّة جناح، أو رفة طير يهم بأجنحته للطيران، كنت أتكلم بصعوبة كان هناك شحطة في بلعومي كما لو أنني كنت أبلع شعرة.

لقد تحولنا إلى صبيان وها نحن نقف هنا، وحياة جديدة بين أيدينا، نتباهى بأنفسنا، ونحن ننظر إلى هيئة أجسادنا الجديدة، وكنا كلما شددنا بأيدينا على قضيبينا، أو استعرضنا أي عضو من أعضائنا نشعر بشيء جديد يحدث في دمائنا، كنا نتباهى ونحن نتفرج ونراقب أجسادنا الصبيانية في المرآة، وفيما نحن نمد أيدينا لنلمس انعكاس صورتنا على سطح المرآة الزجاجي لمع ضوء من أعيننا عكسته المرآة، وأومض كبرق انعكس من عيوننا من خلال زجاج المرآة.

لمحت نفسي وأنا أركض إلى أسفل الشارع في منتصف الليل، كنت أركض وأركض بسرعة كبيرة كانت ساقاي مليئتين بالسرعة والحيوية كأنهما مصنوعتان من طاقة وقوة عجيبة، كنت أضرب الإسفلت بأخمص قدمي وأشعر كأنني أقوم بترسيخ أقدامي استعداداً للانطلاق عالياً، كانت كل خطوة ألمس بها الأرض كأنها ترتد بشكل قفز وطيران في الهواء، كنت أكتسح الرياح وأسبقها وأنا أطير وأطير، إنه شعور رائع أن تكون قادراً على الطيران كما لو أنك تولد من جديد، كما لو أن جسدك نسي ذكريات الماضي وحط على أرض غامضة غير معروفة.

كنت أركض وبينما مومو وبيلا تركضان خلفي، كن يضحكن ويصرخن ويمرحن، كنت أعلم أن الأصوات التي خلفي هي أصواتهم على الرغم من أنها لا تبدو كأصواتهم المعتادة وأنها أصبحت أصوات صبيان، لقد استطاعت مومو أن تلحق بي وتسبقني وكنت أرى وجهها الذي تحول إلى صبي إنه لا يشبهها أبداً ولكن مع ذلك كنت أعرف أنها مومو، ربما من عيونها التي بالكاد تشبه عيونها عندما كانت فتاة، أو ربما عرفتها من تعابير وجهها المطبوعة في ذاكرتي مسبقاً أو ربما من طريقة ضحكتها التي أطلقتها من قلبها وهي تمر قربي لتسبقني، لا أعرف لقد قفزت مومو في الهواء وامتد ذراعاها في اتجاه السماء كما لو أن العالم كله أصبح بين ذراعيها ويأتمر بأمرها.

كنا قد وصلنا إلى مركز المدينة عندما وجدنا أمامنا الشوارع مضاءة تلمع وتتلألأ، كنا نسير ثلاثتنا جنباً إلى جنب، لم نتكلم بل كنا لا نشعر بحاجة إلى الكلام وكنت أشعر بالاندهاش الذي ظل يدق ويقرع في داخلي بعنف وسمعت كيف استنشقت مومو نفساً عميقا شفطت به كل الهواء وجميع الروائح، وأدخلتها إلى أنفها ونظرت إلى بيلا كيف كانت تستعرض

عضلاتها المشدودة القوية، والتقينا على الطريق بمجموعة من الصبيان، نظرنا إليهم ونظروا إلينا، تصادمت نظراتنا بنظراتهم لجزء من الثانية، ثم أشاحوا بوجوههم عنا ومضوا، بدا الأمر غريباً بالنسبة لنا لم ينظر لنا الصبيان بنظراتهم المهينة تلك التي كنا نعاني منها، ولم يتفوهوا بكلماتهم البذيئة التي كنا نكابدها طويلاً، ولم يرمقوا أجسادنا من فوق إلى تحت بنظراتهم القاسية المريبة، لا رغبات، ولا شوق عارم، ولا ابتسامات ساخرة منا، ولم نهرب منهم ولم نحاول التملص منهم ولم تكن هناك نظرات خبيثة تتسلل تحت جلدنا وتخترقه لتؤذينا وتؤثر على براءتنا بشكل سلبي ولا أي شيء من هذا القبيل، كان مرورنا مجرد مرور عابر، رمونا بنظرة جانبية من طرف أعينهم فقط أو ربما التفتوا نحونا مرة واحدة أو مرتين، وهم ذاهبون في طريقهم بعيداً عنا.

التقينا بالفتيات أيضاً على طريقنا لكننا لم نكن نعرف كيف سنتصرف أو ماذا سنفعل عندما تلتقي عيوننا بأعينهن أو كيف ستكون ردة فعلنا تجاه نظراتهن الرقيقة لكننا خفضنا عيوننا إلى الأسفل ونظرنا إلى الأرض وتحاشينا النظر إليهن، كنت أفكر في نفسي بالحياة، بذواتنا وهويتنا، وفكرت بهذا الواقع، كم هو غريب وعجيب لدرجة الجنون، إن الذي حدث لنا هو أننا تحولنا إلى ذكور، وذلك الإنسان المتحول الذي يتحول من امرأة إلى رجل أو من رجل إلى امرأة هو في الحقيقة واقع غريب وغير معقول ولا يمكن له أن يحصل لكنه مع ذلك يحصل، إنه لم يكن حلماً ولم تكن تلك لعبة نلعبها، بل كان كله واقعاً، هذه هي الحقيقة، أجسادنا الجديدة، إن مجرد التفكير بهذا يجعلني أصاب بالذهول والاضطراب.

إن أجسادنا وهويتها الجديدة عكست هيئتنا الجديدة أمام الآخرين، وبدأ الغرباء ينظرون إلينا نظرة مختلفة إنه أمر جنوني لا يصدق لقد اجتاحت رأسي هذه الأفكار وأمسكت بتلابيبي فشعرت باضطراب نفسي وأصبت بدوار كاد يطرحني أرضاً مما جعلني أتكئ على كتف مومو وأنا أسير واضطرت مومو إلى لف خصري بذراعها واحتضنتني، وطوقتها بذراعي ووضعت يدي حول عنقها وتقاربت أجسادنا، يا إلهي ما هذا الشعور ونحن نقف قرب بعضنا البعض بأجسادنا الصبيانية، لقد شعرت بجسد مومو الصلب وجلدها الطري الصبياني كيف كان يفتح نفقاً تجاه جسدي، وكأنني شعرت بواقع آخر عميق جداً أعمق من المعتاد، مما جعلني أطلق سراح يديها وأتركها على الفور وانفجرت بالضحك في الحال، لقد كانت ضحكتي مضطربة بشكل عصبي مما أدى إلى خروجها في الهواء كالطاقة المهتاجة المحتقنة، ثم ركضت على بعد خطوات قليلة وأمسكت بجاكيت مومو وسحبته إليَّ وأنا أهرول كالمهر لتطاردني قليلاً إلى أسفل الشارع وذلك قبل أن أتمكن من نسيان ما أشعر به وما كان واقعياً وما هو غير واقعي، وما هو مستحيل وما لم أستطع التفكير به بشكل منطقي.

لاحت في الأفق خيوط الفجر، وأشرقت الشمس على المدينة كان شريط أشجار الغابة يفصل بين السهول العالية والمدينة كنا نجلس في الغابة على ركبنا بين أغصان أشجار الصنوبر الفضي الوفيرة، كنا على الأرض وسط شجيرات التوت البري المتساقط من الأشجار، كانت أشجار الغابة مبللة بقطرات ندى الصباح والأرض مفعمة بالرطوبة، وكل شيء مبلل من حولنا، توغلت الرطوبة إلينا عبر بنطلونات الجينز التي نرتديها وأصبحنا مبللين شعرنا ببرودة حادة من هواء الصباح البارد، وبدأ المخاط يسيل من

أنوفنا فأمسكنا بأيادي بعضنا البعض لنتدفأ وجلسنا متشابكي الأيدي، كانت على يد مومو آثار خدوش، لأنها جرحت بأحد فروع أغصان شجرة الصنوبر الجافة الرفيعة عند قدومنا، شدتني من ركبتي وتمزق بنطالي وجُرح جلدي وخرج بعض الدم وأصبحت ركبتي مزرقة حمراء، لحست شفتي العليا كي أمنع المخاط أن يسيل من أنفي أكثر، وشعرت بخشونة شعر صغير شكني كان قد نما حديثاً على شواربي، كنا نجلس هناك قريبين جداً من بعضنا البعض نشكل دائرة مغلقة وأيدينا الصبيانية المتشنجة تشبك بعضها ببعض.

طوال الليل كنا مفتونين ثملين بولادتنا كصبيان، وكنا على حركة دائمة واحدة مليئة بالحماس والحيوية، ولكن الآن عاد ضوء النهار وأشرقت الشمس على الطريق مرة أخرى وغدونا منهكين متعبين بشدة، لكننا لا نجرؤ على أن نغمض عيوننا كي لا نصحو من ذلك الحلم، لم نجرؤ على ذلك حتى لا نفقد بعضنا البعض لحظة واحدة، كنا لا ندع أحدنا يغيب عن نظر الآخر ثانية واحدة، كنا نقوم بمحاولات يائسة كي نطرد النوم من أعيننا، كان يراودنا هاجس داخلي مزعج ينتابنا كلما حاولنا إغماض أعيننا وكنا نشعر بالسوء إذا أغمضنا عيوننا واستسلمنا للنوم لأن ذلك سيحطم كل شيء ويعاد الكابوس المزعج من جديد ونعود فتيات مرة أخرى.

كنت أرتجف من شدة البرد والإرهاق، كانت مومو تمسك بيدي وتحضنها، وكان صوتها متكسراً صبيانياً وبالرغم من أني كنت أسمعه طوال الليل إلا أنني كنت أجفل كلما سمعتها تتكلم وأكتشف أنها تحولت إلى صبي:

- هل تعتقدون بأننا سنموت؟

كنا صامتين، وأنا أفكر بوالـديّ وتخيلـت كيـف سـيقدمون بلاغـاً عـن اختفائي للشرطة؟ ولكن حتىٰ لو بحثوا عنـي لا يمكـن لأحـد أن يجـدني؛ لأنني الآن شخص آخر، بهوية أخرىٰ، فأنا لم أعد فتاة أنا الآن صبي.

لن يتمكن أحد من العثور علـيّ، وفي نهايـة المطـاف وبعـد أن يـصبحوا يائسين يبقىٰ السؤال بلا إجابة، يبقىٰ الأمر علىٰ حالـه وسـتحفظ قـضيتنا في الشرطة في قسم الحـوادث، ونبقـىٰ مـسجلين في قـسم الجـرائم المجهولـة، سيتسائل والدا مومو ووالد بيلا أيضاً، الجميـع مـن شـأنه أن يتـسائل أيـن اختفت الفتيات الثلاث، وعاجلاً أم آجلاً سـيعثر شـخص مـا عـلىٰ ثلاثـة صبيان مجهولي الهوية في الغابـة ميتـين، يمكـنهم أن يتعرفـوا عـلىٰ ملابـسنا، ولكن ثم ماذا بعد؟ ماذا سيحدث بعد أن ينجحوا بـالعثور عـلىٰ الملابـس؟ إنهم لم يستطيعوا أن يجدوا إجابة أخـرىٰ، ولا يمكـنهم أن يتقـدموا خطـوة واحدة لما بعد الملابس، لا يمكنهم التفكير بماذا حدث لنا.

لقد تعقدت الأمور وتشابكت خيوط الحالة جميعهـا في دمـاغي، وذلـك لأن الموضوع غير معقول ولا منطقي، وأن ما حصل كله وضع مستحيل لا يصدق.

ولكنني لم أقل كلمة واحدة لبيلا أو مومو عما كنت أفكر به، بل حاولت أن أبيّن لهم بأنني أسيطر علىٰ وضـعي وحـالتي وذلـك مـن خـلال صـوتي الثابت الرزين القوي وقلت:

- لا بالطبع لن نموت!.

نظرت بيلا إليَّ وبدا عليها التعـب، وكـان بيـاض عيونهـا محتقن مائـل للاحمرار من السهر وشفتاها الصبيانيتان ترتجفان من شدة الإرهاق والـبرد والخوف.

- ربما هذا كله مجرد هلوسة هذيان فقط في الواقع ربما نكون ما زلنا فاقدين الوعي غارقين في أحلامنا مستلقين على العشب في منزلنا ربما كنا نحن أنفسنا ولم نتحول إلى شخص آخر!.

لم أرد عليها ولم أجبها بكلمة واحدة وشعرت فقط بتلك الكتلة الكبيرة "تفاحة آدم" في حنجرتي بدأت تتأرجح تصعد إلى فوق وتنزل إلى تحت رغم أن فمي أصبح جافاً تماماً وزحفت مومو بجسدها واقتربت مني أكثر ووضعت يدها حول خصري وحشرت نفسي قرب جسدها الدافئ وشعرت بحاجة للبكاء وبرغبة دموعي وحاجتها الماسة للخروج من عيوني، وتقربت بيلا منا أيضاً وأصبحت وجوهنا الصبيانية قريبة جداً لدرجة أستطيع أن أرى مسامات وجهها وشعيراتها وحب الشباب والشامات على خدودها، ولكنني تركت هذا كله وحاولت أن أنظر في عيونها مباشرة لا إلى مكان آخر.

نزلت من عيون بيلا الخضراء المتعبة والخائفة في الوقت نفسه دموع غزيرة بكت وبكينا معها وأمسكت مومو يدي بقوة وقالت:

- إذا نحن متنا إذا متنا الآن على الأقل سنموت معاً!.

أومأت بيلا برأسها مع ابتسامة شاحبة ظهرت من بين دموعها وقالت:

- نعم!.

أحسست بنبض بيلا ومومو ودقات قلوبنا المتوافقة وغرقت بالتفكير في علاقتنا القوية المتينة وقلت:

- نعم، إذا كنت سأموت فإنني أود أن أموت بكل سرور الآن هنا ومعكم!

وأحسست بأنفاس مومو على وجهي وكان خد بيلا على عنقي، وكان كتف مومو يشد ويمتد ويحتك بكتفي، ثم همسنا لبعض:

- إذا كان هذا هو الموت وإذا كنا قتلنا أنفسنا وأن ما فعلناه سيؤدي بنا إلى الموت إذاً فلندع الموت يأخذنا الآن ونحن جالسون هنا معاً أحدنا قرب الآخر!.

بعد أن قلنا هذا الكلام شعرنا بالتحرر كأن شيئاً أطلق سراحه في دواخلنا، توقف الألم وارتحنا وشعرنا باسترخاء وهدوء في صدورنا أصبحت أجسادنا ليّنة طرية وأخذت نفساً عميقاً وامتلأت رئتي بالهواء وكاد الهواء يفجر ضلوعي الضعيفة الصبيانية.

وبعد ذلك كل ما أتذكره في تلك الليلة هو أنني كنت نائمة وخدي على إبط بيلا وكانت رائحتها جذابة وحادة بعض الشيء.

عندما استيقظت كانت أشعة الشمس تنتشر في الغابة بين جذوع الأشجار الغليظة عندما فتحت عيوني كان جسدي الحساس بارداً ورطباً، وكانت السماء باهتة الزرقة، بسبب الغيوم التي كانت تنتشر بشكل متفرق هنا وهناك، مما جعل السماء تبدو كأنها ملونة ببقع بيضاء متفرقة على صفحة زرقاء فوقنا، عالياً، رفعت رأسي وأسندت كوعيَّ إلى الأرض، ونظرت من حولي، ثم نهضت وأخذت نفساً عميقاً، مددت ذراعي وأنا أتطلع من حولي، ثم تذكرت، لقد تذكرت كل شيء، تذكرت كل ثانية وكل دقيقة من ليلة أمس، اللعبة، نشوة الإحساس، السعادة بالثمالة، الخوف، وعندما رأيت صديقاتي الأخريات عضضت لساني وضغطت عليه بقوة لدرجة أنني شعرت بطعم الدم يجري في حلقي وعندما فتحت فمي وصرخت كان صوتي هو نفسه تماماً، كان صوتاً حاداً شديد الوضوح، كما أتذكره دائماً،

اغتسلنا بشكل جيد ومسحنا وجوهنا وأيدينا ومشطنا شعرنا وأزلنا أوراق الأشجار عنه.

ثم نظرنا إلى وجوهنا في المرآة، وشاهدنا ثلاث فتيات ذات وجوه مألوفة، ولكن كان لهنّ عيون جديدة.

استيقظت صباح اليوم التالي مبكرة، كانت الرياح قوية في الخارج وكنت أنصت إلى حفيف الأشجار وصوتها وهي تهتز من شدة الرياح، كانت جدران المستودع الخشبية تطقطق بقوة شديدة، وما زال يخيم على دماغي كابوس الأمس وأنا أحاول أن أبعده عني، لا أريد أن أتذكره، ليس الآن، ليس بعد الآن، سمعت نفسي أصرخ في الغرفة لا لا أريد لا أريد أن أكون هكذا مرة أخرى لا!

لكن لا يوجد أحد هنا غيري كنت وحدي أنا في الغابة والبيتُ وصورٌ تتطفل وتحشر نفسها في ذهني رغما عني:

وبينما أنا أسير في الغابة، كانت أغصان الأشجار اليابسة والناتئة تخدش وجهي ويدي، بينما كنت أحاول أن أتجنبها. وعندما كنت أرفع نظري لألقي نظرة كنت لا أرى أمامي أي شيء (ولا حتى سقف السهر)، لم يعد هناك غابة ولا أشجار، ثم فجأة أرى نفسي واقفة هناك على شارع إسفلتي وأمامي بيت من زجاج يحترق، تتفجر شبابيكه أمامي وأصوات لرجرجات طنانة عالية وحادة، أرفع يدي كي أحمي نفسي من الشظايا التي تتطاير هنا وهناك وأحتمي من حرارة النيران الملتهبة وفجأة أرى هناك شخص في الداخل يحترق، أرى وجهه، عيونه مغمضة الأجفان وفمه مفتوحاً، ثم أركض إلى هناك، أندفع بقوة ربما أنا من كان يصرخ أو ربما كان صوتاً يصرخ من

- يجب أن نقسم بالشرف والضمير أن لا نخبر أي كائن حي آخر عن ذلك الذي حدث لنا ليلة أمس يجب أن نقسم، يجب أن نَعِدَ بعضنا البعض بأن لا نفعل ذلك أبداً أبداً مرة أخرى؟!.

وهكذا أقسمنا ووعدنا بعضنا ألا نفعل ذلك أبداً وأومأنا برؤوسنا وحلفنا أن ذلك سيكون سراً بيننا نحن الثلاث فقط، ثم ضحكت مومو قليلاً وهي في منتصف الجدية وسخرت منا مشاكسةً ومن أشكالنا المتسخة التي أصبحت كالكائنات الأسطورية، فقد كنا كالأقزام المخيفة التي تسكن الكهوف والغابات الإسكندنافية وضحكت من كل ما حدث لنا وأن كل شيء كان جنونياً ويبدو بعيداً عن المنطق، إنه جنوني حقاً جنوني ومدهش بشكل لا يصدق وضحكت أكثر وضحكنا معها أيضاً أنا وبيلا.

كانت بيلا تراقب أغصان أشجار الذرة الذهبية، ثم ألقت بنظرها إلى شمس الصباح العالية بعيون نصف مغمضة، ثم راحت تفتش في جيوب سروالها الجينز عن ساعتها اليدوية:

- الساعة السادسة صباحاً فقط لا أحد سيلاحظ غيابنا هيا بنا لنعود إلى المنزل!.

لقد كانت بيلا على حق، كان والد بيلا في المنزل نائماً على الفراش أمام التلفزيون وشاشة التلفزيون تُلقي بتوهجها الأزرق الخافت على الصالة ويمكننا مشاهدتها من خلال فتحة باب الصالة، تسللنا من المدخل وسرنا خلسة كي لا نوقظ والد بيلا، ثم دخلنا الحمام مسرعين.

كانت الملابس المتسخة معلقة على أجسادنا بشكل منحرف سحبناها ونزعنا أجسادنا عنها، تحسست ركبتي فلقد كانت تؤلمني، لكن لا يبدو عليها علامات أزرقاق ولا توجد هناك خدوش على يد مومو ولا بيلا،

كنت مستيقظة وكان هذا هو الواقع الحقيقي، وأننا لم نمت ولم نكن ميتين ومبللون أومتسخون، فقط كانت ملابسنا قذرة، ولكننا لم نكن ميتين لم يكن الموت هو الذي أتى ليأخذنا، بل كان شيئاً آخر قد حدث، شيء غير مفهوم إنه أمر مبهم، على أية حال عاد كل شيء كما كان سابقاً.

لم يعد لدينا هيئة صبيان وعادت لنا أجسادنا عادت لنا أثداؤنا أفخاذنا وأعضاؤنا التناسلية وعادت إلينا أشكالنا الأنثوية وعدنا لأشكالنا الحقيقية، فرحت فرحاً شديداً، وصرخت بأعلى صوتي ودوّتْ صرختي وصيحاتي، وذهب صداها إلى الأعلى فوق أشجار الغابة كلها، ناديت وهتفت ورفعت يدي إلى السماء وهززتها في الهواء ملوحة بهستيريا، استيقظت بيلا ومومو على صوت صيحاتي، كان النوم لا يزال يُغشي عيونهم، ثم شاهدت كيف عادت إليهما الذاكرة مرة أخرى، ورأيت رد فعل وجوههم كيف أزهرت ونورت من شدة الفرح، عندما أدركوا أنهن لا زلن على قيد الحياة واحتضنا بعضنا البعض بقوة بيلا وأنا ومومو، حضنّا بعضنا بقوة وضحكنا وبكينا قليلاً، قفزنا عالياً من الفرح والحماس، ثم تحسست بيلا صدرها ووضعت يديها على نهديها كي تشعر بوجودهما، وتتأكد من أنها عادت فتاة مرة أخرى، وبدأت تنظر إلى الأسفل لما بين ساقيها والى نهديها بحنان ورأيت مقدار الحب والحنان في عينيها وفي يديها، كان ذلك حب الذي بدا في نظرات عينيها ولمسات يديها، وعندما هدأت الإثارة وخفتت الفرحة عاد إلى أذهاننا ما مررنا به وتذكرنا آلام أجسادنا فجلسنا على الأرض وقرّبنا رؤوسنا من بعضنا البعض، ثم تحدثنا بهدوء بصوت منخفض وجدية عالية، نظرتْ مومو إلينا بعيونها الواسعة المفتوحة وقالت بصوت هادئ وجاد:

داخلي، لا أدري من أين أسمع الصراخ وقبل أن أستيقظ من الكابوس أتطلع بشكل مباشر إلىٰ داخل البيت أراه محروقاً ومتفحّماً بشكل تام.

كنت أطبخ العصيدة في المطبخ وأشم رائحتها الشهية، وهي تغلي وصوت ملعقة الخشب يطرطق، كان الشرار يتطاير من موقد الحطب، كنت أنظر إلىٰ خارج المنزل لأرىٰ الشمس المشرقة تتسلل من بين أغصان الأشجار التي كانت تحركها الرياح كيفما تشاء.

كانت عصافير بطني تزقزق من الجوع وترغب في "سعرات حرارية" من الطعام لكنني لم أستطع أن أصبر إلىٰ أن يبرد طبق الطعام فتذوقته وهو ساخن فاحترق لساني وبلعومي.

إن الطاقة تلهب جسدي، كانت القوة تتدفق بجسدي كخيوط لهب مشتعلة، وصلت لسعاتها وارتعاشاتها إلىٰ ساقيَّ عندها شعرت، وكأنني أقفز من شجرتي الأقوىٰ لأفرغ شحناتي.

أمسكت بقبضتي علىٰ غصن الشجرة المتين، وأنا أقفز بين الأشجار كنت أمسك بيدي غصن الشجرة وذراعي ممتدة وأقدامي معلقة علىٰ ارتفاع عدة سنتمترات عن الأرض كنت أعلق جسدي هناك كالغوريلا، كان شعوراً رائعاً، وأنا معلقة، يحملني غصن شجرة وأتأرجح لدقائق عديدة، كنت أمسك الغصن بذراعي الممتدة وأقدامي معلقة، وأنا أصعد وأسعىٰ للوصول إلىٰ لحاء الشجرة، وأشعر به تحت ذقني للحظات كنت أسيطر سيطرة كاملة علىٰ الوضع، عضلاتي تشتعل وتلتهب، وأبدأ أتمرن أن أصعد بجسدي إلىٰ فوق من خلال ذراعي الممسكة بالغصن، ثم أنزل إلىٰ الأسفل ببطء ومرة أخرىٰ كانت عضلات ذراعي تشتعل، وأنا أكرر التمرين أصعد وأنزل عشر أو خمس عشرة أو عشرين مرة، ثم أضيف لهم عشرة تمارين

أخرىٰ وعيوني مغمضة، الشيء الوحيد الذي كنت أشعر به هو الألم، ولكن بعد أن يتم إفراز طاقة الأدرينالين في جسمي تجتاحني موجة جياشة من الطاقة وينتابني شعور عارم أن هناك انفجاراً موجوداً في مكان ما داخل جسدي، وأن شيئاً مختبأ هناك لا تراه العيون.

أضفت عشرة تمارين أخرىٰ، وكل مرة تصل ذقني إلىٰ لحاء الشجرة أسمع جسدي يصرخ ويريد أن أتوقف عن التمرين، ثم بعد ذلك أفلت يدي وأترك جسدي يسقط علىٰ الأرض ليستريح.

كم هو شعور مريح نعم كم هو مريح حقاً أن ترتاح بعد التعب أن تخفف عن نفسك الآلام أن تشعر بمذاق الراحة بعد إحساس بالإرهاق إنه شيء مريح حقا استلقيت مغمضة العينين علىٰ سجادتي البنية الناعمة علىٰ الأرض لأستريح، هذه السجادة معي منذ العام الماضي أستلقي عليها وأرتاح، كنت أشعر بالاسترخاء، استرخاء كبير في داخلي هناك في أعماق نفسي أسترد أنفاسي وأبدأ بالتنفس بشكل بطيء، ثم أهدأ، ثم تصبح الصور التي في رأسي واضحة من تلقاء نفسها، ثم تصبح أوضح وأوضح، ثم أكثر وضوحاً، لقد كانت في ذهني صور بيلا ومومو ووجوههم التي لا تتعدىٰ الرابعة عشر عاماً واللتين لم أرهما ولم أقابلهما منذ فترة طويلة، لم أعد أحسب الأيام منذ ذلك الوقت كما أنني لا أبالي ولا أكلف نفسي عناء التفكير كم مضىٰ من الأسابيع؟ ولا أفكر بالشهور التي تمضي لا أعرف أي شيء عن حياتهما الآن، ولا كيف هي أيامهم طوال تلك السنوات التي مضت، ولكن كيف للسنوات أن تمر بهذه السرعة دون أن يلاحظها أحد؟ كيف؟

يمكنني أن أتصور وجه بيلا الآن أتخيلها أمامي امرأة شابة ذات خدود مدورة بارزة، وجه مدور مرقط بالنمش وجسد مشعراني، ثم ابتسم بيني

وبين نفسي، لطالما كانت عيونها مشرقة وذكية على الدوام، أما مومو فهي من المفترض أن تكون الآن امرأة جميلة داكنة السمرة قوية أو ربما لا يكون هذا كله، ربما هما الآن شخصيتان مختلفتان، وهذا مجرد ما أريده أنا أو على الأقل هذا ما أتمناه، وقد تكون الحياة أهلكتهما، ورغم شبابهما، إلا أن وجهيهما أصبحا متعبين من شقاء الحياة وكدها وكدحها.

كذلك أنا أيضاً مثلهن لا لا لا أستطيع أن أتخيلهن، لا يمكنني أن أتصور وجوههن بالتأكيد إنهن تغيرتا الآن، لقد نمتا وكبرتا، وأصبحنا لا نعرف بعضنا، لكن لدينا تاريخ سنظل نحمله معنا باستمرار مهما كبرنا وأينما حللنا لدينا نفس الحكاية التي ستجمعنا معاً إلى الأبد.

فتحت عيوني ومن خلال صوت الرياح وصفيرها سمعت دمدمات وهمهمات وصدى صوت بيلا، وما قالته لي على الهاتف:

- أنت مدينة لنا بهذا.!

أدخلت في كيس القماش آخر علبة لدي من معلبات الطعام الجاهز، وركبت السيارة، كانت الرطوبة عالية في السيارة تمتزج برائحة تعرق قديم فأنا لم أشغلها منذ شهور عديدة لكنني استطعت اليوم تشغيل محرك السيارة القديم بعد أن أصدر أصواتاً وضجيجاً متقطعاً استغرق ذلك عدة ثوان إلى أن بدأ يشتغل من جديد، ألقيت نظرة في مرآة السيارة إلى الخلفية وإلى السقف وإلى الأبواب، كان هناك بعض من قطرات الثلج أزحتها عن جدار زجاج النافذة الأمامي ووضعت "جير" السيارة على الواحد شغلت المحرك، لكن السيارة لم تتحرك وإنما طقطق الحصى تحت السيارة وظل الإطار يلف ويدور في مكانه على التراب غير راغب في التحرك من مكانه.

عندما وصلت إلى منعطف الطريق ظهرت الشمس وبانت إشراقتها الصباحية الرائعة وازدادت سرعة نبضات قلبي مع سرعة مؤشّر محرك السيارة وشعرت بضربات قلبي وسرعتها في دغدغة أصابعي، ثم توجهت بقيادتي إلى نور الشمال.

كان الصبيان الثلاثة يسيرون في المدينة وأثناء الأسبوع الأول من عطلة الصيف المدرسية كنا نسير عبر الساحات المرصوفة بالحصى، نمر بالطرق المشجرة نذهب عبر الأزقة المظلمة ليلاً نمشي فوق ممرات الحدائق بين المروج والورود وأعشاب الحدائق، كانت الشوارع والساحات تعج بالصبيان الذين يقفون مجاميع هنا وهناك بين الأشجار ومجاميع أخرى جالسة على شكل دائرة في وضعية ساق على ساق، وجمر لفافاتهم يومض مثل يراعات تلمع في الظلام، كانوا يمسكون بعلبة الجعة في أياديهم الكبيرة ويتحدثون بصوت خافت هادئ وبين حين وآخر نسمع صوت ضحكاتهم العالية وكأنهم يشكلون فريقاً واحداً، ثم تحلّق ضحكاتهم عالياً إلى قمم الأشجار وتجلس هناك كعصافير سوداء ذات عيون حارّة لامعة بين الأوراق والأغصان.

كنا نسير وأيدينا في جيوب بنطلوناتنا دون أن نقول كلمة واحدة لأننا لم نكن واثقين من أنفسنا ولا بأصواتنا الجديدة.

رمقنا مجموعة من الصبيان الشباب بطرف أعيننا وهم جالسون على العشب هناك في الحديقة، ثم ابتعدنا قليلاً عنهم، واتخذنا لنا مكاناً وجلسنا هناك على جنب بمعزل عن الآخرين، لم يكن لدينا سكائر ولا علب جعة مما جعلنا نتسلى بقطف العشب بأيدينا. كنا نلتقط الأعشاب كمشة كمشة، وكل مرة ننثرها ونرمي بها بين أصابع أقدامنا ما يجعلنا نشعر بندى

الأعشاب يتسلل ببطء إلينا من خلال قماش بنطلونات الجينز، شعرنا بحركة ديدان صغيرة دخلت زاحفة إلى ملابسنا إلى أن قاطعت مومو ذلك بصوتها الصبياني، قائلة:

- كم هو مريح ولطيف أن ينتهي العام الدراسي!.

جاءت جملة مومو الصبيانية مصطنعة بشكل واضح مقارنة بشخصيتها الحقيقية، مما جعلنا ننفجر ثلاثتنا من الضحك، فانطلقت ضحكاتنا عالياً، ارتفعت حتى صار لها أجنحة وطارت عالياً واختلطت مع ضحكات الصبيان المستلقية هناك فوق الشجرة، لكن ضحكتي كانت هي الأعلى، كانت أعلى من كل شيء ارتفعت وطارت إلى أبعد حد وراحت بعيداً لدرجة أنها وصلت إلى مسامع مجموعة الصبيان الجالسين هناك على مقربة منا، بحيث لاحظها أحد الشباب فرفع رأسه ناحيتي. كان يرتدي قبعة سوداء مرتفعة، ميزته عن الباقين وكذلك عيونه التي كانت لامعة براقة، قام وترك أصحابه وسار متثاقلاً فوق العشب متجهاً إلينا بينما أصحابه في صمت يراقبون ثم بدؤوا يتهامسون فيما بينهم، وعندما بدأ الشاب يقترب قست معالم وجهي وشعرت بقلبي يحتدّ ويتحجّر في صدري وأصبحت دقاته كأنها مطارق تضرب على أضلاعي، كان ينتعل حذاء عسكري بدا ضخم بأقدامه "بصطال موديل عسكري" وعندما اقترب مني لمحت سترته، كان يرتدي سترة جلدية مهترئة عليها بعض الخدوش جلس القرفصاء على العشب إلى جنبي ورفع قبعته حتى بانت جبهته وكان يحمل في يديه سيكارة غير مشتعلة، ثم سأل:

- هل تدخن؟

هززت رأسي نافيةً.

لم أجرؤ على نطق كلمة واحدة خوفاً من ألا يخرج صوتي الصبياني أو أن لا يكون مضبوطاً فينكشف أمري، دفعني الشاب قليلاً على كتفي ورفع صوته عالياً كي أسمع حدة نبراته بوضوحٍ كافٍ وقال مشجعاً:

- نعم، بالتأكيد دخنت يوماً ما في حياتك!.

- لا لم أدخن، لست مدخناً!.

لم أقل هذه الجملة بصوتي الصبياني، بل خرجت هكذا دون أن أكون على استعداد لها، لا أعرف أين ذهب صوتي الآخر فشعرت بمزيد من الهلع وأغلقت فمي، نظرت إلى زاوية فمه، ورأيت شكل الكلمات التي ينطق بها كأنها قادمة من محيط حاد ملثّم، خرجت من فمه إلى الهواء أمامي كأنها شيءٌ غريبٌ، ثم أخرج سيكارة أخرى من جيب سترته الداخلية وناولها لي، وقال:

- الليلة ستدخن.!

نظرت إلى السيجارة كانت جمرتها تضيء في ظلام الليل، أخذتها من يده ووضعتها بين شفتي فابتسم ابتسامة عريضة، وأخرج ولاعته من جيب بنطلونه، وولّع لي وله، ثم جرّ نفساً طويلاً من سيجارته، وأنا أيضاً أخذت نفساً طويلاً من سيجارتي، كان الدخان يمزق رئتي، لكنني فعلتها كما كنا نفعلها سابقاً أنا ومومو، عندما كنا ندخن دون علم والديها في كراج المنزل قرب موقف سيارة والدها.

دخنا بحذر تماماً وأخرجنا الدخان بهدوء ولطف، كي لا نبدأ بالسعال لم نتكلم ولم نقل كلمة واحدة وذلك لأننا لم نكن نعرف ماذا نقول، فبقينا صامتين، أعتقد أن الصمت هو الأمان، إنه شيء معروف إنه إشارة آمنة

ومعـترف بهـا، يمكننـا أن نكـون متفقـين معـاً وفي مـأمن مادمنـا صـامتين وجالسين في صمت. بعد لحظات مدّ يده نحوي مصافحاً، وعرّف باسمه:

- توني!.

ولّما قلت اسمي بصوت صبياني خرج الاسم من فمي كأنه اسـم صـبي من تلقاء نفسه، وذلك لأنني عندما شدّدت على حرف العلـة بـشكل قـوي صارم خرج المعنى كما أريد، وهذا ما أعجبني أن اسمي مـن وجهـة نظـري مناسب لصبي أكثر منه اسم فتاة.

صافحني توني بحرارة، ثم طلب بإيماءة من رأسه سائلاً بصمت عن اسم الاثنين الآخرين، مومو فهمت الإشارة مباشرة وقالت اسمها بـصوت حـاد وخرجت الحروف منها شديدة النبرة أيضاً، وبدا الاسم صبيانياً، لكـن بـيلا وقفت هناك كالخرساء لا تنطق بكلمـة واحـدة وظلـت تنظـر إلى الأرض لا ترفع عينها عن العشب، رفع توني حاجبيه وقـست معـالم وجهـه واحتـدّت عيناه وتصلبت في مكانها، كان ضوء الحديقة الأصفر العالي يتماوج في واجهة عينيه ولأتجنب قول الصدق اخترعت لبيلا اسماً أنزلته لها من السماء وقلت:

- إنه ماك!

قدّمتُ بيلا لتوني باسم ماك، دفعت بـيلا مـن ذراعهـا بحركـة بـسيطة، وذلك كي أجبرها على أن ترفع عينيها عن الأرض وتنظر إلى توني.

كانت عيون بيلا واهنة ضعيفة مليئة بالخوف، وكانت تتجنـب نظـرات توني مـن شـدّة خوفهـا، وكانـت تتوقـع مـن تـوني أنـه سـينظر إلى ثـدييها المستديرين، وتبدأ تتدفق من فمه كلمات لاذعة بذيئـة تمسها وتجرحهـا مـن الداخل، لكن توني لم تجنح نظراته نحو صـدرها إذ لا يوجـد شيء مـستدير ليحملق فيه، مد تـوني يديـه نحـو بـيلا مـصافحاً، أطبقـت بـيلا عـلى يـده

بأصابعها المتسخة بالتراب، وأحست بيده الخشنة الصبيانية، ورأت كيف كانت عضلات كتفه تتحرك تحت السترة وهو يصافحها، لكنه لم يقل لها شيئاً، فقط ألقى عليها التحية والتفت نحوي، وقال:

- هل تسكنون هنا بالجوار؟

أومأت برأسي نعم!

هز برأسه وأشار إلى مجموعة الشباب الجالسين خلفه وقال:

- نحن نسكن هناك في تلك الجهة المقابلة للجسر!.

التفت بنظري إلى الجهة الغربية ونظرت بعيداً نحو الميناء، نظرت هناك بحيث كان بإمكاننا أن نرى الجسر من هنا، من مكاننا، كان يبدو أشبه بسلسلة من كرات مضيئة على طول درب مياه البحر نقاط من لؤلؤ تتلألأ فوق البحر قلت:

- جميل!.

نظر توني إلى وجهي محاولاً أن يبحث عن شيء ما، وبدا كأنه يريد أن يتحقق من شكلي وملامحي بدافع الفضول، شعرت ببرودة شديدة تسري في داخلي، كان ذلك صعب جداً علي بالإضافة إلى حديثي وكلماتي كلها، إن أفكاري هي التي تشكل فمي الصبياني، وكنت لا أعرف كيف يمكن أن أبدو أمامه، كنت أفكر أولاً بالكلمات قبل أن أتفوّه بها، ثم أقولها كي تأتي بشكل انسيابي بفمي الصبياني، كان خوفي مما سيكون رد فعله وتفكيره، كنت أخاف أن أتعدى حدود الصبيانية، وينكشف أمري كأن هناك أشعة ليزر موزعة في جميع أنحاء جسدي تبدو بشكل شعاع خفيف أزرق اللون لا ينبغي عليّ أن أتعداه وكأنها هي حدودي لأكون صبياً، إذا عبرتها ينفضح أمري وأنكشف أنني فتاة، لكن توني فاجأني بابتسامة واسعة عريضة قائلاً:

- سأقدم لكم جعة لكل واحد منكم علبة واحدة!.

جلسنا مع مجموعة الصبيان، وشربنا معهم الجعة الباردة التي خففت من حدة حبالنا الصوتية وأطلقنا العنان لأنفسنا وأحسسنا باسترخاء أكثر استقدم طيور الضحك السوداء، فارتفعت طيور ضحكاتنا ووصلت إلى أعلى الشجرة، لم يكن هناك أي سبب على الإطلاق لضحكنا المتواصل، إلا أنه نتاج مفعول الجعة المؤثر.

ودّعنا الصبيان كلهم، ونحن نعرفهم بأسمائنا وكانوا يمسكون أيدينا الناعمة بأياديهم القوية لدرجة كنت أعتقد للحظات أن كوعي سينخلع في يدهم، مما اضطرني أن أثبت يدي جيداً، وأمسك يدهم بقوة كما يفعلون، كي أتجنب الألم ويبدو كأن هناك طاقة متوازنة عند كل واحد منا حيث نشد بنفس القوة عندما نسلم على بعض. كانت ذراع توني خشنة كبيرة وهو يمسك بعلبة الجعة، كان يضع في أصبع الابهام خاتماً كبيراً من الفضة، وكان لديه على ظهر يديه صورة وشم لونه أخضر شاحب يبدو عليه القدم لأن اخضراره تلاشى قليلاً فأصبح باهت اللون.

كان الوشم على يد توني يبدأ من الكف ويتعرج صعوداً فوق الذراع، حتى ليمكنني أن ألمح بعض النقوش ممتدة لما تحت الجاكيت، أما عيونه الزرقاء الصافية فكانت تتلألأ من تحت قبعته السوداء، شعرت برغبة كبيرة لأنحني برأسي قليلاً، وأنظر إلى وجهه، إلى عيونه فقد كانت نظراته الثاقبة تسحرني، كنت أريد أن يظل ينظر إليَّ وأن يصب عليَّ نظراته، كما لو أنه يسكب مياهاً باردة على جسدي تغسلني وتزيح عني كل شيء.

في تلك الليلة وقفت طويلاً أمام المرآة في غرفتي، كان الفجر في طريقه للبزوغ كنت متعبة يغلبني النعاس، لكنني كنت أقاوم التعب والإرهاق

وأقاتل في سبيل أن أبقى بهيئة الصبي، فلم أكن أرغب في التحول إلى فتاة، كنت أقف عارية، ساقاي واحدة بجانب الأخرى وذراعي ممددتان على جانبي جسدي كنت أرى صبياً داخل المرآة أتطلع به ويبادلني النظرات.

في كل قناع كانت تصنعه لي مومو كان وجهي يبقى موجوداً عليه، ربما هو ليس وجهي الحقيقي، بل إنها عيوني، كنت أرى دائماً عيوني هناك وألمحها من وراء القناع، كانت عيوني الأنثوية تظهر من بين ثقوب القناع بينما كان جسدي هو نفسه في الداخل تحت الأقمشة وطياتها المطرزة المخاطة بينما كان صورة عن جسدي طبق الأصل ذلك الذي يتحرك في المرآة، مع أن الصبي في المرآة لم يكن له أي لباس أو زي أو قناع لأزيله أو أنزعه عني، كان الجلد هو جلدي، ولكن مع ذلك فهو ليس جلدي، إنه جلد إنسان آخر.

مسدت بأطراف أصابعي ومررتها على ذراعي كله، تفحصت ظهر ذراعي ولمست كوعي ومفصل يدي الخشن، دققت النظر بأصابعي جيداً رأيتها أشبه بقوس الهلال نظرت إلى أظافري وأطراف أصابعي مرة أخرى لم يكن هناك أي زوائد أو أي كتل لحمية غير طبيعية كان جلدي جالساً متماسكاً ملتصقاً، وفي مكانه كما يجب أن يكون، لم يكن مترهلاً أو سائباً، كانت عضلات أصابعي الصبيانية مشدودة تماماً كلما فتحتها أو أغلقتها شعرت بقوتها وتماسكها، قلبت كفي وأنا أتفحصه نظرت إلى بطني الطرية وقد مررت يدي عليها كلها، لمست صرتي ولامست أصابعي الجسد الساخن لاطفت بأطراف أصابعي الخشنة نعومة بطني وصرتي، ثم تحسست فخذي ولامستها، ثم نزلت إلى المنطقة الحساسة، هناك الشعر

الداكن لامست الشعر تحرك شيئاً هناك وبمجرد أن لامسته بأصابعي حتى انتصب ووقف قضيبي.

داعبت بأصابعي بين الفخذين، وأمسكت بالخصيتين، امتلأ قضيبي والشرايين بالدم الجاري الذي تحرك فنما، ثم كبر في يدي، حركته، فركته بيدي ودلكته بأصابعي.

كنت أفكر كثيراً في أعضاء الصبيان وشكلها، وذلك قبل أن أتحول أول مرة إلى صبي، لم يكن في نيتي ولم أتقصد التفكير بهم، ولكن كنت لا أستطيع النوم ليلة دون التفكير بهم وبقضيبهم، كنت أفكر وأتخيل أجساد الصبيان الساخنة ألسنتهم المبلولة كانت تظهر لي صور الصبيان دائماً وهم عراة، كنت أتخيل كيف يكون شعور القضيب في يدي، وأنا أنظر في عيونهم، كنت أتخيل وتراودني أحاسيس وأفكار وتصورات كثيرة، كانت عيون الصبي الذي في المرآة تنظر إلى الصبي الذي في داخلي "الصبي الذي هو أنا وليس أنا" كنت أرغب أن يلامسني كنت أشعر برغبة عارمة أن يأخذني أن يمد يده نحوي من المرآة ويداعبني يلامسني، يمسك بي.

كنت أشعر بشبق وتهيج جنسي عارم أمسكت بقضيبي ودعكته بقوة فركته أقوى وأقوى، وكانت حركة يدي على إيقاع واحد أسحب وأدعك أجر وأفرك لفوق ولتحت، شعرت بقضيبي بين يدي وشعرت بيدي تحكم قبضتها حوله، إنها اللحظة الساخنة إنها تتوهج تتقد، هي محور الوصول إلى نقطة الذروة ارتعشت واهتززت، وأنا ألهث، دقات قلبي تتسارع وأنا أفور وأمور أرتفع إلى أعلى وأنزل إلى تحت، وفاضت الأنهار إلى الخارج وعضضت على أصبعي كي لا أصرخ عالياً.

أخذت مصروفي الشهري بالإضافة إلى خمسمائة كرون كنت قد ادخرتهم لوقت الحاجة، ذهبت إلى محل الملابس والأحذية العسكرية، واشتريت بألف ومئة كرون بوتاً عسكرياً كالذي كان يرتديه توني، ارتديت الحذاء وبدأت أسحب وأجرجر بقدمي في التراب، وعلى الحصى، وأنا في طريقي إلى البيت، وذلك كي يبدو كأنه كان معي منذ فترة طويلة وكي لا يشعر توني بأنه حذاء جديد اشتريته حديثاً.

إنه الفجر، الشمس على وشك الشروق ونحن مستلقون في بيت مزهر الورود كنا متعبين جداً، لكننا لا نرغب في النوم أبداً، كانت مغامرة تلك الليلة المدهشة لازالت تدهشنا وتضخ هرمون السعادة الذي لازال يجري في أجسادنا الصبيانية كانت الزهرة لا تزال مستيقظة أيضاً، لم تغلق عينيها بعد، وفقط في ظلمة الليل تضيء بشكل مذهل تلمع أوراقها وتتشابك باللون البنفسجي كأنها منحوتة من القماش البنفسجي البراق وكأنها تشبه أثواب ممثلات هوليود البراقة التي تنيرها أضواء حفلات الأوسكار، كانت الزهرة تضيء وتتلألأ من تلقاء نفسها ولم يكن هناك ضوء شموس ولا أضواء مصابيح صناعية تساعدها، إنها تضيء من قوتها وطاقتها الخاصة، كتلألأ النجوم في السماء.

وصلنا إلى حالة الإرهاق وظهر علينا النعاس، وبان وبالكاد نستطيع أن نفتح أعيننا إلا أننا كنا نقاوم النعاس، وهكذا بين حين وآخر يضحك أحد منا ونضحك معه، وكلما قال أحدنا شيئاً ما وضحك نضحك معه على الفور كأن ضحكته تصيبنا بالعدوى، كنا نضحك عالياً معاً، ونستمر معاً بنفس النبرة بنفس الصوت، ثم نصمت فجأة معاً كما بدأنا معاً فجأة.

كانت مومو مستلقية على الأرض رأسها في حضني وإحدى يديها في حوض المياه الصغير، كان جسدها مرهقاً مرتخياً لا تنطق بحرف واحد، لكن عيونها منصبة على الزهرة طوال الليل، كانت بيلا مستلقية أيضاً، كوعها على الأرض وذقنها تستند إلى يدها، كانت عيون ونظرات مومو معلقة على الزهرة فقط، كانت قد ركزت انتباهها بصورة كبيرة على الزهرة، ثم قالت بصوت جدي:

- ينبغي علينا أن نخبر أحداً عن الزهرة وما بوسعها أن تفعل؟ ربما تكون خطيرة؟ خطر على بالي مباشرة فيلم إي تي والرجال في لباسهم الفضائي الأبيض وأجهزتهم اليدوية التي ترسل أصواتٍ وطقطقات، وفجأة سمعت صوتي واضحاً مع طلوع النهار صافياً صاحياً يقظاً وقلت:

- بالطبع لا نستطيع أن نخبر أحداً ألا تعرفين أو تتخيلين ماذا يمكن أن يحدث!.

كنت أشعر بأنفاس مومو، لقد تنهدت بعمق في حضني، وارتفع قميصها الضيق وبرز صدرها، كنت أشعر بدغدغة في الحجاب الحاجز، وارتعاش في منطقتي الحميمة إنه شيء غريب، كل شيء كان هكذا شديد الحساسية وأصبحت سريعة التأثر به، وذلك لأنه كان جديداً عليَّ.

كانت في عيون بيلا نظرات حزينة نظرت إليَّ وهي تقول:

- نعم أعرف، ولكن مع ذلك ماذا لو علم الناس أو عرف أحدهم؟ إن الأمر سيكون مختلفاً!

ساد الصمت لبرهة بيننا، لابد أننا غفونا في ذلك الوقت؛ لأنني عندما فتحت عيني مرة أخرى كانت الشمس قد أشرقت وكان شعر مومو الداكن

مفروداً على حضني، وكان قميصها الضيق مشدوداً إلى صدرها وأنا لم أعد أشعر بشيء غريب في منطقتي الحميمة، ولم يعد هناك شيء يتحرك فيَّ.

كان جسد بيلا بجانبي نجلس في آخر حافلة نقل الركاب ولو كان زملاؤنا في الصف الدراسي أعطوا أنفسهم الفرصة ليتعرفوا على هذه الفتاة الناضجة، التي كانت نادراً ما تتكلم في الصف أو لو أنهم أعطوها قليلاً من الاهتمام لسرعان ما أدركوا ميزاتها وأهميتها.

كانت بيلا فتاة طيبة، بنت الرابعة عشر عاماً، إنسانة مسالمة، شخصاً هادئ الطبع منظم تحمل في حقيبتها المدرسية بطاقة والدها البنكية، كانت قد خبأتها هناك في أحد الجيوب الداخلية كي لا تفقدها، كانت بيلا تتفقد بعناية فائقة كل احتياجات المنزل، وكانت كلما احتاجت إلى شيء حملت حقيبتها، وركبت دراجتها الهوائية وذهبت إلى السوق لتتسوق حيث بائعو المحلات التجارية يعرفونها، بيلا المراهقة ذات الشعر الأحمر، ويعرفون لماذا تقف هناك عند قسم البن والقهوة وتقارن أسعارها ببعض أسعار الحبوب، وحبات الكورنفلكس ويعرفون أنها تزور السوق عدة مرات في الأسبوع لأنها تمر على مغسل الملابس، وتقوم بكل الأعمال التي يقوم بها الكبار، كان جميع الأشخاص الذين يعملون في السوق يبتسمون لبيلا ويساعدونها في حمل أكياسها، ويحملونها معها ويضعونها على سلة المشتريات التي على دراجتها الهوائية، بالطبع هناك قوانين تمنع المراهقين منعاً باتاً من شراء السجائر أو الكحول، لكن بيلا كان لها مزايا تجعلها تبدو أكبر من سنها إنها تمتلك جسداً ضخماً، ممتلأً ولها أسنان أمامية كبيرة يبدو عليها النضج، كل هذا يجعلها تبدو أكبر سناً بالإضافة إلى أن والدها لا يبالي بها بتاتاً إنه مجرد عجوز مسكين جدير بالشفقة لا يستطيع السيطرة على حياته، وذلك

لتعاطيه الحبوب المهدئة وأشياء أخرى مقرفة يملأ بها بطنه تؤدي به إلى الوفاة مبكراً.

عندما وصلت بيلا إلى أمينة الصندوق لتدفع لها كان مع مشترياتها ست علب من الجعة وأشارت لها أيضاً بأن تناولها علبة واحدة من السجائر لم تعترض بائعة المحل عندما رأت علب الجعة، بل ناولتها علبة الدخان أيضاً، وسمحت لبيلا أن تشتري ما تشاء، وهي تنظر إليها نظرة حنونة متعاطفة كأنها تقول لها يمكنك أن تشتري ما تشائين بيلا.

كانت بيلا في البداية لا ترغب أن تأتي معنا لنلتقي بتوني وأصحابه لكن مومو ألحّت عليها طويلاً كي تأتي معنا، وحاولت كثيراً إقناعها قبل أن تستسلم وتوافق للخروج مع الصبيان، كان شكل بيلا يبدو كأنها كئيبة فهي لا تزال غير راغبة في هذا اللقاء، كانت عابسة وقد برزت شفتها السفلى كأنها طفل صغير يظهر الحزن وقالت:

– ما الذي نحن ذاهبون لفعله معهم؟ ماذا تريدون أن نفعل مع الصبيان؟

ثم قالت:

– ما المتعة بالجلوس معهم وسماع قصصهم الخرافية المليئة بالمغامرات طوال الليل؟ وإذا كنتم تريدون رأيي فإنهم مليئون بالكلام الذي لا معنى له.

لم أرد عليها ولم أقل لها شيئاً، لأن هناك الكثير في داخلي من الأجوبة، ولكنني لم أستطع أن أفسرها لها، صدح صوت توني في خيالي، إن حكاياته وكلامه لاتزال في ذهني، لقد أعطانا قبل أن نفترق العنوان والساعة كي نلتقي:

- تعالوا أنتم أيضاً غداً، سنذهب في نزهة!.

منذ الصباح وأنا متشوقة للقاء توني طوال اليوم، وأنا غارقة في حالة من الترقب والهلع، خيالات أوهام، توقعات أشواق، كان صوت توني يلاحقني في كل خطوة أتخذها، إنه كنقطة نور مضيئة في الظلام.

الأمر كان بسيطاً عند مومو ولم يكن بهذا التعقيد، أمسكت مومو بيد بيلا، وألقت بذراعيها حول كتفها وهي تضحك بهدوء ولطف لتؤثر عليها قائلة:

- لا تأخذي الأمر بجدية إنها مجرد لعبة، مجرد نزهة للتجول، رحلة في قطار ونحن الفرسان الثلاث هل نسيت؟ نحن جواسيس في مهمة داخل مخيم العدو كي نتجسس عليهم ونسرق بسرية تامة معرفتهم وأسلحتهم الغريبة، ونحن........

ابتسمت بيلا ابتسامة مائلة باتجاه واحد من شفتها، وقالت لمومو وهي ترفع ذراعها عنها:

- هذا يكفي لقد فهمت، دعونا نذهب إذاً!.

وها نحن الآن نجلس في الحافلة نحمل معنا كيس السجائر والشراب!.

تنهدت بيلا تنهيدة طويلة وأودعت رأسها الصبياني ذا الشعر المجعد الأحمر، ومالت به إلى جانب واحد وأنا كنت أتساءل مبتسماً:

- أود أن أعرف ماذا سيفعل الصبيان هذه الليلة؟

ثم ابتسمتُ ابتسامة عريضة وسألت بيلا:

- بل ماذا سنفعل نحن؟ ماذا سنفعل هذه الليلة يا ماك؟

حدقت بيلا بوجهي غير راضية وقالت:

- إنه اسم غبي، ألم تستطيعي أن تأتي باسم آخر أفضل من هذا الاسم؟

لم أستطع الرد عليها فنظرت إلى الأرض أنظر إلى التصاميم المعدنية التي على حذائي العسكري، إنها على حق، ليس لي الحق أن أعطيها أو أخترع لها اسماً إنه اسم تافه لا يليق بها، كان خطأ مني، لم يسبق لنا ان فعلنا ذلك سابقا عندما كنا نلعب، لكنني تذكرت صوت توني الذي كان يتساءل عن اسم بيلا وهي واقفة هناك كالبلهاء شاحبة اللون كأن الخرس أصابها!.

رغبت أن أضع يدي على كتف بيلا وأشرح لها لم فعلت ما فعلته، لكنني سرعان ما لمحت أصابعي الخشنة الصبيانية فترددت، ولم أفعل، كان كفي كبيراً خشناً وأصابعي لا تناسب أن تلمس أحداً، لذا أبقيتها في حضني على ركبتي، وبدأت أنظر إلى ناحية نافذة الحافلة وقلت:

- لا تضعي البيرة في حضنك فإنها ستسخن وتصبح مقرفة!.

لقد تولى توني أمر قيادتنا فاصطحبنا جميعاً إلى منطقة فسيحة واسعة ممتدة مليئة بالمصانع مقابل الغابة على الطريق العام إنها في آخر أنحاء المدينة، هناك ميناء، إنه حوض بناء سفن مهجور عند مصب فوهة النهر، كانت هناك مجموعة من الحاويات الكبيرة الفارغة مليئة بمعدات قذرة صدئة مهجورة، كما كانت هناك أعداد هائلة منسية مهملة من المستودعات والأدوات تبرز بأعناقها تحت سقف الليل المضيء. كان توني يسير أمام الآخرين وقد بان ظهره من الخلف على بعد عدة أقدام أمامي، كان يمشي على الإسفلت مرتدياً بوته ذا التصميم العسكري، كان يسير بخفة دون أن يصدر صوتاً أو ضجيجاً، وخلفه مباشرة صديقه هوكن، كان هوكن ضخم الجثة وثقيلاً أيضاً، لكنه لا يملك عضلات كعضلات توني بل هو ممتلئ بالشحم واللحم، وكانت بشرته شاحبة وعيونه صغيرة كعيون الخنزير، كان خفيف العقل، فمه جاهز ومستعد للضحك والتملق على مدار الساعة،

معلقة في السقف على شكل قضبان وهو ضوء الفلورسنت، وهو ضوء غير طبيعي، كانت حجارة الجبل بارزة على الجدران كالبالونات في الزاوية وكانت توجد هناك كومة من نفايات لا يمكن أن نرى ما يمكن أن تكون عليه، جلس توني هناك على أريكة عجيبة ذات طابع قديم، عتيقة الطراز مغطاة بجلد مهترئ، لها مساند للذراعين لراحة اليد مبطنة بالإسفنج، حينها قفزتْ إلى ذهني صور القراصنة وقصصهم الخرافية، خرائط كنوزهم وحكايات السرقة والنهب، ممراتهم السرية وحجراتهم الخفية، وتخيلت رجال يخاطرون بحياتهم ويغامرون بالتسلق صاعدين الواجهات العالية، وهم يحملون السكين بين أسنانهم.

نعم، جلس توني هناك على أريكته كأنه أحد زعماء القراصنة، لا أستطيع أن أشبه رائحة هذه الأريكة القديمة بأي شيء، وكان الجبل قد امتص جميع الأصوات؛ لذا لم يصل إلينا صوت الغابة والبحر ولا أي ضجيج آخر ضمن هذه الغرفة المعزولة داخل الجبل، أبقى توني بصره منخفضاً إلى الأسفل ينظر إلى يديه فقط، ثم ضغط بيده على مفصل الأصابع في اليد الأخرى فصدر صوت طقطقة منه، كنا صامتين لم نقل شيئاً لدرجة أننا كنا نسمع صوت أنفاس هوكن والصوت الوحيد الذي كنا نسمعه هو صرير الأشياء الجافة الذي كان يصدره هوكن وهو يخرج بعض الأغراض من حقيبته.

لقد تعلمنا في تلك الليلة كيف نشوي ونحمص قطعة الحشيش المليئة بالزيوت الطبيعية الممتازة على نار القداحة المباشر ونفتتها إلى قطع صغيرة كي نخلطها مع التبغ الرخيص، ثم نلف السيجارة في ورق السجائر، ونظرنا إلى هوكن كيف يلعق بطرف لسانه حافة الشريط الورقي دون أن يتقطع الورق ويلصقها بلعابه ويغلقها لتصبح جاهزة للتدخين، وتعلمنا

بأكمله وتعكس ضياءه في الغابة، توغّلنا في عمق الغابة أنقل أقدامي في ظلام تام وأسير كالأعمى تخدش وجهي أغصان الأشجار، ثم أضاء الدرب للحظات، ظهر توني ووقف كالحاجز حاجباً عنّي ضوء السماء، ثم بعدها تحرك واختفى عن ناظري، اندفعنا للخروج من الغابة، ووجدنا أنفسنا هناك قرب قاعدة صخرية أمام جبل، وعلى بعد أمتار قليلة نهر ذو ماء أسود من شدة الظلام.

كان مركز المدينة من جهة الغرب، ومن جهة الشرق لاح جسر الطريق السريع بإضاءته المتلألئة وقف توني هناك عند الجبل وساقاه مختفيتان بسبب طول العشب يفتش في جدار الجبل الصخري يتلمس ويتحسس بيديه باحثاً عن شيء يعلم أنه موجود هناك.

وهكذا انفتحت فجوة مباشرة في منتصف الحجر، وكان هناك باب بإطار إسمنتي وحوله غطاء من المعدن غامق اللون سميك، فُتح الباب ودخل توني في الظلام داخل الجبل عبر تلك البوابة، ووقف صديقه هوكن هناك مشيراً برأسه بأنه بإمكاننا أن ندخل الآن قبله.

- كونوا صامتين، ولندخل!

كان كل شيء كالمعتاد ليس هناك أي تهديدات ولا مخاوف ولا توبيخ.

لقد كانت إحدى الحقائق التي تعلمناها عن أنفسنا بتجربة واقعية، شيء عرفناه بأنفسنا لم نكن نعرفه سابقاً.

نظرنا إلى بعضنا ولمست مومو يدي بحذر دون أن يراها أحد ودخلنا إلى الداخل، سحب هوكن الباب الثقيل وراءنا وقد أصدر صوتاً من القاعدة الصدئة كأنه تزحزح شيء ليصدر صوتاً خدشاً، بعد عدة أمتار ونحن نسير في الداخل فُتح باب آخر يؤدي إلى غرفة أخرى، كان هناك أضواء خضراء

قلّما ينظر إليه توني أو نادراً ما كان يتحدث إليه، كان يدعه يسير خلفه فقط على بعد عدة أشبار أو نصف خطوة يحمل على ظهره حقيبة لا نعرف ماذا بداخلها.

مشى توني بخطى واسعة عندما اقترب من مكان هناك وهو يشير بين حين وآخر إلى مبنى أو هيكل قارب أو أسوار مسيّجة، ويشرح لنا أن هذا المجال لم يكن من المناطق التابعة له، وإنها لأشخاص آخرين؛ لذا كان الدخول إليها ممنوعاً إلا للمصرح لهم بذلك.

وبينما أنا أسير لمحت بين الظلام ضوءاً يومض هنا وهناك، أو جمراً كجمر السجائر يضيء من بين شرفات البيوت، وكنت أرى خيالات عبر شبابيك مباني المصانع القديمة تندفع مسرعة كالبرق من نافذة لأخرى، ولما أتّجه بالنظر إليها لأستوضح الأمر، اختفت سريعاً، كلمح البصر، ولم أعد أرى شيئاً.

كنا نسير عبر منطقة الميناء بين الأراضي المزروعة نمر على الرافعات الصدئة والسفن المهجورة، ونرى المعدات الملقية هنا وهناك دون حراك منذ الصباح، كانت رياح الليل قد أفسدت الأشياء المهملة، حركتها ولعبت بها ونثرتها على الأرض كما تشاء، كانت قطع الحديد الصغيرة والمعدن، تتطاير وتتأرجح ذهاباً وإياباً إلى الأمام وإلى الخلف، وتصدر أصوات طقطقات كأنها أغنية حزينة شاكية باكية مثيرة بشدّة، كانت الغابة مظلمة يبدو ظلامها من نوع آخر مختلف، يلوح أمامنا بين الأشجار دخل توني كصقر بازي يسير بين جذوع الأشجار رافعاً ذراعيه أمام رأسه، وذلك ليحمي وجهه من الرياح القوية المعاكسة التي كنا نواجهها ونحن نسير في الخلف نتبعه، وكانت أكواز أشجار الصنوبر الساقطة على الأرض تمتص ضوء السماء

ونحن نراقب هوكن أن البراعة أن تلف السيجارة دون أن تخربشها بلسانك أو تحدث تقطع فيها، وتعلمنا أيضاً كيف ننفث نفخة الدخان كي نحافظ على إبقاء الجمرة متقدة دون أن تنطفئ، وأن نحبس الدخان الثقيل في ظلام الرئتين دون أن نختنق أو نغص بالتدخين.

كانت سيجارة الحشيش تسير بيننا من يد إلى يد أخرى من يد هوكن إلى يد مومو ومن يد مومو إلى يد بيلا.

وهكذا استمرينا بالتدخين بالتناوب من يد بيلا إلى توني ومن أصابع توني الخشنة كورق صنفرة الخشب حتى تصل إليّ أنا وهكذا سارت سيجارة الحشيش بيننا، وحملت السيجارة عالياً، كما شاهدت توني يفعل ذلك، وأنا أدخن استنشقت دخان جارح وسحبته عميقاً إلى داخل جسدي، كان توني ينظر إليَّ طوال الوقت باهتمام كبير في حين لم يعر اهتماماً لمومو أو بيلا، وكانت نظراته متجهةً لي، وصلت السيجارة إلى نهايتها، وأنا أسحب النفس الأخير لسعت حرارتها لساني كما لسع الجمر أصابعي دون أن أدري، وأنا في ذروة النشوة ضربت في رأسي وخطرت في ذهني "المنتشي" صورة أفعيين اثنتين تتراقصان تحت الماء "برقصات مائية" لامعتين وذيولهما تتعرجان وتتشابكان معاً وتتلوى حول بعضها بأجسادها الطويلة وتتشابك مع بعضها البعض في رقصها المائي، لم يكن للحشيش أي جوانب فاعلية أو آثار جانبية كأنه دخل في أعماقي ولم يصدر منه أي مفعول ولا أي رد فعل، كانت عيوني وحدها تلمع هناك، أصبحتا براقتين تتلألأن في نور الغرفة، وظهرت هناك هالة ضوء سرعان ما اختفت عندما حاولت أن ألتفت إليها لأراها.

كان جسد مومو وبيلا يشعان ضوءاً خفيفاً أمـامي، وكـان جـسد تـوني متوهجاً بلون البنفسج وهو جالس على كرسيه قبالتي أما جسد هـوكن فكان منطفئاً كالأخرس الأبكم لا يصدر منه أي ضوء، كان مستلقياً هنـاك على الأرض وخده على الحجارة وعيناه نصف مغمـضتين واللعـاب يـسيل من فمه المفتوح، فجأة اختفت كل مخاوفي كـأن النـار والجمـرة التـي كانـت تلتهب في داخلي انطفأت، ولم يتبق منها غير الدخان وروائح الحرائـق التـي كانت ترتفع ببطء باتجاه ضوء الغرفة الأخضر العالي، جلسنا لفترة طويلة في صمت لم يكن هنـاك أي صـوت نـستمع فقـط إلى أي صـوت يـصدر مـن أحدنا، عدا ذلك فإننا نستمع إلى الصمت الذي يحوم حولنا، نهض توني من مقعده وقف قليلاً، ثم تمشى بقدمين ثابتتين لم يتعثر، ولم يتمايـل، ولم يـسقط أو يتكئ على شيء ولم يعان فقدان توازن ولا أي شيء، كـان تركيـز انتباهـه ثابتاً بصورة كبيرة إلا أن هناك شـيئاً مـا جديـداً عميقـاً في نظراتـه في ذلـك السواد في عينيه، كان سواد عينيه عميقاً وداكناً فكأنهما بئر عميـق لـيس لهـما قاع ولا قرار، عيون سوداء نظرت في عينيَّ لتحثني على اللحاق بهـا، كأنهـا تقول لي: اتبعيني مباشرة دون أن تنظري إلى الوراء.

كان توني يقف هناك مسنداً جسده إلى الحائط ورأسه منحن إلى الأسفل، بحيث لا يمكنني أن أرى وجهه، فقد كانت تغطيه قبعة رأسه وعـلى رقبتـه تنبض شرايينه الخضراء، لكن تنفسه كان هادئاً، وصوته ثابتـاً مـسيطراً عـلى وضعه، كان يمسك بيده ملقط كماشة وقال:

- انظر إلى الصمام الثنـائي هنـاك، اتبعـه جيـداً إذا بـدأ يـومض بـاللون الأحمر، ينبغي عليك أن تركض بأسرع ما تستطيع من قوة.

نظرت إلىٰ النافذة التي في الأعلىٰ فرأيت مربعاً في إطار في الجهة السفلية للنافذة إنه يومض باللون الأخضر.

كان في الجهة المقابلة هناك المنطقة الصناعية يحيط بها سياج وهو شبكة من الأسلاك يحدّها من كل جانب وفي الجهة الأخرىٰ تلوح الغابة في الأفق، وبعد الغابة هناك مكان مفتوح، منطقة واسعة مفتوحة لا يحدها سياج، كان شقاً طويلاً في الأسلاك مقطوعاً، نظرت إلىٰ ذقن توني وشفاهه ويديه الكبيرتين القويتين، رأيته رجلاً بالفعل، إنه ناضج بالنظر إلىٰ عمره الصغير، أرىٰ أنه رجل قوي بما فيه الكفاية كأنه يملك من القوة ليمزق شبكة من الأسلاك الحديدية وللحظات سرحت مع ملامحه وسمحت لنفسي أن أتامله، وأمتص كل ما أراه في عيونه ووجهه، وفيما أنا أنظر إليه تركت أفكاري تنساب لتذهب بعيداً عن تلك اللحظة.

عندما ضربتني صعقة تيار كهربائي لم أكن مستعدة، لم أرها ولم أكن أتوقع حدوثها ولا أعرف من أي مكان جاءت، اندفعت متراجعة إلىٰ الخلف استندت إلىٰ الجدار، وكان توني فوقي، كان قلبي يضرب بقوة لدرجة كنت أشعر به يدق فوق معطفي، كانت أنفاسنا ورائحة الدخان تحيط بنا وكان جسد توني أشبه بجدار فوقي إنه يضغط علىٰ صدري وأضلعي، لكمني توني بقبضته علىٰ بطني بقوة كالمصارعين، حفرت في أعماق بطني مما جعلني أفقد الهواء والتنفس، وجاء صوت توني علىٰ شكل دمدمة في أذني وهو يقول:

- إذا رن جرس الإنذار ستكون الشرطة خلال ثلاثين ثانية هنا لا يهمني إذا ما ألقوا القبض عليك؛ لذا اركض سريعاً لإنقاذ نفسك بنفسك أنا لا أنتظرك سأفر بجلدي.

التفت بعيني وأنا أحملق بعيداً كي أتجنب أنفاس توني، وألقيت بنظري هناك إلى أسفل النافذة؛ كي أرى مربع الصمام الثنائي، لم يكن هناك ضوء يضيء باللون الأخضر، ولم يكن هناك أي إشارة ضوئية، وذلك لأن الكهرباء انقطعت جميعها، مازال توني يمسك بخناق سترتي، كنت أعلم أنه يتوجب عليّ أن أشعر بالخوف وينبغي أن أزيح توني عني بعيداً ثم أسحب نفسي وأذهب راكضة إلى العالم الذي أنتمي إليه إلى منزلي، عالمي، إلى حديقة منزلنا، ومن المفترض أن أهرع لأكون قرب أنفاس أمي وأبي النائمين، لكنني لم أفعل شيئاً لم أزل واقفة هناك أنظر في عيني توني مباشرة وبينما أنا أنظر إليه أخذت تنمو في داخلي شجرة كبيرة بدأت تكبر وتكبر في أعماقي، وصار لها جذع سميك وصارت لها جذور راسية راسخة في جسدي، جسدي الذي بدأت أكتشفه وأتعرّف عليه حديثاً، توقف قلبي فجأة عن الضرب بقوة وأصبح المكان كأنه فارغ تماماً لم يكن سوانا هناك، الشيء الوحيد الذي كان موجوداً هو أنا فقط أنا وتوني في هذا العالم أجسادنا متلاصقة قريبة من بعضها البعض، مربوطين بقبضة محكمة بجانب بعضنا بدأت بطني تؤلمني إن ضربة توني تركت كدمة على بطني كما ترك ذلك الغصن خدشاً على رقبتي وصار علامة حمراء ظلت تحرق رقبتي طويلاً لكن هنا لم يحدث شيء من هذا كله لم أتألم ولم أعانِ شيئاً آخر لم يكن توني مصراً على ملامستي كما كان يفعل الصبيان في المدرسة لم تكن يداه طامعة في افتراسي، لا كذب، لا ليونة مصطنعة في صوته، وليس هناك زيف بكلماته بهدف الحصول على شيء ما، لم يكن في عيونه أثر، أي رغبة جنسية عارمة للتحرش لم يكن هناك رغبة لدى توني أو حتى إحساس بأنه يرغب في الوصول إلى مناطقي الحميمة والحساسة، إن كل إنسان يملك منطقة

حساسة في داخله، ويجب أن يتعامل مع هذه المنطقة الحميمة بعناية فائقة، وبمنتهى الحرص والرقة كي لا تنكسر أو تتحطم، ويصبح المرء ركاماً، ولم أشارك توني في أي لعبة لأنه ليس من هؤلاء الذين يرغبون في اللعب، لكنني أشترك معه في شيء آخر، إنه شيء آخر غير اللعبة، شيء لم أعرفه، ولم يسبق لي أن شهدت مثله من قبل إن ذلك الشيء الذي بيني وبين توني أياً كان لم يخفني، بل كنت واعية وأدرك كل ما يحدث، وأنا موافقة عليه إنه شيء يختلف عن مواقفي تجاه الصبيان في المدرسة، أولئك الأوغاد الذين كنت أشعر أنهم كانوا يجبرونني على "اللعب" معهم.

لم أستطع مقاومة توني كان جسدي يذوب أمامه تنحل كل قوتي بين قبضة يديه، وهو لا يشدني أو يمسكني بقوة، لأنني ببساطة شديدة أرتخي ولم تعد أية صلابة بجسدي أمامه، كانت عيون توني البراقة ذات النظرات الهادئة تتلألأ متسائلة بصمت عن جوابي، دفعت جسده بعيداً عني وأومأت برأسي بمعنى أنني جاهزة لم يقل شيئاً ربط توني يديه كفاً بكفٍّ كظفيرة الشعر وطلب مني أن أضع قدمي المليء بالطين وأدوس على كفيه كي أستطيع أن أصعد وأتسلق إلى الأعلى وأدخل من النافذة إلى المنزل.

كنت مولعة بلعبة التحول إلى صبي كنا نلعب هذه اللعبة الجديدة مرات ومرات عديدة، وكنا نمارسها لأوقات طويلة مما جعلني أعاني قلة ونقصاً في النوم، وكان النوم يزحف إلى عيوني لدرجة كنت أشعر بأن جفوني الرقيقة ترغب أن تطبق على عيوني وتغلقها بقوة، وأنا أقاومها وكنت أشعر بمتعة كبيرة، وأنا بشخصية الصبي وأود تمديد كل دقيقة وثانية لأستمتع بهذا الواقع العجيب الجديد أطول فترة ممكنة، في مساء كل يوم كنت أول من يتسلل إلى مزهر الورود وأتوسل إلى بيلا وومومو طالبة منهن أن نتحول إلى

صبيان ونستمر كذلك لأطول فترة ممكنة وأن نبقى بالرغم من الوقت المتأخر مستيقظين طوال الليل حتى اقتراب الفجر.

كنت أول من تمشي أمام بيلا وممو، وأنا أقودهما نحو الحديقة وخطواتي تسبق خطواتهن ألف وأدور باحثة عن توني على أمل أن يأخذنا معه لنقوم بنفس تلك المغامرة مرة أخرى وأخرى وأخرى، نعم لقد أصبحتْ لعبتي المفضلة، ولكن لم يمض وقت طويل حتى بدأت بيلا وممو تشعران بالملل وكانت بيلا أول من شعرت بالسأم كانت تأتي معنا على مضض ودون رغبة، وكانت تضطرنا إلى إقناعها طويلاً كي تأتي معنا إلى مغامرات المنطقة الصناعية، كانت تبقى هناك صامتة طوال الوقت لا تتفوه بكلمة واحدة إلى أن توقفت ذات يوم بشكل فجائي ونحن بالقرب من مقر توني وقالت:

- لا أريد المجيء إلى هنا بعد الآن!

وأكملت تقول:

- إن توني وصديقه حمقى، وأنا لا أريد أن أكون بصحبتهم أو أتواجد بالقرب منهم!

بعد أن أكملت بيلا كلماتها بدا على ممو الحيرة، ونظرت إليَّ، ثم إلى بيلا، ثم عادت وظلت تنظر لي وهي كالتائهة لا تعرف ماذا تقول، كانت ممو تحب المغامرات في عالم توني، وكانت تلك الليالي بالنسبة لها كلها مرح ومتعة؛ لأن قيام ممو بدور الصبي بدا لها كأنها تلعب دوراً في مسرحية ممتعة، مدهشة وكانت تستمتع بأداء دورها وتؤديه بإتقان وتفانٍ وكانت تتدرب جيداً على إتقانه كصبي مراراً وتكراراً إلى أن أصبحت ماهرة جداً

بدورها، وعندما يحل الفجر وتعود لتستلقي على سريرها كفتاة في بيتها، تتنفس الصعداء وهي راضية سعيدة بتجربة أدائها المثالي الذي قامت به.

نعم، كان الوضع في مغامرات عالم توني بالنسبة لمومو هو مجرد لعبة، لعبة يمكنها أن تلعبها وتشارك فيها متى شاءت، وتخرج منها متى رغبت، وهذا ما حدث فعلاً، كانت مومو تأتي معي للقاء توني وهوكن مرات عديدة إلى أن أخرج هوكن ذات يوم ورقة السيجارة من جيبه كي يلف السيجارة، وقفت مومو قائلة:

- لا لم أعد أرغب بهذا بعد الآن! قالت هذه الكلمات وهي تنظر إليَّ، وفي عينيها تساؤل وكأنها تنتظر مني أن أفعل الشيء نفسه ومن المفترض أن يكون لي نفس رد الفعل، نظرت إليها وأحسست بلمحة مخفية من خيال توني من الخلف وشعرت به قريب جداً مني، وأنا أقول:

- سوف أبقى لبعض الوقت، فترة قصيرة ربما ساعة أخرى، ثم بعدها سآتي!.

أومأت مومو برأسها توافقني الرأي، لكن كلانا يعلم بأنني أكذب ولن أعود إلى البيت بعد ساعتين.

ذهبت مومو وبقيت لوحدي مع توني وهوكن لم نتحدث عن مغادرة مومو لنا أبداً، لا أنا ولا توني ولا هوكن ولكن كنا نعلم أننا من الآن أصبحنا نحن الثلاثة فقط لقد اختارت بيلا ومومو الذهاب، لكنني اخترت البقاء عندما خرجت مومو وأغلقت الباب خلفها ابتسم توني ابتسامة ملتوية بطرف فمه من جهة واحدة دون أن يتكلم بشيء، لكنني كنت أفهم معنى هذه الابتسامة، وتفسيرها هو أنني أصبحت من الآن ملكه هو، وأصبح لي حياة جديدة مستقلة عن بيلا ومومو وأي من أصدقائي القدامى.

كـان تـوني يـسرق كـل شيء دون اسـتثناء أو تمييـز، ملابـس، ألعـاب كومبيوتر، سجائر، خمور، هواتف نقالة، سيارات، سكاكين بنزين، أقـراص أدوية، بطاقات بنك ائتمانية، كان توني يصطحبنا أنا وهـوكن معـه للـسرقة، كنا أنا وهوكن في بداية الأمر نسرق بالتناوب، مرة أقوم أنا بالسرقة وهوكن يقف على البوابة في الخارج يراقب، وبينما أنـا أسرق كـان هـوكن يحرس لي الدرب وكان توني يقف هناك ينتظر في السيارة، ثم نتبادل في يوم آخر عندما أكون أنا الحارس يدخل هوكن ليسرق وتـوني ينتظـر خارجـاً عنـدما نقـوم بسطونا كنا نبدو كالخرسان أنا وهوكن، فلا نتكلم مع بعض أبداً، كان الجو مشحوناً متوتراً بيننا دائماً كنا نعلم شيء واحـد في قـرارة أنفسنا، وهـو أننـا كانت هناك منافسة بيننا مسابقة من هو الأسرع في إنهاء مهمتـه في الـسرقة، كنا عندما نعود إلى السيارة مسرعين ومعنا البضاعة المسروقة ينظر كـل منـا إلى الساعة مبـاشرة، وذلـك ليحـسس الآخـر كـم اسـتغرق مـن الوقـت، وبالطبع كنت أنا الأسرع دائماً.

كنا نترك هوكن وحيداً في الغرفة هناك في الجبل عدة أسابيع، لم يكن يقل لنا شيئاً وعندما غادرنا الغرفة مـرة أخـرى لـف ظهـره لنـا، ولم ينظـر إلينـا ونحن نخرج كنا نترك هوكن في البداية وحيداً قليلاً، ثم نعود إليه لكن بعد ذلك بدأنا نتركه عدة ليالٍ متتالية.

كنا أنا وتوني نعمل كل ليلة في الظلام، أول ليلة كنت برفقتـه فقـط، ثـم بعد ذلك تركني لأقوم بالسرقة وتوني يراقب المكان في الخارج، ثم سرعـان ما صرت أذهب لوحدي وهو يبقى جالساً ينتظرني في الـسيارة، كـان تـوني يقف هناك في الـسيارة لا يـشغل المحـرك ولا ينطلـق إلا إذا وصـلت وأنـا أركض هاربة، وأدخل الـسيارة بأنفـاسي المقطوعـة وبلعـومي الجـاف مـن

الخوف، كان توني ينظر لي بضعة ثوانٍ نظرة فخر وإعجاب، ثم تبرق عيونه وتلمع عندما يرىٰ الغنائم التي تمكنت من سرقتها وعندها فقط يرمقني نظرة تقول إنه راضٍ عني، وفي منتصف الطريق السريع ينظر لي نظرات ليس لها علاقة بجسدي وإنما نظرة تعني أنني مقبولة لديه.

نعم، كان توني في بداية الأمر يختبرني وقد نجحت في الاختبار، ووجد توني بأنني كنت جيدة ومناسبة بما فيه الكفاية وجديرة بالاعجاب، لكن نظرات إعجابه لي لم تكن تعني أنه معجب بي أو نظرة صداقة وإنما شيء واحد فقط هو:

إنني نجحت في اجتياز الاختبار الذي اختبرني به، لقد كان مسلياً له أن يظل يختبر قدراتي وحدودها؛ لأنها كانت تجعله يشعر بمتعة فائقة وكنت أحب نظراته تلك عندما يكون راضياً عني وكنت مستعدة أن أقوم بمحاولة أخرىٰ وأخرىٰ وأخرىٰ كي يظل ينظر إليّ تلك النظرة، لماذا كنت أحب تلك النظرة؟ ما الذي يجعلني أتلهف شوقاً وألتهب ناراً كي يرميني بنظراته تلك؟ ربما لأنني لم أر من قبل أحداً ينظر إليَّ بهذه الطريقة. كانت نظراته تحفزني فأستجمع قواي من جديد وأعلم أنها ترغمني علىٰ أن أتفوق علىٰ نفسي وقدراتي كي أحصل علىٰ تلك النظرة مرة أخرىٰ، كانت كل ليلة كأنها أشبه بصراع بالنسبة لي كي أفوز وأتفوق علىٰ قدراتي، كنت كل مرة أعود بها إلىٰ السيارة، وآثار الخدوش والجروح علىٰ جسدي، ذات ليلة لاحقني كلب وعضني ومرة أخرىٰ عانيت من رائحة حريق، وامتلأت رئتي بالدخان، ولكن بالرغم من كل ذلك لم أفشل مرة واحدة إطلاقاً، كنت قوية جداً، بل صرت في هذه الفترة أقوىٰ من قبل وكان توني يتقاسم الغنائم معي، وكنا نقوم بذلك عندما نبتعد عن المناطق التي سرقناها،

شعرت ببرودة تسري على امتداد عمودي الفقري وارتعش بدني كله وبدأت تفوح من يدي رائحة العرق، اعتبر توني أن هذا سيكون من الأمور المسلّم بها، وأراد أن يحسسني بأن النتيجة معروفة وهي أنني لا أستطيع قيادة السيارة، لكنه أراد أن يسمع مني الجواب، وهو أنني أخفقت هذه المرة، وأنني لا أجيد القيادة وكأنه كان يرغب في أن يرغمني على أن أعترف بالفشل، ولو لمرة واحدة وأنني أفشل في إدهاشه أو إرضاء توقعاته عن قدراتي السريعة في التعلّم، كان كل شيء يعرفه توني لا أعرفه أنا، وأي معلومة يمتلكها تكون مجهولة بالنسبة لي، أو لا أعرف شيئاً عنها، كان ذلك يجعلني أشعر بالحزن والإحباط، لقد كنت على استعداد أن أتحمّل أي شيء، وأفعل كل شيء كي لا أجعله يصاب بخيبة أمل مني.

جلس توني في مقعد الراكب بجانب مقعد السائق، وأنا واقفة قرب السيارة مشدودة الأعصاب أفتح يدي وأغلقها، وأغلق فمي وأفتحه أحاول العثور على كلمة مناسبة ملائمة كي تخفف من الضرر الذي سيحدث لتوني، وخيبة الأمل التي سيشعر بها تجاهي، ولكن وقبل أن أنطق بكلمة واحدة اقترب توني بجسده من المقود وهو يطبطب على المقعد يشير بيده الخشنة إلى مقعد القيادة وهو يقول:

- تعال اجلس سوف أريك كيف تقود السيارة!.

لا أعرف كيف عرف توني أنني لا أجيد قيادة المركبات، هل فهم ذلك من رد فعل وجهي وتعابيره القلقة أم أنه ربما كان منذ البداية ينوي أن يعلمني القيادة وأنه لم يكن يتوقع مني أن أعرف ذلك، لا أدري بالضبط ما الذي كان.

سار توني على طول السور قبل أن يقرر أن يسحب نفسه وخلع حذاءه وألقى به من فوق السياج إلى الجهة الأخرى من السور، وتمسك بأصابعه جيداً وتسلق السياج كالقطة إلى الأعلى وعبر السور إلى الجهة الأخرى، اندهشت من شدة رشاقته وفوجئت من خفة جسده الثقيل الذي أصبح فجأة خفيف الحركة وقفز بمرونة وارتفع فوق السور، عندها خلعت حذائي وحاولت أن أتمسك بالشبك بنفس المكان الذي تسلق منه توني لكن قدمي انزلقت إلى الأسفل قبل أن أدرك كيف أثبتها على أصابع أقدامي لكن السلك المعدني قطع جواربي ومزق قدمي وجرح جلدي فصرخت صرخة خفيفة، وأنا أتأوه، ثم كتمت صرختي، وأنا أتدحرج ورميت بجسدي إلى الجهة الأخرى على الأرض فقد كان توني قد سبقني إلى السيارات وسمعت صوت جلجلة خافتة حيث كان يحاول تشغيل محرك سيارة مرة أخرى.

كان توني يحاول تشغيل محرك السيارة لكن دون جدوى، وعندما وصلت إليه رأيته جالساً وراء عجلة القيادة في مقعد السيارة الأمامي ممسكاً مقود القيادة وكتفه منحن ومتكور يضغط بمفك على مشغِّل السيارة ويحاول تشغيلها، سمعته يسب ويلعن وهو يحاول ويحاول مرة أخرى، وأخيراً نجح في تشغيل المحرك وأومأ برأسه بارتياح وعدل جلسته ثم أصدر المحرك ضجيجاً، وتردد الصدى بين المباني، تلفَّتُ مباشرة لا إرادياً خلفي وإلى اليمين واليسار، كانت الساحة خاليةً، لم يكن هناك سوانا، ولا يمكن لأحد أن يسمعنا أو يكشف أمرنا مطلقاً.

خرج توني من السيارة والمحرك لا زال يشتغل وتقدم نحوي وهو يقول:

- أنت ستقود السيارة!.

كانت الشوارع خالية وواسعة أمامنا في الليل، كنت أقـود وقلبـي يـدق بشكل طبيعي وهادئ في صدري، كنـت أسـيطر علىٰ قيـادتي وأشـعر بـأن السيارة تستجيب، وتسير بين يدي بشكل جيـد إلىٰ أن أمسـك تـوني فجـأة وأحكم قبضته علىٰ مقود السيارة، ووضع قدمه علىٰ قدمي، وبدأ يدفع بقوة علىٰ دواسة البنزين وانطلقت السيارة بشكل مسرع، وشعرت بألم في أصبع قدمي وكدت أفقد صوابي من الألم.

- ماذا تفعل بحق الجحيم!.

كانت السيارة تسير علىٰ الطريق بسرعة فائقة وتوني لايزال يـضغط علىٰ البنزين، ولم يزح قدمه عن قدمي، بل كان يضغط بشدة والسيارة تسرع أكثر وعداد السرعة يصعد إلىٰ أقصىٰ سرعته إلىٰ أن أدلىٰ بنـا الطريـق إلىٰ منعطـف فلف توني مقود القيادة واستدار بقوة وهو يدفع علىٰ البنزين مما أشعرني بـألم أكبر في قدمي، ثم دخلت السيارة إلىٰ طريق جانبي وصعدت علىٰ الرصـيف فأطلق توني ضحكة عالية، ورمىٰ برأسـه إلىٰ الـوراء وبـدأ يـصرخ بحـماس وفرح صاخب كأنه ذئب، كانت صرخات قهقهاته القادمة من أعـماق قلبـه أشبه بعواء الذئاب، وظل يضحك بشكل هستيري مجنون، وفقدت السيارة توازنها وبدأت تترنح تارة يميناً وتارة شمالاً، ثـم سـمعنا جلجلـة وصـوت وقوع شيء بقوة عندها خطرت علىٰ بالي أفكـار كثـيرة وفكـرت بـأن تـوني بالتأكيد شخص أحمق كان عليه أن يدرك خطـورة مـا نقـوم بـه، وأنـه ويـا للجحيم مجنونٌ فقد عقله حقاً، وسوف يتسبب في موتنا.

لكن ضحكات توني التـي مـلأت الـسيارة ومـلأت المكـان مـن حـولي دخلـت إلىٰ نفـسي وأحسـست بهـا، وهـي تتغلغـل إلىٰ أعماقـي وأصـبت بالضحك فبـدأت أضـحك معـه، كنـا نـسير بـسرعة في المنعطـف نتخـبط

كان في صوت توني شيء غير متوقع إذ بدا صوته رقيقاً وذا عذوبة طيبة ولهجة مشجعة على غير عادته وكان وجهه يطل عليَّ وألمحه من تحت القبعة وكان ظل القبعة يخفي ويعتم عيونه، لكن فمه كان مرئياً وشكله مسترخياً ولم يكن على وجهه علامات تحد أو ملامح قسوة، جلست في المقعد خلف مقود القيادة لم يكن هناك مفتاح لأشغل به المحرك، وبدلاً عنه كان هناك مفك البراغي الصغير. انحنى توني بكتفه ووضع يده على المفك وصار قريباً فشعرت بقرب وجهه مني، لقد كانت رائحة شعره تفوح من خلف القبعة كأنها رائحة دخان وشعر غير مغسول، شعرت بإرباك مما اضطرني لابتلاع لعابي بصعوبة، كنت أركز على كل كلمة يشرحها كل إشارة يشير إليَّ بها وهو يشرح لي عن كيفية القيادة كنت لا أريد أن يفوتني أي شيء يقوله، البنزين إلى اليمين ودواسة فصل السرعة إلى اليسار الفرامل في الوسط ضع مبدّل السرعة على الواحد وارفع قدمك عن دواسة فاصل السرعة، وادعس على البنزين بشكل خفيف، وأنا أنفِّذ كل ما يقوله لي، انطلقت السيارة بحركة سريعة، ثم توقفت فجأة وارتفعت حرارتي، وكنت أشعر بخدودي تشتعل ناراً ورغبت بأن أضع يدي الباردتين على خدودي كي أبردهما، ولكنني امتنعت ولم أفعل؛ لأنني كنت لا أرغب في أن يلاحظ توني توتري وخوفي وقلقي، كان صوت توني لطيفاً، وهو يمسك بالمفك الصغير، ويحاول تشغيل المحرك من جديد يلف المفك بشكل محترف كالمعتاد على السرقة دائماً.

- أبطأ يجب أن تدعس على البنزين بشكل أبطأ! ستشعر بذلك عندما تسير عجلات السيارة بشكل صحيح ومتوازن!

بدأ صوت محرك السيارة يقرقع ويصدر ضجيجاً مخيفاً تحتي وأنا في محاولة لاستعادة تركيزي لقيادة المركبة، بدأت أخفف تدريجياً وأنا أرفع قدمي

ونقترب قليلاً من المنازل السكنية حيث توني يفرز البضاعة، وما كان يرىٰ له قيمة يحتفظ بها، أما الباقي فيرمي به علىٰ جانب الطريق، وكانت آثار السرقة ومسروقات الناس وممتلكاتهم وراءنا متناثرة علىٰ طول الطريق الذي نمرُّ به.

اصطحبني توني إلىٰ كراج تصليح سيارات يقع بعيداً في ضواحي المدينة وكان المكان محاطاً بالحقول والمزارع الخضراء الواسعة، إنه مكان بعيد عن المدينة إلىٰ درجة أن قاد توني السيارة طويلاً حتىٰ وصلنا إلىٰ تلك الأرض، لم يقل لي إلىٰ أين سنذهب وماذا يدور في خلده ولم يسبق له أن فعل ذلك ولا مرّة، بأن قال لي بماذا يفكر، هو لم يتكلم، وأنا لا أسأل أبداً فقد كان ذلك نوعاً من الحماية كي يحافظ علىٰ سرية المهنة، نوعاً من الاحتراز الضروري أن لا يبوح بتفاصيل المكان الذي سنذهب إليه، وذلك كي لا أفكر كثيراً وأشعر بالمخاطرة أو أصاب بالخوف، كان لدىٰ توني كل شيء سري يجعله في غاية البساطة كنا نذهب إلىٰ مواقع السرقة، وأنا كالأعمىٰ أوافق أن يصطحبني إلىٰ أي مكان يرغب، وأعمل معه دون تردد أو خوف إذ كان الوضع بالنسبة لي أشبه بالذهاب إلىٰ مجهول في الظلام.

كان موقع السرقة يبدو مهجوراً في الظلام وصلنا إلىٰ ساحة كبيرة مفروشة بالحصىٰ ومحاطة بسور عالٍ من الأسيجة الحديدية، هناك خلف المباني وقفت صفوف متراصة من أسطح سيارات لامعة تضيء بواسطة مصابيح أمامية مسلطة عليها إنها تشبه مصابيح السجون التي ينيرها الحراس ليلاً، وتضيء الساحات كي يتمكنوا من المراقبة الليلية، وتكشف لهم إن كان هناك سجين هارب. كان الكراج مضاء كضوء السجون علىٰ كل الساحة.

السيارة إلى بوابة الخروج، وكدت أصطدم بسيارة البيك آب الواقفة هناك، لم أفكر بما خرج من فمي فقلت لا إرادياً كلمة:

- لا!

خرجت كلمة الرفض من زوايا فمي مع زفير قوي شعرت به يتطاير في الهواء بيننا في داخل السيارة، كشر توني بازدراء وأشاح بنظره، وهو يتطلع إلى الخارج من خلال زجاج نافذة السيارة الأمامي فشعرت للحظات بنظرته تلك، وهي تفتح ثقباً في جلدي وبالرغم من أنه كان ينظر إلى الخارج إلا أنني كنت أشعر بأن نظراته قبالتي ومتوجهة لي أنا، ثم دعست على الفرامل مباشرة ووقفت السيارة قبل عدة سنتمترات من سياج البوابة الخارجي الحديدي السميك وقلت له:

- إذاً انزل وافتح الباب!

خرج توني من السيارة ليفتح الباب الحديدي لم يبتسم، ولم يقل شيئاً، ولكنني كنت أعلم أنه كان مستمتعاً، خرج من السيارة ويده في جيب سترته ينبش عن شيء يكسر به قفل الباب الذي على السياج.

عندما هربنا من كراج السيارات زدت من السرعة ونحن نخرج من هناك، أسرعت أكثر وأبقيت عيني على الطريق، سألته ونظري مركز على الطريق فقط:

- لم لم تكسر الأقفال عندما دخلنا الكراج واقتحمناه:

ابتسم توني ابتسامة عريضة وقال:

- يضع هؤلاء الأوباش أموالاً كثيرة يبذلون بها أقصى جهودهم كي لا يستطيع أحد أن يكون قادراً على الدخول ولكن عند الخروج يكون أسهل بكثير من الدخول.

اليسرى انطفأت السيارة مرة أخرى وازداد توتري مرة أخرى، ثم استوعبت ما كان يعنيه فقمت بالتخفيف وبدأت أدعس بقدمي اليسرى على البنزين بشكل خفيف وتدريجي كان الاهتزاز يصدر من خلال دواسة القابض الذي أدعس عليه، وبدأ صوت محرك السيارة يزداد ويعلو أكثر وأكثر كلما حركت قدمي، ثم رفعت قدمي وبالقدم الأخرى أدعس على البنزين ببطء تحركت السيارة إلى الأمام كأنها قفزت إلى الأمام، لكن هذه المرة دون توقف وكان صوت توني متحمساً مبتهجاً وازداد حماساً وهو يقول:

- اخفض ناقل السرعة وضعه على الرقم اثنين الآن!.

فعلت كما قال لي، وشعرت كيف تم ربط العجلات والمحرك بلحظة واحدة قبل أن تنفصل وتمكنت من أن أغيِّر وضع الأرقام الجير "علبة السرعة" وبدأت السيارة تأخذ سيرها وتزداد سرعتها وتسير سيراً حثيثاً، تذكرت الصبيان في حارتنا وهم يقودون درّاجاتهم النارية ونحن نسمع صيحاتهم وهم سعداء بقيادتهم، ينزلون من منحدر القفز إلى أسفل الشارع وهم في قمة الفرح والبهجة بدرّاجاتهم التي تشبه درّاجات الأطفال الهوائية قياساً بهذه السيارة وقيادتي لها، هذه التجربة المثيرة، بأن أقود السيارة كانت كبيرة بالنسبة لي، لم أرغب في أن أتوقف أبداً، كنا نسير بالسيارة أنا وتوني في الساحة المليئة بالتراب، والسيارة تسير إلى الأمام وأنا أقود ونسير إلى الأمام وإلى الخلف، وأمرّ بين الشاحنات والسيارات الأخرى الواقفة هناك كي أتمرّن، ثم بعد ذلك أشار توني إلى بوابة الخروج وقال لي:

- هيا لنذهب، لنخرج من هنا!.

لقد نسيت نفسي لم أكن أدرك مدى ارتباكي وخوفي عندما سمعت توني وهو يقول "هيا لنذهب" واتجهت لا إرادياً دون أن ألاحظ وأنا أقود

كالأعمى في الظلام هنا وهناك لا نعرف أين نحن نسير وضوء السيارة يضيء لنا فقط الطريق، لم أمسك نفسي أو أمنعها من الضحك كنا نضحك بشكل هستيري كنا مجرد صبيين اثنين يخاطران بحياتها ويضحكان في منتصف الليل يختلط الضحك عندهما مع خطورة الموت والإثارة وسرعة القيادة التي كانت تثيرهما مع رعشة الحماس، في تلك الليلة المظلمة انتهى بنا الطريق ووصلنا إلى نهايته وانحدرنا من جانب الطريق إلى شارع فرعي صغير توقفنا هناك، ثم بقينا جالسين في صمت داخل السيارة كي نستعيد أنفاسنا ويهدأ الطريق، ثم نعود لنواصل سيرنا مرة أخرى.

كانت رائحة السيارة كرائحة حريق أو دخان أو ربما كانت رائحة توني التي كنت أشعر بها وتدخل إلى أنفي، كلما اقتربت منه مد توني يده وشغل جهاز الراديو في السيارة ووضع يده كأنه يضربني مزاحاً على فخذي فشعرت بقضيبي وقد انتصب للحظات بين فخذي كان لا يزال قضيبي ومنطقة أعضائي الحساسة جديدة عليَّ وقد تحرك الدم وبدأ يضخ ويسري من قضيبي وصعد إلى صدري مما جعل صدري يصبح قوياً صلباً، عدلت جسدي قليلاً وأنا جالسة في مكاني وغيرت طريقة جلستي كي أخفي ما ظهر بين ساقي، كنا نجلس أنا وتوني هناك نستمع إلى أغنية بعد أغنية، وكان توني يضرب بأصبع الإبهام مع الإيقاع وأنا.... وأنا كنت في قمة السعادة... كنت كطائر الفرح الذي يحلق ويطير من السعادة.

كان بيت مزهر الورود متوهجاً عند الغروب كانت ظلال الزهرة العجيبة تشع من خلف زجاج المزهر وعندما وصلت كانت بيلا ومومو جالستين هناك في بيت مزهر الورود، كانت مومو واقفة أمام الزهرة مقطبة حاجبيها ووجهها يبدو عليه الجدية، وهي تنظر مكتوفة اليدين إلى الزهرة

بدقة متناهية كأنها تحاول دراسة شكلها أما بيلا فقد كانت تمسك بساق الزهرة بيدها وتمسد عليه بلطف وقلق، وباهتمام كبير كنت أرى ما تراه بيلا وومو، ولكنني لم أكن أرغب في أن أشعر به أو أعترف بذلك، وكان جسدي يريد أن يخرج من جسد الفتاة الحساس، إنه يؤلمني أشعر أنه يحرقني في بعض الأماكن ويملؤه الحماس، يريد الخروج من ذلك الجسد الهش والتحول إلى صبي كنت أتطلع لليلة أخرى مليئة بالمغامرة والحياة وكل شيء، كنت أرى أمامي ليلة أخرى مليئة بأشياء ممتعة تفرحني، أشياء ومغامرات لا تمل، ولا يمكن أن أشبع من الاستمتاع بها أبداً، مددت رقبتي وانحنيت على الوردة بنفاد صبر وكنت راغبة في أن أشرب منها جرعة واحدة، نظرت مومو إليَّ نظرة حادة والتفتت إلى بيلا وقالت لها بجديّة:

- ما رأيك بيلا؟

نظرت بيلا بقلق إلى مومو، ثم التفتت إلى الزهرة مرة أخرى وقالت:

- إنها ليست على ما يرام إنها بحاجة أن نتركها لوحدها!.

لم تستغرب مومو من جواب بيلا أومأت برأسها كانت متوقعة أن يكون ردها هذا، ثم أدارت وجهها وخرجت من المزهر وجلست هناك على الكرسي، نظرت إلى بيلا، وهي لا تزال تمسك بأوراق الزهرة بحذر ولطفٍ شديد، انحنت إلى أعماق الزهرة ونظرت إلى داخلها لم أفكر كيف يمكن أن يكون سؤالي في هذه الحال بالتأكيد سيبدو سؤالاً أنانياً لكن لا يهم، قلت بصوت عالٍ:

- هل يوجد شيء هناك؟ هل هناك سائل للشراب؟

رفعت بيلا وجهها عن الوردة وتطلعت في وجهي رأيت في عيونها سواداً لم أره من قبل:

- نعم هناك المزيد من السوائل في داخلها، ولكن لا يمكنك أن تأخذي شيئاً منه، ينبغي عليها أن ترتاح!.

قالت بيلا، ثم أخذت رشاش الماء وراحت ترش وتبلل أوراق الزهرة بلطف وحنان.

مرت الأيام والليالي وانقضت الكثير من ليالي الشروق والغروب، وكانت الزهرة خلالها نائمة ورأسها منحن إلىٰ الأسفل علىٰ ساقها في البيت الزجاجي داخل مزهر الورود، إنها نائمة لا ينبغي إزعاجها.

كنت أجلس هناك في غرفتي مع جسدي جسد الفتاة، لكن نفسي وروحي لم تكن حاضرة مع جسدي كانت أفكاري والأوقات التي قضيتها مع توني قد احتلت كل تفكيري واستحوذت علىٰ ذهني مغامراتنا الليلية، وكل خطوة خطوتها معه كنت أتخيل وجه توني، عينيه، يديه، ظهره، حركاته، كل مغامراتنا واكتشافاتنا التي اكتشفناها معاً، كنت أحتفظ في ذاكرتي الساعات التي قضيتها مع توني أثناء تحوّلي إلىٰ صبي وأحتفظ بها كما لو أنها حجر ثمين، كل لحظة قضيتها معه كانت واضحة ولامعة وتتلألأ كشعاع الشمس، ذكريات أحملها وأخبئها في عيوني وراء أجفاني تحت جلدي، وعندما أقوم بدور اللعب كنت أخرجها متىٰ رغبت بذلك، في كل لعبة كنت أجلس هناك في غرفتي غرفة الفتاة، وكلما أنظر إلىٰ المرآة التي قرب سريري وأرىٰ هناك فتاة تقف في المرآة، أفاجأ وأنا أنظر إليها لثوانٍ وفي كل مرة اتساءل من هي تلك الفتاة شاحبة الوجه التي هناك قبل أن أتذكر أن تلك الفتاة هي أنا.

كنت أسمع من خارج غرفتي صوت صبيان الحارة وهم يقودون درّاجاتهم النارية ويجرجرونها، كان الصبيان يجولون بدراجاتهم النارية فوق

طريق الحصىٰ ويعملون دوائر ومغامرات، وقد تخيّلت أن ذلك هو نوع من التعاويذ وأنه أشبه بطقوس خاصة بهم لمجرد التسلية يقومون بها كل ليلة، ليلة بعد ليلة بل لا أعلم ما هو سبب قيامهم بذلك كل ليلة ربما يفعلوا ذلك كل ليلة للحفاظ علىٰ شيء ما أو كي يبتعدوا أو ربما ليبعدوا ذهنهم عن شيء ما، أو ليجذبوا إليهم شخصاً ما أو شيئاً ما لا أعرف، ولكنني كنت أعلم شيئاً واحداً وأنا متأكدة منه هو أن الصبي القابع داخل جسدي والذي يعيش معي هنا في غرفتي، غرفة الفتاة هذه، يرغب في الخروج إليهم ليكون معهم، كان الصبي الذي في داخلي يرغب بشدة في الخروج إليهم مرتدياً حذائي الرجالي "البصطال" ذا اللون العسكري واضعاً يديه في جيوب بنطاله ويمشي. كان الصبي يرغب في أن يُلقي عليهم التحية بهزة من رأسه ويقف هناك قربهم جنباً إلىٰ جنب في شارع الحصىٰ، ولكن في المرآة كان هناك وجه فتاة، فتاة تحدق بي بغباء، وكلما نظرت إليها والتقت عيني بعينها رأيتها فتاة عاجزة غير قادرة علىٰ القيام بأي شيء.

عندما حل الليل وزحف الظلام علىٰ جدران غرفتي شعرت بالحيطان كأنها تزحف للاقتراب مني، وتطبق علىٰ أنفاسي، ولم يعد هناك مكان ولا مساحة كافية لي في الغرفة، أشحتُ بوجهي عن الجدران والمرآة لأبتعد عنهم ووجهت نظري إلىٰ الباب، ثم نهضت وسحبت حذائي الرجالي، ارتديته وخرجت بهدوء من المنزل.

رأيت الصبيان وهم يندفعون بدرّاجاتهم النارية، وعندما مررت بقربهم سمعت ضحكاتهم وهمهماتهم وبدؤوا يتقصدون إصدار أصوات محركات درّاجاتهم عن قصد وارتفع الصوت أكثر عندما اقتربت منهم، وانطلقت ضحكاتهم وتمتماتهم، واندفعوا بدرّاجاتهم النارية بقوة، وأنا أسير قربهم صامتة.

٥

كنت أسير نحو بيت مزهر وورود بيلا ونظري مسمّر إلى النافذة المضيئة، كنت ألمح قميص بيلا يظهر بين النور والظلام هناك داخل البيت الزجاجي، في تلك الليلة خرجنا أنا ومومو وبيلا بأجسادنا الأنثويّة أجساد الفتيات، كنت أسير ورأسي مرفوع عالياً وأتنقل بمرونة بين الرمل والحصى والأحجار، كنت لا أرغب في أن أكون فتاة، وكنت أفعل كل ما بوسعي كي تكون مشيتي كمشية صبي قوي.

لم يكن الظلام قد انتشر في هذه الليلة بعد، كانت العصافير لا تزال تزقزق، وتغني على الأشجار فكرت وخطر على بالي أن وقت الغروب ربما يكفي ليكون درعاً، ويخفي ملامح الفتاة ويجعلني أشعر بالحماس والقوة كصبي وأن الظلام سيجعلني لا أكون مرئية أو ملفتة للنظر كفتاة كما أكون عليه تحت ضوء النهار، ولكن ظلام ذلك الغروب لم يكن كافياً ليثير حماسي ويشعرني بأنني صبي، كنت أسير في شوارع المدينة وأشعر بنظرات الجميع من حولي كأنها تحفر أعماقي وتخترق جلدي وتحرق باطني وأنا أسير في جسد الفتاة ذاك، كان الجميع ينظر إليّ رجال، نساء، أطفال، وحتى الكلاب، كنت أتأمل عيون الآخرين وهي تنظر إليّ وكنت أشعر بنظراتهم، وأرى انعكاس شكلي ومظهري في سواد عيونهم، كان شكلي يبدو غريباً، أبدو كشخص غريب تماماً في نظري، وكأن كل السنوات التي قضيتها في جسد الفتاة هذا لم تكن لي أنا إنها لإنسان آخر غيري، إنها حياة إنسان آخر غير حياتي كنت أسير في شوارع المدينة، وأنا داخل جسد فتاة، كنت أرتدي شكل الفتاة الذي كان أشبه بقناع أرتديه إنه قناع غير ملائم لي، ولم يكن على مقاسي وحجمي إنه قناع لا يناسبني أنا.

كانت الشوارع والحدائق تعج بالناس، بشر في كل مكان كانت مومو هي أيضاً قلقة، ولكن بشكل مختلف، وكانت تسير أمامنا كالتائهة المضطربة من شيء ما، بينما أنا وبيلا نتبعها ونسير خلفهما .

كان الوضع لدى مومو يختلف، إنها تعاني شيئاً آخر، شيئاً يكشط جلدها وجسدها من نوع آخر، كنا نسير بين مجاميع الناس كأننا نمشي في طابور عسكري، كانت مومو قائدنا ونحن نسير خلفها، كان هناك مجموعة من صبيان منطقتنا جالسين هناك، كنت أرى مومو تتحدث إليهم أحياناً في شارعنا، لقد قادتنا مومو بخطواتها تجاههم دون أن ندري، ثم وجدنا أنفسنا فجأة جالسين نحن الثلاثة أمام هؤلاء الصبية.

كان أحد الأولاد يدخن السيجارة وطافت السيجارة حولنا جميعاً ولكن لم يدخنها أحد سوى مومو وأنا وأحد هؤلاء الصبية، لا أتذكر عما كان يتحدثون، ولكنني أتذكر ضحكات مومو العالية التي كانت تصل إلى السماء وكنت أنظر إلى مومو كيف تركت جسدها يتحرك بليونة وميوعة، وبدأت تتدلع بحركات أنثوية لطيفة كلما رمقها أحد الصبية ورماها بنظرة، كانت عيون مومو على الصبي الذي قدم لها السيجارة كان شعر الشاب أشقر ووجهه أسمر بفعل أشعة الشمس، عندما رأيت حركات مومو أثار سخطي منظر ابتساماتها لذلك الشاب، وشعرت في داخلي بالاشمئزاز والقرف بشكل غريب وربما بالغيرة والحسد أيضاً.

كانت بيلا تجلس هناك بهدوء يسودها الصمت والخجل لا تجرؤ على أن تبادر بأي شيء، لكن عيونها ظلت مفتوحة تترقب بمرح وفضول ما يدور هناك، كانت بيلا تبحث عن نظرة بين نظرات الصبيان الحمقى لتواسي نفسها لكنها كلما اصطدمت عيونها بعيون أحد الصبيان تشعر بالحرج، فتزيح برمشها مباشرة إلى الأسفل، وعلى شفتها ابتسامة خجولة وتشيح بنظرها نحو الأرض.

ألقيت نظرة على الحديقة العامة، رأيت العديد من جمرات السجائر تضيء وتتوهج في الظلام، نظرت من حولي فوق عشب الحديقة، كنت أسمع هنا وهناك ضحكات تأتي بصوت عال وأخرى تأتي بصوت منخفض، وكان هناك صوت راديو تصدر منه طقطقة أغانٍ رديئة، وفجأة وصل توني، شعرت به خلف ظهري، كنت أعلم بوجوده قبل أن أرى وجهه أو أسمع صوته، جلس توني وأصحابه هناك خلفنا على بعد بضعة أقدام فقط، نظرت إلى بيلا ومومو كنّ منشغلات بنظرات الصبيان الخرقاء لهن؛ لذا لم يلاحظن وصول توني. جلس توني القرفصاء كالعادة، وأشعل سيجارته وشفط منها نفساً طويلاً لدرجة أن جمرة السيجارة توهجت وأضاءت إضاءة كبيرة، بينما الفتاتان اللتان تجلسان مع توني وأصدقائه تضحكان بأعلى صوتهما، كانت الفتاتان الغزالتان ذوات ساقين طويلتين ورقبة بيضاء رقيقة وجفون ثقيلة، وذلك بسبب المكياج الكثيف.

إحدى الفتاتين انحنت أمام توني وأسندت يدها وركبتيها إلى الأرض ثم وقفت على مفاصلها الأربعة كالكلب وانزلق قميصها من على كتفها وظهر صدرها ومدت رقبتها البيضاء ليتمكن توني من النظر إليها أو رؤيتها، وبابتسامة مثيرة مغرية طلبت من توني أن يولع لها السيجارة، نظر توني إلى كتفها وصدرها العاري، لكنه لم يعر لها أي اهتمام، ناولها الولاعة كما طلبت منه ثم رفع عينيه وتجاهل إغراءها وتطلع بنظره بعيداً، لم يبال توني لرقبتها البيضاء الجميلة، ولا لإغراءاتها التي حاولت أن تثيره بها، وظلّ ينظر بعيداً وهو يدخن.

أدخلت يد الفتاة الصغيرة داخل جيوب سترتي، ووقفت وطلبت من الصبي الأشقر سيجارة، التفت إليَّ الشاب وهو ذاهل من عيون ونظرات

مومو إليه وأعطاني السيجارة، وبينما عاود النظر إلى مومو كنت أسير باتجاه توني وساقي تؤلمني من التوتر والخجل، مشيت خطواتي نحوه أريد أن أطلب منه ولاعة أُشعل بها سيجارتي.

عندها تساءلت مرات عديدة بيني وبين نفسي: ماذا لو لم أذهب إلى توني وأطلب منه ولاعة؟ ماذا يمكن أن يكون لو بقيت جالسة في مكاني مع مومو وبيلا والآخرين؟ أو ماذا لو غادرت من هنا بالأساس؟ ماذا لو تمتمت بعبارة لمومو وبيلا، ثم ذهبت بعدها من هنا؟ ولكنني لم أفعل هذا كله، مشيت مباشرة متوجهة إلى توني وسألته عن ولاعة، رفع توني رأسه ونظر إليَّ بتساؤل، لم يتعرّف إلى صوتي الأنثوي ولم يظهر عليه أي أثر يشعره بي أو يذكره بي كصبي أبداً لم أبال لذلك، ولم أفعل شيئاً، لكنني عندما نظرت إليه ورأيت انعكاس صورتي في عينيه رأيت ما يراه، ولمحت جسدي المربك، جسد الفتاة الضعيف، كان واقفاً هناك أشبه بقطعة لحم فاسدة لا تصلح للطعام، ولم تكن تنفع حتى لترمى إلى طيور الغربان التي تقف هناك على الشجرة ليأكلوها.

لم يناولني توني ولاعته وارتسمت على وجهه تعابير أشبه بالاحتقار والرفض لي لم يحاول حتى مجاملتي أو إخفاء هذا الشعور بل على العكس، ظلّ ينظر إليَّ لوقت كاف ليوصل إليّ ردّة فعله النافرة وأراد أن يشعرني باشمئزازه وقرفه مني "عن قصد" لم يلتفت وظل مصراً بالنظر إليَّ بنظراته المقرفة ليؤكد لي وكي لا أنسى أنني مرفوضة وغير مقبولة لديه، ثم التفت بعد ذلك وأشاح بوجهه إلى أصدقائه، بقيت واقفة للحظات قبل أن أستوعب الموقف وأنه ينبغي عليّ أن أدير ظهري أيضاً، وأعود إلى بيلا ومومو والآخرين هناك بعد مغادرتي قال توني كلمات لأصدقائه لم أسمع منها شيئاً، ولكنني سمعت نبرات صوته ولهجتها كيف كانت تقطر قرفاً،

قال للفتيات الغزلان اللاتي برفقته بعض الكلمات وبدأن يضحكن بصوت غير مبالغ به، ولكن كان عالياً بما فيه الكفاية ليصل إلى مسامعي وأسمع سخريتهم واستهزاءهم مني.

في تلك الليلة وفي وقت متأخر بقيت مستلقية على فراشي، فراش الفتاة وكنت أنظر إلى انعكاس أضواء الشارع على سقف غرفتي كانت ترتسم خطوط زرقاء باهتة على الجدران، وأنا أراقبها بضجر، كنت أشعر بفراغ يجتاح صدري، وكانت شحنات ثقيلة في داخلي ترغب أن تنفجر، هناك شيء أو إحساس أسود صامت يستعر ويشتعل بوضوح يرغب في الصراخ، رفعت يدي أمام وجهي ونظرت إليها، نظرت إلى هذه المنطقة المعتمة غير الواضحة بالنسبة لي وتركت يدي تتلمس صدري، ثم زحفت إلى أسفل بطني، وانزلقت إلى أسفل، بين ساقي تحسست الأعضاء الغامضة، كانت المنطقة جافة يابسة لم يكن هناك شيء وصلت أصابعي إلى الشق الذي بين فخذي سعت باحثة أكثر وواصلت طريقها إلى الداخل، حاولت أن أدخل أصابعي أبحث بهوس يائس عن إحساس ما، شيء ما ذي قيمة، كنت أتمنى أن أجد شيئاً ما يشعرني بأنني فتاة، ولكن كنت أبحث دون جدوى ولم يكن هناك شيء، كانت المنطقة الحساسة بين فخذي ميتة بلا شرايين ولا أنسجة ولا توترات مثل ما يحدث مع قضيبي عندما أكون صبياً كنت أرى كيف تتراكم الأنسجة وتتجمع وتتصلب الشرايين في قضيبي وجسدي الصبياني.

كان هناك صوت الصبي يهدر في أعماقي يأتي من مناطق معتمة سرية في نفسي.

أغمضت جفوني ورأيت وميضاً أمامي عيني، استحضرت ذكرياتي مع توني كان توني ينظر إليَّ وأنا في هيئة صبي يتطلع في وجهي، في عيوني ينظر إليَّ

فقط، لم يكن هناك شيء في عينيه شيء سوى أنه ينظر إليَّ نظراته الجميلة، فتحت عيوني وجلست فجأة على السرير وشعرت كأن الرغبة أسقتني أمواجها وتدفقت مياهها وغسلت الشوق وسالت فوقي مثل انفجار بركان.

كانت نافذة بيلا مضيئة فرأيت خيال بيلا من وراء النافذة وهي جالسة إلى منضدة الكتابة رأسها منحنٍ على كراس ملاحظاتها وتكتب بحماس لم يكن من عادة بيلا أن تكتب طويلاً، وبهذه الحماسة الكبيرة، إن بيلا معتادة أن تسجل أشياءها وملاحظاتها بشكل مختصر وقصير في دفتر النباتات اليومي فقط، فكرت ربما تكتب عن ذلك الشاب الأخرق الذي جعلها تبتسم وتنزل بنظرها إلى الأرض خجلاً من نظراته، تسللت من تحت نافذتها، وأنا محنية الظهر كي لا تلاحظ وجودي، ثم ذهبت إلى البيت الزجاجي عندما وصلت هناك خلعت حذائي ووضعته على الأرض الحجرية وأبقيت المصباح مطفأً، ثم دخلت إلى مزهر الورود حافية القدمين مشيت على أطراف أصابعي وفي نيتي أن ألقي نظرة على الزهرة وأطمئن عليها وأرى إذا كانت تحسنت واستعادت عافيتها.

كان يبدو شكلها متعافياً ولكنه لا يزال متعباً وكانت أوراقها تمتلئ حيوية وألوانها تبدو زاهية والمقاومة والنشاط واضحة عليها، حنيت رأسي ونظرت إلى داخل الزهرة فرأيت أكياس الرحيق مليئة بالسوائل وهي على وشك الانفجار، وبدا الأمر وكأن ذلك الامتلاء يعذبها ويحتاج إلى الخروج، إنها أكياس طافحة بحاجة إلى أن تفرغ، شعرت بأن الزهرة تحمل عبئاً ثقيلاً وترغب في التخلص منه، منظرها هذا جعلني أفكر بالأشخاص الذين يصابون بجروح وقروح ملتهبة تعكر صفو الجسد، كذلك تلك السوائل إنها تشبه تلك القروح، أمسكت بأحد الأكياس بطرف أصابعي وتأكدت من أن

كلام بيلا غير صحيح، إن الأمر ليس كما تقول أنه علينا عدم أخذ أي شيء منها، بل على العكس من الأفضل أن نأخذ سوائلها ونفرغها كي تشعر بالراحة، وما أدرى بيلا بحال تلك الزهرة؟ لقد قالت هي بنفسها إنها لم تر في حياتها مثل هذه الزهرة، لذا فهي لا تعرف شيئاً عنها، ولا تعلم عن حالتها ومصلحتها وما تشعر به لم يكن لديها الحق ان تصرح بشيء لا تعرفه ينبغي أن تكون متأكدة تماماً قبل أن تقول أي شيء، لم أفكر في الأمر طويلاً؛ لأنني ثقبت غطاء أحد الأكياس وتدفق السائل الذهبي منها، وامتلأت أصابعي به، ورأيت كيف شعرت الزهرة بالخفة والارتياح وخف عنها العبء بشكل واضح.

لم نكن لوحدنا أنا وتوني في غرفة القبو داخل الجبل، وإنما كان هوكن معنا وكذلك أشخاص آخرون جلبهم هوكن معه لا أعرفهم ولم ألتق بهم من قبل أبداً، وكان بينهم فتاتان ذواتا نظرات فارغة بلا معنى شفتاهما مبلولة رطبة من شراب الكحول الذي اعطاهما إياه هوكن، وكنا نجلس هناك على حافة هضبة مرتفعة قرب المياه كان المكان ضيق بالكاد يوسعنا جميعاً، كانت إحدى الفتاتين تجلس على طرف منصة الهضبة وهوكن يجلس إلى جوارها واضعاً ذراعه حول خصرها، فهي لم تمانع في ذلك، لكنني كنت أرى عكس ذلك، أنها لا ترغب في أن يضع هوكن يده عليها، لكنها كانت صامتة وسمحت له بذلك فقط، وذلك من أجل أن تحصل على الكحول المجاني، وكي تتمكن من مواصلة شرابها، والحصول على المزيد منه وتشارك هوكن زجاجته، كان هوكن ملتصقاً بها يضغط جسده بجسدها وهي واقفة هناك قرب الحافة، وفي كل لحظة يقترب ويلتصق بها أكثر ويحشرها إليه أكثر ممسكاً بها بذراعه، وذلك كي يمنعها من السقوط في المياه، كان هوكن يتظاهر بأننا نحن من يدفعه إليها بسبب ضيق المكان، ولكننا في الحقيقة لم نكن نفعل ذلك.

كان توني جالساً في الجهة المقابلة لهم وتجلس إلى جواره الفتاة الأخرى، كان هوكن ينظر إلى توني بين حين وآخر بمكر واضح، وكنت أرى هذه النظرات الماكرة وأعرف معناها، أعلم ما يفكر به هوكن، كان هوكن يحاول أن يلمح لتوني أن هذه الفتاة هي هدية منه له، هذا ما يفكر به هوكن، كان ذلك واضحاً لي، كانت رموش الفتاة الجالسة بجانب توني سوداء طويلة كثيفة إنها أطول رموش رأيتها في حياتي، ولها عنق أبيض جميل، ولم أر حمرة مثل احمرار شفتيها في حياتي إطلاقاً، ثم قامت الفتاة بوضع زجاجة الشراب على حافة الصخرة بحذر، وانحنت على توني وهمست في أذنه شيء ما، لاحظت أن توني لم يجبها لكن تحرك فمه قليلاً، لقد لاحظ هوكن أيضاً ذلك فغمز لتوني بطرف عينه بشكل مسرحي ومبالغ فيه، وذلك كإشارة حماسية بحث بها عن اتفاق في عيون توني أو موافقة للرأي، وظل هوكن يهز برأسه كدلالة على أنهما متفاهمان، لكن توني لم يكن يكترث لهمزاته ولمزاته وظل ينظر إلى وجهي وفيما كنت محشورة بين صبيين غريبين، لا أعرفهما لكنني أشعر بحرارة أجسادهما وعرقهما وحركاتهما ورغم أنني كنت أشعر بالضيق والاختناق إلا أنني كنت لا أبالي ولم يكن بذهني شيء آخر سوى توني.

نظرات توني وحدها فقط كانت تجعل قلبي ينبض أسرع وبعنف، وضعت الفتاة الجالسة بجانب توني يدها على ركبة توني، ثم مررت أصبعها على ساقيه كي يشعر بالتهيج، ثم راحت تحرك يدها على بنطلونه ووضعت يدها الأخرى إلى الوراء على ظهره، وأدخلتها تحت قميصه، كنت أحدق في توني وهو يحدق بي، ولكنني كنت أراقب حركات الفتاة من طرف عيني، كنت أرى كيف كانت تغريه، وما كان يثير قرفي واشمئزازي هو كيف تلصق يدها على جسده لتحركها بطريقة مثيرة، كانت لدي رغبة في أن أندفع إليها راكضة وأزيح يدها عن توني وأدفع بنظراتها الملطخة بالمكياج وأبعد

أصابعها جانباً، كنت أرىٰ الضيق علىٰ ملامح توني رغم الابتسامة الباهتة التي ترتسم علىٰ شفتيه إلا أن نظراته كان فيها شيء من عدم الارتياح، لم يقل توني شيئاً، وهي تتحسس ظهره، وتضع يدها حول خصره، ثم وضعت شفتيها علىٰ أذنه وقبل أن تتمكن الفتاة من همس شيء آخر في أذنه نهض توني، تركها وقام، للحظات ظل ذراعاها معلقان في الهواء وشحب لونها، وبقيت هناك باهتة وحيدة علىٰ حافة الصخرة، ولكن سرعان ما وجدت اليد الفارغة زجاجة الشراب أمامها فتناولتها، والتفتت إلىٰ الصبيان وتحولت إلىٰ الآخرين وواصلت شرابها معهم، سار توني متجهاً نحو الباب الإسمنتي، وكان هوكن يلاحقه بنظراته، فتح هوكن فمه وأوشك أن يقول شيئاً لتوني، ولكن ما لفت انتباهه ليصمت انحناءة الفتاة التي إلىٰ جواره مادّةً جسدها من فوقه لتتناول زجاجة الشراب التي وضعها هوكن بعيداً عنها، ارتفع قميصها وظهر جزء من ظهرها عارضاً بشرتها البيضاء العارية بين بنطلون الجينز والقميص مما أثار انتباه هوكن وظل ينظر إليها ونسي توني.

كنت أعلم أن توني كان يتوقع مني أن أتبعه فقد كان في حركاته وإيماءاته شيء يدل علىٰ نوع من القرار والإصرار، تمكنت من تفسيره ومعرفته الآن عندما تعرفت عليه أكثر.

عندما قمت باللحاق بتوني في غرفة القبو وجدته واقفاً بالقرب من الأريكة الحمراء، وكان ظهره للباب ووجهه إلىٰ الداخل وكان الضوء يدخل من فتحة الباب، ولا يصل إلىٰ أجزاء الغرفة كلها وإنما يغطي بضعة أقدام فقط أو سنتمترات من داخل الغرفة، لكنني استطعت أن أرىٰ توني وهو يمد يده إلىٰ الأريكة، ويتناول شيئاً من تحت مقعدها، ثم يضعه داخل بنطلونه من جهة بطنه، ثم التفت إليَّ واستدار بجسمه تجاهي وكانت سترته مفتوحة، فرأيت مقبض مسدس مخبأ في البنطلون علىٰ بطنه من جهة الصُّرّة كان نصفه

ضحك توني لترددي، وقال:

- ألم تجرّب هذا من قبل؟

أومأت برأسي بمعنى لا لم أجرّب ذلك، فأصبحت ابتسامة توني العريضة أوسع، وذلك كما لو أن ارتباكي وعدم خبرتي في هذا المجال جعل اللعبة أكثر متعة لتوني، ثم فجأة وبحركة سريعة أخذ توني المسدس بكلتا يديه ليريني كيف أعمل ومدّ ذراعيه إلى الأمام وأطلق النار على العلب المعدنية، سقطتُ إلى الخلف من صوت إطلاق الطلقات النارية دون أن أتمكن من وضع يدي على أذني لأغلقها وأحميها من ذلك الصوت.

كان صوت صدى الطلقات يتردد في الحقل الواسع مما أوجع أذني، عندما رفعت رأسي لأنظر ما هي النتائج رأيت أحد العلب ما زالت موجودة على العمود ولم يصبها توني بطلقاته، أما العلبتين الأخريين فقد كانتا ملقاتين وسط الغبار والتراب على الأرض، لم يسألني توني أو يطلب مني إن كنت أرغب أن أجرّب إطلاق النار أم لا، وذلك لأن القرار لم يكن في يدي، لقَّم المسدس بالطلقات من جديد، ثم علمني كيف أثبت قفل السلامة وأضع المسدس في وضعية الأمان وأن أسحب جزءه الخلفي إلى الوراء حتى يصدر منها صوت وأسمع "تك" أمسكت بمقبض المسدس وشبكته في يدي ووضعت أصبع السبابة على الزناد، وأنا أركز نظري وأصوّب فوهة المسدس بخط مستقيم تجاه الهدف لقد كنت أقف محاولةً أن أجرّب مسكة الزناد، وأتحسسها بأصبعي، أحسست بقبضة يدي الذكورية، كانت قوية ومشدودة كأنها كانت تقاوم أي ضغط أو كبسة زر عندما كنت أسدد المسدس إلى الهدف، رأيت كيف كانت يدي ترتعد، إذ لا يزال صوت طنين إطلاق النار التي أطلقها توني يرن في أذني وكنت أرغب أن أضغط

فقط ثلاثة أعمدة تقف عامودية بخط مستقيم، واحدة إلى جوار الأخرى كالجنود وقت حراستهم. التقط توني من الأرض بعض علب الشراب الصدئة الفارغة، ووضعها على الأعمدة الثلاث المستقيمة، وأغمضت عين واحدة أولاً، ثم تركت الأخرى مفتوحة كي أرى بها، ثم حاولت أن أقدّر كم هي المسافة التي تبعد توني عن علب الشراب الفارغة؟ كم تبعد يا ترى؟ ربما عشرة أمتار؟

ثم رجع توني إلى الوراء وهو يتجه نحوي بعد أن نفض يده ونظفها ووقف بالقرب مني.

كنت ألمح سلاح توني وأرى مسدسه من تحت سترته، انحنى توني إلى الأرض وتناول حبلاً رفيعاً من بين التراب، بدا كأنه معتاد على القيام بهذه الحركة وعندما سحب الحبل كان أشبه بافعى انتفضت من بين الغبار، ثم أشار بأصبعه نحو العلب المعدنية عند العمود.

- خمسة عشر متراً!.

ثم رفع السلاح أمامي وأومأ بحركة في رأسه أن آخذ المسدس من يده وأصوبه نحو العلب المعدنية، فنظرت إلى قبضة المسدس الأسود، ثم نظرت إلى توني فقد كانت عيونه الذكورية تلمع بشدة، وهذا ما أثّر بي وأحسست بفظاظتي وبأنني عديم القيمة تماماً وشعرت بأن ذكورتي تصدعت، وعلى وشك أن تفلت مني ولم أعد صالحاً لأكون صبياً بعد الآن لقد كنت أرغب في مسك المسدس بيدي وأصوبه إلى العلب الثلاث، وأطلق النار على جميع العلب التي هناك كما لو أنني كنت قد فعلتها سابقاً لمرات عديدة، لكنني لم أفعل شيئاً ونظرت إلى داخل نفسي، ووجدت صورتي المربكة وأنا أمسك بالمسدس وأحاول أن أصوّب، لكنه إنزلق من يدي، ولم أتمكن من إصابة العلب.

قلق نحوه، أو لم أشعر بإحساس غريب منه تجاهي، وسرعان ما اختفت الشكوك وراحت وعاد كل شيء إلى طبيعته، ثم شرد ذهني بعيداً وتذكرت حكاية قديمة سمعتها عن الذئاب، تقول الحكاية: إن الذئب وحده فقط من يدير ظهره للخطر إنه واثق من قوته وسلطته وسطوته فهو وحده من يستطيع أن يجازف ويدير وجهه في المواقف الحرجة والخطرة.

حمل توني العلب الفارغة ووضعها من جديد فوق الأعمدة، وعاد ووقف إلى جانبي مرة أخرى.

- هل أحتاج إلى تعبئة المسدس بطلقات جديدة؟

هز توني برأسه:

- لا! لا يزال عندك أربع طلقات!.

رفعت ذراعي إلى الأعلى وأنا أسدد ضربتي باتجاه العلب واحتضنتْ أصابعي مقبض المسدس بسهولة وسحبت زر الأمان، وأنا أنظر إلى الهدف، عندها سمعت صوت توني يقول في أذني:

- أريدك أن تصيب العلبة التي على اليسار أولاً، ثم العلبة التي على اليمين، وأخيراً صوب على العلبة التي في الوسط!.

أومأتُ برأسي موافقة وشعرت فجأة أن الأمر أصبح أسهل وأكثر وضوحاً لي كأن السلاح جزء من يدي وأصبحت امتداداً له وعندما أطلقتُ النار كانت العلب على وشك السقوط، ورأيتها تتساقط قبل أن أضغط على الزناد، ثم ضغطت عليه وكأن سلكاً مشدوداً غير مرئي يربط بين العلب والمسدس، تخرج الرصاصة من المسدس تتبع السلك إلى العلب مباشرة، لقد سارت الطلقات بشكل مستقيم وآمن وأصابت العلب تماماً مثلما أردت فأصبت أولاً العلبة اليسرى، ثم بعدها العلبة التي على اليمين،

على الزناد وأطلق النار، وفي الوقت نفسه لا أرغب بذلك لكن كنت أرغب أن أعرف كيف أشعر كما لا أرغب أيضاً، إن كل ما فعلناه في الليالي وكل الذي قمنا به أنا وتوني كان عبارة عن ألعاب شرسة، وكأننا نعيش في غابة، كان جسدي الذكوري يشعرني أنه خالد وأنه لا يموت، كما لو أنني أرتدي درعاً أو لباساً خارقاً ضد الموت، وكان هذا اللباس يزودني بالقوة ويجعلني أقوم بأشياء مستحيلة غير ممكنة، كان يعمل كغطاء واق وكانت أي ضربة أو أي خدش أو جرح في جسدي الصبياني تتلاشى وتزول أثناء النوم، ولا يبقى لها أثرٌ في اليوم الثاني.

لكن الأمر يختلف اليوم، إنها مغامرة من نوع آخر، فأنا أحمل الآن سلاحاً حقيقياً محشوّاً بطلقات حقيقية، وبينما أحاول أن أستجمع قوتي وأصوب عيني على الهدف خطرت على بالي أفكار كثيرة منها أن مجرد إطلاق طلقة واحدة من هذا المسدس يمكنها أن تصيب قلب إنسان وتجعله يتوقف، يمكن لضغطة زر واحدة أن توقف قلب إنسان كان ينبض بالحياة، يمكنها إذا اخترقت رئتي إنسان أن يتوقف تنفسه إلى الأبد.

- إنه شيء جدّي، ولا يمكن للأشياء الجدية أن تتلاشى أو تختفي ببساطة عند حلول اليوم التالي.

إن السلاح هو أمر جدي وإذا تظاهر البعض أن أجسادهم قوية خارقة لا يمكن لها أن تموت، فهذا لا يزيل فكرة أن الجسد إذا مات فإنه لن يعود أبداً، بل سيبقى ميتاً، وينتهي الأمر، ليس هناك رجوع من حالة الموت.

أنزلت يدي وأخفضت ذراعي إلى الأسفل وقلت:

- لا يمكنني أن أرى جيداً إن المكان مظلم!.

ظاهراً، إنه من الحديد الصلب بلون أسود، أغلق توني سترته، ولم أعد أرى مقبض المسدس، ولكن كنت ألمح انتفاخاً يبرز إلى الخارج من وراء الملابس.

- هيا لنخرج من هنا!. قال توني لي.

أومأت برأسي موافقة ولم يكن لدي أدنى فكرة عن المكان الذي سنذهب إليه، ولم أسأل ما يمكن من شأنه أن يحدث وهو يحمل سلاح، أبديت موافقتي وذهبت معه فقط.

كانت يداي ترتجفان داخل معطفي، لكنني لم أتردد لحظة واحدة، ولم أتراجع أو أن أفكّر بالرجوع، أو عدم مرافقته، ذهبت معه هكذا دون أن أسأل ودون أن أعرف إلى أين يأخذني.

أخذني توني إلى مكان بعيد، أبعد من ذي قبل إلى منطقة مصانع، إنها مكان واسع وفارغ، وكأنها منطقة مهجورة لا يزورها أحد، كانت المنطقة ميتة، وكأنها في انتظار أحد يأتيها كي يكمل بناءها ليضيف إليها أبنية أخرى ويزيد من المباني السكنية كي يسكنها الأهالي وتصبح حية وحيوية أكثر مليئة بالحركة والبشر، كل ما كان موجوداً هناك في هذه المنطقة هو أضواء الشوارع والتي كانت عبارة عن أعمدة رفيعة وطويلة تصطف هناك بشكل منتظم واحدة خلف الأخرى، لكنها مطفئة لأن ضياء شمس الصيف لا يزال يضيء ليل السويد، ولم يكن من حاجة إليها لهذا تُطفئُ أنوارها، كانت الأرض ترابية غامقة اللون لم ينم عليها العشب بشكل جيد وكنت أسمع من بعيد ضجيج محرك سيارات يأتي من الشارع العام، الطريق السريع، كان الصمت يخيّم من حولنا، ولم نسمع شيئاً سوى صوت أنفاسنا، كان توني يقف بالقرب من جدار متداع وسياج على وشك الانهيار، وكانت أغلب أعمدة النور مائلة على الجانبين بشكل معوج وقلة منها منتصبة وكان هناك

على مقبض المسدس، وكأن يدي أعجبت بذلك، شعرت بقوة عجيبة داخل نفسي، لم أشعر بهذا النوع من القوة أبداً من قبل ثم رفعت نظري إلى الأمام ورأيت الأعمدة فارغة وإذا بي أرى العلب متناثرة على الأرض، لقد أصبت الثلاث، ثم قلت لتوني بلهجة الواثق من نفسه دون أن ألتفت إليه:

- أعد وضع العلب الثلاث إلى الأعمدة!.

. لم ينطق توني بكلمة واحدة وصمت وأنا أيضاً وبقينا الاثنان صامتين للحظات، كان من الصعب عليَّ تحديد فيما إذا كان توني قد تحرك أم لا يزال واقفاً في مكانه، لذلك لم أستطع أن أرى توني وهو خلفي، لكنني بالتأكيد كنت أشعر بدهشته الكبيرة من نجاحي وجهزت نفسي استعداداً لرد فعل توني، وكنت أتوقع منه أن يلكمني كعادته على مؤخرة رأسي، أو يحاول أن يطبق يده حول رقبتي ويخنقني مزاحاً، لكنني رأيته من طرف عيني يسير متجهاً نحو السياج فقد كان ظهره في الليل يبدو كأنه هدف متحرك في الظلام، كنت واقفاً في مكاني أمسك السلاح في يدي وفوهته متجهة إلى الأسفل كنت أتساءل بيني وبين نفسي: ما الذي يدور في رأسه، بماذا يفكر توني في هذه اللحظة؟ لقد أعطيته الأوامر وها هو الآن ينفِّذها، كان يمشي وظهره لي، وأنا أحمل سلاحه في يدي ولا أعرف كيف يمكن لي أن أفسر هذا الموقف لم أدرك ماذا يعني ذلك ولبضعة ثوانٍ اعتقدت أن التوازن الذي بيننا متأرجح وأصبحت صداقتنا مهزوزة وغير متينة، ولكن عندما استدار وجهه نحوي ذهب كل شيء وزالت مخاوفي، وتأكدت لي صداقتنا، وذلك بمجرد أن نظرت إليه ورأيت قامته الجميلة، طريقة وقفته المعتادة، خطواته التي يخطوها، تعابير وجهه المريحة الخالية من الزعل، رأيت كل شيء فيه بالرغم من صعوبة النظر وسواد الليل، ذهب القلق ولم أشعر بأي شك أو

ألقىٰ توني نظرة إلىٰ العلب وحدق بعينين نصف مغمضتين وركز علىٰ الهدف، وكان يبدو عليه صعوبة التركيز ولا يتمكن من النظر بوضوح، وذلك بسبب الظلام وللحظات اشتدت عضلات رقبته، وكان علىٰ وشك أن يوافقني الرأي وأومأ برأسه ولكن مصابيح الشارع أضاءت هناك عند السياج أضاءت ضوءها الأحمر، ثم عادت وانطفأت مرة أخرىٰ، يبدو أن هناك تماساً أو خللاً ما في الكهرباء، وبعد ذلك مباشرة اشتعلت المصابيح مرة أخرىٰ واحدة تلو الأخرىٰ وانتشر النور في كل مكان، وظهرت العلب بشكل واضح وبدت زواياها وحوافها، كان الضوء يغطيها من كل جانب وكأن العلب تسبح في الضوء من كثرة الضياء، ولم أكلف نفسي وأستدير إلىٰ الخلف وأرىٰ رد فعل توني وملامحه بعد أن استعاد الضوء إلىٰ المصابيح، لكنني كنت أشعر بابتسامة توني العريضة وهو واقف خلفي، أشعر بعيونه وهي تنتظر أن أستدير وأطلق النار علىٰ العلب وأن أخطئ الهدف وأفشل وأحقق توقعاته.

كان لدىٰ توني قدرة أشبه بالسحرية تجعلني أشعر بالمنافسة أو ربما كان يتحداني، لكن دون أن يقول كلمة واحدة، كان ينظر إليَّ فقط، نظراته كانت وحدها تكفي لتوصل لي ذلك المعنىٰ، كان يتوق لرؤيتي، وأنا أفشل في المهمة التي أقوم بها، وكذلك في الوقت نفسه كان يرغب أن أكون ناجحة وذلك يحيرني ويدوخني ويجعلني أشعر بالدوار فقد كنت أشعر بنظراته فوق ظهري وابتسامته تنتشر علىٰ ظهري وجلدي كله.

الآن أصبحت يداي ثابتتين وصرت أرىٰ العلب علىٰ العمود هناك بوضوح تام، سحبت المسدس وكبست علىٰ الزناد وانطلقت طلقة واحدة ارتدت يدي في الهواء وتراجعت، وكدت أسقط كأنني تعثرت ثم عدت أدراجي واستعدت توازني وأنزلت يدي إلىٰ الأسفل، ظلت أصابعي قابضة

وأخيراً العلبة التي في الوسط أصبت العلب الثلاث جميعاً، إن تفوقي هذا سبَّب الإرباك لتوني إلى درجة كبيرة، أخذ توني نَفَساً من بين أسنانه، وخرج صوته منخفضاً كالمدهوش وقال:

- قلت لي إنك لم تجرب إطلاق النار من قبل ها؟

هززت رأسي:

- لا!

ثم أكملت وقلت:

- بقي طلقة واحدة، اذهب وأعد وضع العلب على العمود مرة أخرى!

نظر توني إليَّ دون أي تقدير ولم يظهر على نظرته أثر للإعجاب أو التشجيع، لقد كانت نظرته تخلو من أي تعبير وتحجَّرت عيونه فصارت أصغر، وفمه أصبح مشدوداً، ولم يعد مسترخياً ولا سعيداً ثم اجتاحت جسدي قشعريرة من الرعب أو من الفضول وأحسست بأنني أحمق، متهور، ولم أكن على حذر كاف بحيث إنني تجاوزت الحدود التي سمح لي بها عندها رفع توني يده مشيراً إلى المسدس ولم يقل شيئاً فنظرت في عينيه بشكل ثابت وناولته المسدس، أخذ توني المسدس من يدي وهو لا يزال مركزاً نظره في عيني ثم أمسك بمقبض المسدس وطوى أصابعه وأغلقها على زر الزناد وقال:

- الطلقة الأخيرة لي أنا!.

ورفع يده ببطء حاملاً المسدس ووجه فوهته بغضب إلى صدري، لم أرمش ولم أغمض عيوني فشعرت حينها كيف بدأت عيوني تحرقني، وحاولت أن أخفي خوفي بكل جهدي وأن لا أبيّن له مشاعر الرعب التي

تغلغلت إلى أعماقي، ثم رفع توني السلاح من على صدري عالياً، ثم وجهه إلى رأسه، ثم قال وهو يضغط بالمسدس على جبينه:

- مسدس فارغ لا قيمة له ولا يستحق شيئاً على الإطلاق!. في الأفلام يطلق الناس النار على أنفسهم في الرأس دائماً هذا هراء وكلام غير صحيح إنه أشبه بكذبة إذا رغب شخص ما أن يقتل نفسه حقاً عليه أن يطلق الرصاص من داخل فمه، عليه أن يوجه فوهة المسدس نحو الجمجمة من داخل الفم عندها يضغط فقط على الزناد ويطلق الرصاص مباشرة.!

هذا ما فعله توني بالضبط لقد صوّب فتحة الزناد وأدخل فوهة المسدس في فمه ووجهها إلى الأعلى متأهباً ليطلق النار، وهو ينظر إليَّ، ثم تسللت إلى نفسه حوافز مظلمة عكّرت صفو دماغه، وفقد تركيزه وأصبحت نظراته غائمة وهو يتطلّع في وجهي لكنه لا يراني فقد صار وجهه شاحباً وشفتاه باهتة الاحمرار وهما ملتصقتان بشكل دائري على فوهة المسدس السوداء المعدنية، هنا حاولت أن أسحب أنفاسي لأتنشق قليلاً، لكنني لم أستطع فقد أحسست أن رئتي قد ضاقت وتحولت إلى كتلة من الخوف ولم تكن هناك مساحة كافية في داخلي للهواء ولم يعد صدري صالحاً للتنفس.

عندما رأيت توني والمسدس في فمه نظرت إلى عينيه فوجدت أنه هو نفسه لا يعرف ماذا سيحدث له، أدركت حينها كم كنت خائفة عليه، وشعرت بأنني لا أحب شخصاً آخر بقدر ما أحببت هذا الشاب في تلك اللحظة.

أخرج توني المسدس من فمه وهو يلحس ويبلل شفتيه بلسانه، كما لو أنه أكمل لتو وجبة طعام لذيذة، لم أكن أعلم ما كان منظري وما كان مرسوماً على ملامحي في تلك اللحظة، عندما نظر توني إلى شكلي الذي جعله ينفجر ضاحكاً من كل أعماقه، كانت ضحكته دافئة حميمة كأنها ضحكة بين إخوان

وكنت أتوقع أن يضربني أو يربت على كتفي مازحاً لكنه لم يفعل شيئاً وراح يمشي في الحقل فقط دون أن ينظر لي أو حتى ينتظرني.

مر أسبوع كامل لم نكلم بعضنا وكانت تلك الفترة أطول مدة مرّت علينا دون أن أتواصل مع مومو وبيلا، ودون تأتي إحداهن إلى نافذة غرفتي كعادتها، وأنا لم أذهب إلى شبابيكهن أيضاً، ربما التقت بيلا ومومو وجلسن على الأرجح مع بعض، إما في غرفة مومو أو في بيت مزهر الورود الزجاجي كالعادة، لا أدري ربما تحدثتا عني ولم أفكر كثيراً بما كانتا تفعلان؛ لأنني كنت مشغولة كيف أمضي ساعات النهار الثقيلة الطويلة، كنت أشعر نهاراتي عبارة عن واقع غير واضح فقد كانت الرؤيا أمامي غير واضحة، كمن فقد نظاراته وراح يتحرك بدونها لا يستطيع أن يرى الأشياء على حقيقتها.

كنت أسير في الواقع ولا أرى بوضوح، ثم ذات نهار كنت نائمة على سريري، سرير الفتاة أشعر بالإرهاق، وذلك بعد سهر طويل وأنا أحاول النوم وبعد تعب استطعت أن أغفو وأحلم أحلاماً وحشية جامحة، ولم أسمع أصوات النهار وضجيجها وكان الهاتف يرن والأحلام تحول دون وصول رنينه إلى حواسي، ظل يرن ويرن لفترة طويلة قبل أن يصل رنينه إلى أعماقي ويدخل إلى أحلامي، استيقظت على صوت أبي الذي كان واقفاً عند باب غرفتي وهو يقول:

- هل أنت مستيقظة؟ إنها بيلا على الهاتف!

قمت من السرير وأنا لا أزال أشعر بالنعاس ونسيت أن جسدي العلوي هو جسد فتاة في سن المراهقة فحملت الغطاء وغطيت جسدي العاري، وسرعان ما استوعبت وجود أبي فنظرت إلى وجهه بخجل، وتحركت بتثاقل خارجة من الغرفة أسير نحو تلفون المنزل.

رفعت سماعة الهاتف وفوجئت للحظات بهشاشة صوتي الذي كان صوت فتاة.

- هلو!

كان صوت بيلا حاداً، شديد النبرة.

- يجب أن تأتي الآن، فوراً!

كانت مومو واقفة هناك خارج باب مزهر الورود تحرك العشب بطرف حذائها، وتعبث بأوراقه الموجودة بين الأحجار المصفوفة والتربة، عندما وصلت نظرت إليَّ مومو عبر غرّتها الكثيفة بعتب ولمحت بيلا داخل مزهر الورود من وراء الزجاج، كانت بيلا جالسة هناك راكعة على ركبتيها أمام ساق الزهرة تحفر وتقلب التربة بأصابعها بلطف وتبحث بحذر عن النتوءات حول جذور الزهرة وتتحسس العقد الموجودة هناك بين الجذور، عندما دخلت المزهر أشارت إليَّ بيلا أن أقترب منها، وقالت:

- تعالي هنا وانظري!

تسللت بخفة على أرضية المزهر الإسمنتية، وأنا أتقدم نحو بيلا ببطء فقد كانت ساقي لا تحملني للسير نحوها، وكنت لا أتجرأ على النظر في عيون بيلا؛ ذلك لأنني كنت أعلم سوء الأمر الذي سأراه، نظرت إليَّ بيلا وأشارت إلى واحدة من النتوءات التي على الجذور وقالت:

- تحسّسي هذه!

جلست إلى جوار بيلا، وبدأت أتحسس الكتل الطينية التي كانت عبارة عن نتوءات وعقّد انتشرت بين جذور الزهرة كانت العقّد أشبه بملمس نباتات الفطر، أحسست بها كالفاكهة الطازجة بين أصابعي، ثم أومأتّ بيلا برأسها وأشارت أنها تعرف مَنّ وَراَءَ هذا، وقالت:

- إنها تتعفن من الداخل!.

لَمستُ جسد الزهرة المريض وأمسكتُها بيدي، ثم أطرقت نظري إلى الأسفل نحو التربة السوداء، وكان صوت بيلا مقلقاً كصوت شخص راشد، وبدت عليها الجدية وهي تقول:

- ستذبل أغصانها وستصغر أوراقها وتتساقط بمرور الوقت، ولكن لن أدع هذا يحدث لها.!

ثم رفعت رأسها بنظرة رسمية أكثر تشدّداً أكثر وقالت:

- لماذا بدأت الزهرة تذبل يا كيم؟

كنت ألمح مومو من طرف عيني تقف عند فتحة الباب تنتظر إجابتي وتريد أن تسمع ردّي، لكن مومو كانت لا يبدو على ملامحها الصلابة والغضب ولم يكن وجهها متقلصاً ولم تكن خدودها حمراء ثم التفت إلى جهة مومو وقلت:

- وكيف لي أن أعرف؟

أنزلت مومو نظرها إلى الأرض ونهضت بيلا ووضعت يديها على خصرها على الجانبين وقالت:

- كفي عن ذلك يا كيم، كفاكِ كذباً لقد كنت هنا، كنت تأتين إلى هنا وتأخذي من سائل الزهرة بالرغم من علمك أن حالتها ضعيفة، ولا تسمح بذلك!.

وقفت أنا أيضاً لكنني لم أتمكن من مواجهة بيلا والنظر في عيونها، فالتفت إلى مومو مرة أخرى ويداي طارتا في الهواء على الجانبين وأنا أحاول أن أظهر كلامي كالحقيقي، ويكون صوتي صادقاً:

- أرجوك يا مومو قولي لبيلا أنها مخطئة، وأن كلامها ليس صحيحاً!.

سمعت صوت مومو منخفضاً وضعيفاً على غير العادة وهي تتكلم:

- لا أظن ذلك يا كيم لا أظن أننا مخطئتان!.

كانت شمس الظهيرة قد أشرقت عالياً وتسرّب ضياؤها إلى مزهر الورود عبر الجدران الزجاجية، كنت أسمع أزيز الدبابير وصوت الحشرات تطنّ وتزنّ قادمة من الحقول الخضراء وكانت الشمس حامية، وارتفعت حرارة الأرض وخرجت رائحة التراب، كنت أشم روائح زكية جذابة تأتي من الأرض والأزهار والأشجار، نظرت إلى بيلا ومومو رأيتهما تقفان بين الخضار والأعشاب معاً، وأنا أقف وحدي، ورأيت بيننا حدوداً طويلة وأن حاجزاً كبيراً يحول بيني وبينهما، أصبحت بيلا ومومو في جهة، وأنا وحدي في الجهة الأخرى فهززت كتفي بلا مبالاة وقلت:

- يمكنكما الظن بما تريدون أن تظنوه! للجحيم، ولكنني لا أعرف عماذا تتحدثون وتثرثرون، أنا لم أفعل شيئاً!.

ثم التفت إلى مخرج الباب وسرت وأنا أدير ظهري إلى بيلا والزهرة، وأثناء طريقي للخروج دفعت مومو بكتفي فكادت تفقد توازنها وتسقط على الأرض، لكنها استطاعت أن تسيطر على نفسها وأخذت نَفَساً وشعرت بالارتياح لعدم سقوطها، ثم سمعت بيلا تصرخ فجاء صوتها كالمسامير الحادة تضرب ظهري:

- غبية! أنت حقاً إنسانة بلا عقل، هناك شيء في دماغك!

لم ألتفت إليها ولم أنظر إلى الوراء، فقط جمعت كمية كبيرة من اللعاب في فمي وبصقت بصقة على الأرض وعلى شعرها الأحمر وحديقتها قبل خروجي من بوابة مزرعتها الزجاجية.

في نفس الليلة خلعت جزمتي خارج حديقة منزل بيلا، ومشيت على الأرض الحجرية كالطفلة الصغيرة حافية القدمين متجهة إلى مزرعة بيلا الزجاجية وعندما وصلت إلى المزهر وجدت قفلاً كبيراً مركباً على البوابة، كان القفل متيناً، قوياً لم أتمكن منع نفسي من الضحك، ثم ابتسمت شفتاي وأنا أنظر إلى القفل ابتسامة عريضة وشددت وجهي كله، وجدت سلكاً معدنياً في أحد جيوب سترتي، تناولته وبدأت بفتح القفل، أصدر القفل صوتاً نقر "كليك" وانزلق القفل إلى الأسفل مفتوحاً بكل بساطة وسهولة، فتحت الباب الرقيق ودخلت إلى داخل مزهر الورود، لم أترك آثاراً لأقدامي على الأرض أبداً.

يا صغيرتي بيلا هل كنت تعتقدين أن قفلاً قوياً كافٍ ليبعدني عن الزهرة الجميلة؟ مسكينة بيلا لا تعرف من أنا؟ لا تعرف من هي كيم، كيم التي خضعت وأنزلت رأسها منحنية للزهرة وشربت سائلها بشراهة لم تعد هي نفسها كيم التي تعرفها سابقاً، لم تعد نفس تلك البنت الصغيرة الزميلة في المدرسة التي تشاركها الألعاب، وتلهو معها لا، لم تعد هي نفسها.

كانت ليلة صيفية جميلة ذات نسمة باردة، ومياه البحيرة تتماوج بروعة، وعلى الساحل قرب الجبل سار توني فوق الصخور القريبة من المياه، وكنت أسير خلفه، ثم وقف على صخرة عند مياه ضحلة صغيرة المساحة لكنها تسعنا نحن الاثنين، كانت تكفي لشخصين يستطيعان الوقوف ضمنها، ثم ألقى توني نظرة إلى مياه البحيرة، وهو يخلع قميصه وخلع قميصه الداخلي أيضاً ورمى بهما وراءه، ثم نزع حذاؤه دون أن يفتح الأربطة والخيطان، ورمى به على جنب، ثم وضع يده على فتحة السروال الأمامية وراح يفتح الأزرار واحداً تلو الآخر وبحركة واحدة نزع سرواله الجينز وملابسه الداخلية وجواربه وتركهم على الصخرة وكأنه قام بتقشير جلده وطرحه

على الأرض كما لو أنه قشر بطاطا ونزع قشرتها، سقطت الملابس عن جلد توني كما تسقط القشرة عن البطاطا، رمى توني كل ملابسه على الأرض، وقف توني عارياً تماماً نظرت إلى عضلاته في الظلام إلى أردافه الصلبة ومؤخرته البيضاء المشدودة، ثم قفز قفزة سريعة في مياه البحيرة واختفى، ثم سرعان ما ظهر وأخرج رأسه على سطح الماء وسالت المياه كالجداول من شعره المبلل، وبدأ يغمز ويفتح عينيه ويغلقها كي يزيل المياه عنها، ثم نظر إليَّ ولا يزال الماء يقطر من وجهه ، وفجأة دعاني لأسبح معه، هزني شكل توني العاري تماماً وقلب أفكاري وللحظات أخذت أفكر في جسدي المتقلب الذي لا يعرف توني عنه شيئاً وما خُبِّئ تحت ملابسي، وشعرت بالتردد في أن أخلع ملابسي وأسبح معه، ولكن أشرقت عيونه أمامي وروحه المحبة للتسلية والمرح وشعرت بمقدار رجوليتي ونظرت إلى عيونه الذكورية، وتذكرت من أكون، ثم خلعت ملابسي أنا أيضاً وقفزت إلى البحيرة.

كانت مياه البحيرة ناعمة كالمخمل احتضنتني وشاركتني حِمْلي، وحملتْ ثقل جسدي عني وشعرت بخفة وراحة داخل المياه، عندما أخرجت رأسي إلى سطح الماء كان توني قد اختفى نظرت من حولي أبحث عنه، فلم أجده ولم أجد أي دوائر في الماء تدل على أن هناك شيئاً، ولا فقاعات هواء ولا أثراً ولا شيء يدل عليه، لكنني كنت أسمع فقط أصواتاً صادرة من مصنع بناء السفن تأتي قرقعتها من بعيد على شكل رتيب وضربات موحدة، كانت مياه البحيرة تبدو عميقة سوداء اللون أخذت نفساً عميقاً، وبدأت أسبح بلا هدف، ثم قمت بحركات السباحة في عدة جهات، فلم أجده وأُصبت في حيرة من أمري، ظهر فجأة من حيث لا أعلم دون أن أشعر بحركته، ولم ألمح حتى ظلا له تحت الأمواج، ولا مياهاً تتحرك من حوله يمكن لها أن تشعرني بوجوده ظهر فجأة من خلف ظهري وألقى بذراعيه على خصري

وأمسك بي وسحبني إلى أسفل المياه، لقد لمس توني جسدي بيديه، ثم دفعني أكثر إلى الأسفل وأخرج رأسه إلى السطح وظل ممسكاً رأسي بيده تحت الماء، لم أشعر بالخوف بل فتحت عيوني داخل الماء، وأنا أنظر إليه فرأيت جسده العاري بين المياه وضوء الليل، كانت عضلات بطنه قوية مشدودة، وكان هناك شعر قليل تحت السرة وكان قضيبه المغضّن المموج يتمايل قليلاً مع مياه أمواج البحيرة مرة يميناً ومرة شمالاً.

ظلت عيوني مفتوحة بالرغم من أنها بدأت تحرقني، ولكنني لم أغلقها وكانت مفتوحة تتطلع إلى جسد توني، كنت أريد أن أطبع صورته في شبكية العين، وأحتفظ بها وأحفرها في ذهني وأبقيها في ذاكرتي وأخزنها في مخزن الصور في عيوني ودماغي، ولكن بعد قليل بدأ الهواء ينفذ من رئتي وينتهي، وبدأت أتحرك متظاهرة بأنني أركل وأرفس بساقي كي أفلت نفسي من قبضة توني، لكنني لم أستطع فقد كان يمسك بي بقوة كانت ذراعاه تمسك كتفي بقوة ويداه مشدودتان بإحكام على رقبتي. هنا شعرت بضيق وتشنج في بلعومي وصرت على وشك الاختناق وبدأ الوقت يضيق وينفذ، ودب الخوف في أنحاء جسدي بشكل مريع وصار كالبرق يومض أمام عيوني، فكرت بأن هذا هو الموت، هكذا يبدو شكله وفي هذه الأثناء، رفعني توني بقبضته التي لا تزال حول عنقي، أفرج عني، وأخرجني إلى سطح الماء وأفلتني من يديه فأخذت نَفَساً عميقاً عند خروج رأسي من المياه، وأنا أكح وأسعل لالتقاط أنفاسي، رفعتني المياه وطاف جسدي فوق سطح الماء إلى الأعلى ثم استلقيت على ظهري على سطح الماء، لم أمت، أنا حيّة، في تلك اللحظة لم أر بوضوح، كان هناك وميض أمام عيني، وكنت أشعر بألم في بلعومي وحلقي، ولكنني شعرت بالهواء وهو يسري في جسدي ويشعرني بالحياة لكن توني لم يقل شيئاً وسمح لي فقط أن أستريح وألتقط أنفاسي، ثم

لف ظهره لي مرة أخرىٰ وراح يسبح ببطء علىٰ طريقة الزحف إلىٰ عمق البحيرة، كانت أكتافه تلمع في الظلام وظل يسبح ويسبح إلىٰ أن وصل إلىٰ منتصف البحيرة، وتوقّف هناك ينتظرني لألحق به، استرجعت أنفاسي وغطست مرة أخرىٰ ورحت أسبح في دائرة حول توني.

كان توني مسترخياً في الماء عندما اقتربت منه ركلني ركلة خفيفة برجله دون أن يتحرك، ولكنني قفزت إليه وأمسكت بصدره بقوة، جمع توني قواه سريعاً، وتصلب مرة أخرىٰ واستعاد حماسه، حيث لم يكن يتوقع مني أن أعيد له ما فعله بي أحكمت قبضتي علىٰ رأس توني وضغطته بيدي، وأدخلته تحت سطح الماء وفعلت به مثل ما فعل بي، ثم رفعت جسدي إلىٰ الأعلىٰ وتسلقت علىٰ جسده فتزحلقت، ثم تسلقت مرة أخرىٰ إلىٰ أن أصبحت فوقه تماماً، لم يجهد تونس نفسه، ولم يقاومني في بداية الأمر، ولم يتبار معي فقد كان جسده أكبر من جسدي ويطفو مثل عوّامة علىٰ سطح الماء، وكنت أشعر بصعوبة إدخاله إلىٰ الماء؛ لأن للمياه قوة دافعة كانت ترفعه إلىٰ الأعلىٰ، لكن توني ساعدني في ذلك وسهل الأمر عليَّ، ثم وضعت ثقل جسدي فوق جسد توني، وأنا أتنقل بكل وزني وقواي، وذلك لموازنة القوىٰ تجاه قوة دفع المياه إلىٰ أن أصبحت متوازنة فوقه ضد قوة دفع المياه التي ترفع الأجساد، وبعد مرور عدة ثوان شد توني عضلاته، وبدأت تتحرك كرهاً لا طوعاً وصدرت منه حركات لا إرادية تحت الماء وخرجت ذراعه إلىٰ الأعلىٰ لا إرادياً، ولكنني أمسكتها وأعدتها إلىٰ الماء وتلوىٰ توني وتخبط بجسده وأصبحت حركاته أشد وأعنف وأخذ يرفس ويقاوم بشكل متقطع، لكنني لم أفلته من سيطرتي أبداً وشعرت بالذعر يملأ جسده، فاندفعت مادة الأندرينالين سريعاً، وانتشرت في جسدي فتنشّطت عضلاتي وامتلأت بقوة جديدة.

وفجأة شعرت بالرغبة والاشتياق وأنا أتوق لأشعر بجسده ميتاً بين يدي، أن تتحول هذه القوة الرجولية لديه والجسد المتين إلى جثة هامدة بين يدي، كنت لا أتحمّل مقاومة القوة التي لديه، لا أطيق مقاومة إغراء قوته الرجولية اللعينة، جسده وصمته، لم أحتمل لمسة يديه، جلده، لم أحتمل برودة أعصابه وعدم إحساسه بما أشعر به نحوه، وكل شيء كان لديه ولا يمكنني أن أحصل عليه أصلاً، وضغطت بكل قوتي على جسده ودفعت به إلى الأسفل تحت الماء، شعرت بطراوة جسده وأنا لا زلت أمسكه وأدفعه تحت الماء، أحسست فجأة بعضلاته قد شلّت وذهبت أنفاسه وأصبح جسده طرياً جداً ليناً غير مقاوم ورقبته معلقة ومرتخية على جسده، فشعرت برعشة تسري حول عمودي الفقري ووصلت إلى أسفل جسدي فأطلقت سراحه وأفلته من يدي ولم أعلم إن كان حياً أم ميتاً.

اندفع كالسهم إلى الخلف كما لو أن قذيفة انفجرت في الماء رفعت جسدي إلى الوراء وألقت برأسي تحت مياه البحيرة وبعد لحظات وعندما صحصحت أخرجت رأسي إلى سطح الماء رأيت توني على قيد الحياة مستلقياً هناك على ظهره في الماء على بعد مسافة قصيرة مني يضحك بصوت عالٍ كل الوقت، يضحك ويشهق ويصرخ لاهثاً، ثم يلتقط أنفاسه ويضحك مرة أخرى وكله حيوية وحياة، انخدعت، لقد خدعني اللعين وقلت لنفسي:

- أيها الشيطان لقد خدعتني أيها الحقير! لقد شعرت بمادة الأندرفين تسري في جسدي كله، وبدأ السائل يتدفق في عضلاتي بقوة مما جعلني أدخل المياه ولا أغرق وأبقي جسدي طافياً على سطح الماء.

كان صدى ضحكات توني يتردد بين الجبال والصخور وفجأة ضحكت أنا أيضاً، وشعرت بمثل ما يشعر به تماماً إنه جنون توني، إن كل الأعمال

الخطرة التي يقوم بها، ثـم ينجـو منهـا، تـراه بعـد ذلـك يطلـق ضـحكات هستيرية وراءها، كأن توني يستمتع بشعور المخاطرة في حياته، إن إحساسه هذا أصابني بالعدوىٰ، فأصبحت مثلـه أشـعر بالاستمتاع عنـد المخـاطرة واللعب بالحياة والموت وصرت أضحك أيضاً، إنه ضربٌ من الجنون، كـان ينبغي أن أخاف، وأن ترعبني هذه المواقف، لكنني لم أفعل فقد كنت أشـعر بالاسترخاء مثل ما كان توني مسترخياً هناك ويسبح.

كنت أشعر في داخل أعماقي أن عليَّ مغادرة هذا المكان بعيداً عن البحر، أن أرحل بعيداً عن توني وجنونه وأعود إلىٰ بيتي، ولكنني لم أفعـل ولم أكـن أرغب بمغادرته، وكنت أريد أن أبقـىٰ قـرب تـوني، وأشـعر بـه وبجنونـه الشديد الممتع الذي ليس له حدود.

غطس توني في المياه العميقة وأغمضت عيني، وأنا أنتظره يأتيني لتلمس يداه خصري ويحيطني بذراعيه القويتين.

أحياناً كان أهلي يتساءلون بلطف عن بيلا وومو، وهم يمـرّون مـروراً سريعاً من باب غرفتي يلقون نظرة عليَّ ويسألوني بشكل عابر:

أين بيلا وومو؟ ماذا حلَّ بهما؟ هل حدث شيء بيننا؟ هـل تخاصـمنا أم اختلفنا علىٰ شيء أم ماذا؟

كنت أهز كتفي بـلا مبـالاة وأقـول لهـم لم يكـن هنـاك شيء عـلىٰ وجـه الخصوص، بالتأكيـد لم نتـشاجر ولم نكـن متخاصـمين ولكـن لم تعـد بيننـا قواسم مشتركة بعد الآن، كان أبي وأمي ينظران إليَّ ويبدو في نظراتهما الحزن والقلق لسماعهما هذا الخبر، لكن بعد ذلك يربت أبي علىٰ كتفي ليهوِّن الأمر عليَّ وتقوم أمي بمحاولة حمقاء لمواساتي وتطبطب عـلىٰ خـدي، وفي عيونهـا قلق بقدر ما هو أمل من أن ابنتها تركت الطفولة وراءها وبـدأت تـدرك أن

عليها أن تنضج. إن قلقهما يعادل سعادتهما، بل أكثر من ذلك، لعلمهما بأني لم أعد طفلة ألعب ألعاب الأطفال مع بيلا ومومو:

- هي طبيعية على أية حال!

هكذا فكرا وتنفسا الصعداء، وربما شعرا بالأمان والفرح أكثر من أن ابنتهما أصبحت طبيعية على الرغم من أنها تأخرت في الوقت إلا أنها الآن ستنمو وتكبر وتصبح امرأة بشكل طبيعي.

ولكن لم يكن والدي قلقاً على شيء جدير بالذكر، لم يقلقا عليّ بسبب الدوائر السوداء التي تحت عيوني ولا سهري المتأخر في الليالي، ولم يشعرا بالقلق بسبب نومي إلى ما بعد الظهر واستيقاظي بشكل متأخر كل يوم في فترة الغداء، إن هذه الأمور يمكن لها أن تجعلهما يشعران بالقلق، لكن لم يفعلا ذلك إلا بعد فترة طويلة، ذات ليلة وعندما استيقظا على صراخ مبحوح أجش وصوت تكسر زجاج فتحا عيونهما وشعرا بالخوف وفكرا أن ابنتهما قد حدث لها شيء ما.

جلسنا في السيارة التي يقودها توني، عندما شاهدنا أضواء سيارة الشرطة تومض باللون الأزرق من بعيد، لم يبال توني لهم ودفع بقدمه بقوة على مكبس البنزين، وقاد السيارة بأقصى سرعتها، كان عداد السرعة يشير إلى أكثر من مئتي كيلو متر وانتشرت رائحة حرق الوقود، وبدأت تملأ المكان وظل توني يقود السيارة ويقود إلى أبعد وأبعد إلى أن وصلنا الغابة فانعطف إليها ودخلنا على الأرض الترابية وبين الأشجار إلى أن انغرس أحد إطارات السيارة في الطين وتوقفت السيارة وظلّ الإطار يدور في مكانه، والطين يتدفق ويتطاير من حوله، وجلست أحدق باهتمام على الطريق وثبّت نظري في المرآة الجانبية التي تعكس الطريق من خلفي ويدي

متشبثة تمسك بالمقعد الذي أجلس عليه، وكنت أفكر في الشرطة وكيف ستلحق بنا وتمسكنا وسيأخذونا هذه المرة إلى السجن.

بعد أن صمتت السيارة وتوقفنا أصابتنا نزعة مفاجئة من الصمت، هدأ كل شيء من حولنا، لا صوت سيارات ولا شوارع، ولا صفارات إنذار، ولا شيء، كان الصمت يلف المكان حولنا لا نسمع شيئاً سوى صوت حفيف أشجار الصنوبر يأتي خفيفاً من وراء زجاج نافذة السيارة، بقيتُ جالسة في مقعدي ساكنة لفترة دون حراك، كنت أتحسس النبض في جسدي كيف كان يتسارع ويندفع بسرعة شديدة ويضرب في أنحاء جسدي، لم أكن أرغب أن أتحرك من مكاني ولا أريد أن أصرخ ولا أبكي، أردت فقط أن أظل جالسة هناك، وأشعر بالنبض الذي يخفق في جسدي.

كان توني جالساً هادئاً في مكانه مغمض العينين لا يتحرك وعلى رقبته تظهر أوردته الزرقاء الغليظة، كانت تضرب سريعاً في بداية الأمر، ثم بعد ذلك رويداً رويداً بدأت تخف وتخفق ببطء وهدوء، ثم فتح عينيه، كانت عيونه الزرقاء صافية بلا احمرار ولا يبدو عليهما التعب ونظراته هادئة، لطيفة، ثم مد يده إلى جيبه وأخرج علبة السجائر، وقدم لي سيجارة، لقد كانت النوافذة مغلقة مما حصر الدخان داخل السيارة وامتلأت به أجسادنا وأصبحت كالغشاوة على عيوننا ولم يبق داخل السيارة هواء سوى ضباب خفيف وحرارة أنفاسنا، أدرت مقبض تنزيل زجاج نافذة السيارة وأنزلته إلى الأسفل واستنشقت هواء الليل النقي، ودخل الهواء إلى داخل السيارة واختلط مع دخان السجائر فقد كانت السيارة صغيرة جداً ذات مقعدين فقط.

ترجل توني وخرج من السيارة، ثم سار ولف دورة حول السيارة، ثم توقف قرب نافذتي وأسند يديه على السيارة وانحنى على الشباك المفتوح وقال لي وهو يضحك:

- السيارة معطلة إنها عالقة لا تتحرك!.

ثم بدأ يضحك وضحكت معه أنا أيضاً وقلت:

- أوه، وماذا نفعل الآن؟

عدل توني نفسه واستقام ظهره وأخذ ينفخ دخان السيجارة باتجاه السماء، ويقول بابتسامة ساخرة وهو عائد إلى مقعده داخل السيارة:

- نعم نعم ماذا نفعل؟

جلس توني على مقعده وقال:

- اسمع علينا أن نؤشر إلى إحدى السيارات المارة، ونطلب منهم أن يأخذونا معهم، أن يوصلونا على طريقهم!.

تنهدت بإرهاق وأخرجت زفيراً ثقيلاً، إذ كنت أشعر بأنه حقاً عمل صعب وشاق، لقد كنت أرغب أن أقول له إنني ليس لدي الرغبة على الإطلاق في أن أوقف سيارة في منتصف الليل، وأطلب من الناس أن يوصلونا، وقبل أن أتمكن أن أقول له ذلك فتح توني صندوق الأمتعة وأرجع مقعده إلى الخلف ووسع المساحة في السيارة وانفتح المكان وصار المجال أوسع ليستلقي فيه، لويت جسدي وطويت نفسي على مقعدي وتقدمت إلى الأمام أكثر ورأيت توني كيف يفرد نفسه على مقعده ويستلقي بطوله هناك، وينام على جنب واحد لا يمكنه أن يتحرك، لا ينثني، ولا ينحني، وسألته:

- هل سننام هنا؟

لم يرد توني عليَّ وكان مستلقياً فقط وجاعلاً من سترته وسادة وضعها تحت رأسه وكان إلى جانبه مجال لشخص آخر لي أنا بالطبع فزحفت وتقربت منه وأنا أستلقي على ظهري ونمت إلى جواره وأنا أحدق في سقف السيارة،

كنت لا أجرؤ على النظر إلى توني، كنت خائفة في حينها، كنت أخاف أن أغفو وتمسك بنا الشرطة وتقبض علينا عندها لن أستطيع العودة إلى المنزل كالعادة، ولن أتمكن من الوصول إلى فراشي قبل أن يستقيظ أبي وأمي، ولكن الأهم من ذلك كله هو أنني لا أستطيع النوم؛ لأن توني قريب جداً مني، إنه ينام بقربي وأنا أفكر به كثيراً، ثم بعد لحظات غط توني في رقاد عميق، كان وجهه مقابل وجهي، كنت أشعر بأنفاسه وهي تخترق أنفاسي، ولكن بعد قليل أصبح تنفس توني مختلفاً تماماً عما كان، لم يكن تنفس توني هادئاً، وإنما كان أعمق وأثقل عما قبل، صار كما لو أنه يستنشق الهواء بصعوبة، بالكاد يحصل على الأوكسجين فأشحت بوجهي بحذر إلى الجهة الأخرى.

كان توني نائماً على جنب واحد، وجهه لوجهي واضعاً يده قرب فمه أما عيناه فكانتا على الرغم من أنهما مغمضتان إلا أن جفونه كانت تتحرك ويبدو عليه أنه يحلم وكان حاجبيه يعبسان بين حين وآخر ويخرج أصواتاً منخفضة مع تنفسه، وينطق بكلمات غير مفهومة، ظلّت يدي واقفة هناك معلقة في الهواء مترددة لا أعرف إذا كنت أستطيع لمسه أم لا، فقط أرغب أن أحركه، أن أضع يدي على رأسه، لكنني كنت أخشى أن أفعل ذلك، ما يخيفني هو أن يلمسني توني أو ألمسه إنه يؤثر بي بشكل كبير كان بلعومه يشتد ويهتز، كلما أخذ نَفَساً طويلاً يخرج الهواء مضطرباً من صدره كضيق النفس، وكان هواء تنفسه يتدفق كتيار دافئ على وجهي.

عندما وضعت يدي الرجولية على خد توني أمسك بها وهو نائم ووضعها على فمه الرجولي، وبدأ يتنفس شهيقاً وزفيراً ويخرج الهواء على يدي، لمست وجهه بلطف وداعبته بحذر وربّت على جبينه ولمست ذقنه وكانت لحيته نابتة حديثاً وضعت إبهامي على صدغه المشدود فارتخت

جفونه قليلاً، واسترخت رقبته، ثم استرخىٰ جسده كله، واستسلم ودخل في نوم عميق. كنا نائمين هناك هكذا.

حط طائر كبير علىٰ الشجرة أمامنا، كان قريباً جداً منا وسمعت خبطة أجنحته الثقيلة ورفرفتها من وراء زجاج نافذة السيارة، وعلا صوت تغريده عالياً أكثر فأكثر، وكان حيوان الغرير ذو القوائم القصيرة يحفر في الأرض ليسكن فيها، خنزير بري ينقب الأرض في طريقه مسبباً الفوضى في كل مكان، ظلام الليل بدأ يزرقّ ويبهت لونه، وجاء أول الصباح وكنت أشعر بخدود توني وهي في كفي ورطوبة أنفاسه الدافئة علىٰ بشرتي وجلدي، كانت عيوني مفتوحة علىٰ مصراعيها لم أغمضها ولا للحظة واحدة طوال الليل، وأنا أنظر إلىٰ توني في كل ثانية، وكل لحظة تمر كنت أشعر نومه بين كفي، ظل راقداً علىٰ راحة كفي إلىٰ أن بدأ الفجر بالطلوع ثم تحركت بهدوء بقدر ما استطعت وتسللت خارج السيارة ومشيت بصمت حتىٰ وصلت إلىٰ الشارع الإسفلتي ووقفت هناك لأوقف إحدىٰ السيارات وأطلب توصلية إلىٰ أقرب مكان.

كانت تلك الليلة من ليالي الصيف الحارة، الأرض لا تزال ساخنة من حرارة الشمس المرتفعة، كنا نقف هناك أنا وهوكن قرب حافة الغابة وأحضر توني معه سيارة وأنا أحضرت معي حقيبة الظهر المليئة بالعدّة والأدوات، كان هوكن يقف دون أن يفعل شيئاً، قال توني: نحن بحاجة إلىٰ ثلاثة أشخاص في هذه المغامرة عندما سمع هوكن هذه الجملة قفز قفزة سريعة إلىٰ فوق، حتىٰ ظننت أنه سيغني ويرقص ويصفق بيديه من الفرح، لكنه لم يفعل ذلك.

عندما ذهب توني ليحضر السيارة ووقفنا أنا وهوكن ننتظر كنت أحمل الأدوات الثقيلة علىٰ كتفي وأنا واقفة قرب هوكن لم نكلم بعضنا، لم يكن

هناك أي حوار يدور بيني وبين هوكن، تأخّر قدوم توني وبقينا واقفين، أنزلت الحقيبة من على ظهري ووضعتها على الأرض وتطلعت نحو الطريق الذي سيأتي منه، حيث ستظهر السيارة، كان هوكن يصفر بفمه، ثم التف بجسده نحو الغابة وفتح فتحة السروال الأمامية وتبول قرب جذع الشجرة نظرت إليه من طرف عيني ورأيت قضيبه الأبيض المجعد وكانت شمس المساء تنير بشعاعها نافورة بوله الطويل التي كانت تصل إلى جذع الشجرة القريبة، كانت حقيبة ظهري على الأرض قريبة جداً من أقدام هوكن فطالها البول وتبقعت وصار عليها بعض من قطرات بوله كنت أرغب أن أزيح حقيبتي إلى جنب، لكنني لم أفعل وتركتها؛ لأنني لم أرغب في أن أعلمه ببقع بوله على حقيبتي وأمنحه متعة النظر ليسخر ويستهزئ بي وهو يرى حقيبتي مليئة بتلك البقع المقرفة، كان هوكن يتبول ببطء وهو يتأرجح في وقفته بقدمين غير متوازنتين، وهكذا بدأ يتحدث بحماس مفاجئ وسريع دون مقدمات كما لو أنه أراد أن يلمِّحُ بشيءٍ يتعلق بتوني على عجل وقال:

– عندما مارس توني الجنس مع تلك الفتاة كانت تتأوه وتصدر أصواتاً فاضحة كأصوات ممثلات أفلام الجنس الإباحية وظلت تصرخ وتصرخ، أرادت أن يقذف توني داخل فمها، ثم أطلق توني السائل المنوي وقذفه في فمها وعلى وجهها وبعد انتهائه ارتدى توني سرواله، ثم أخرج من جيبه بضعة كرونات ولصقها على خدها المليء بالسائل المنوي وقال لها:

– خذي أيتها العاهرة اللعنة عليك! ثم تركها ورحل.

كان هوكن يحكي لي ما حدث مع توني ونبرات صوته مليئة بفخر غريب وعيناه تلمعان وهو ينظر إلى البول يخرج من قضيبه عندما انتهى من تبوله التفت إليَّ وسدد نظره في عيني وحملق في وجهي ساخراً، حاولت أن أتخيّل

كيف يبدو شكل توني مع الفتاة كيف يخرج النقود من جيبه ويلصقها بضربة خفيفة على خدها، لكنني لم أستطع أن أتصور ذلك، لم أتمكن أن أرى توني يقوم بذلك أو يفعل شيئاً كهذا، يبدو ذلك خلافاً لطبائع شخصيته كأن هذه القصة تتحدث عن شخص آخر إنها لا تصف توني ولا تمتّ إليه بصلة، إن هوكن ماكر، شعرت بأن كلامه هذا مبالغة فيه لم يكن توني بحاجة ليهين إنساناً ما وينزل من قيمته الإنسانية بهذا الشكل المريع، يكفي له أن يرمقها بنظراته القاسية الفولاذية ليشعرها بالإهانة كلا كلا كلا إن كلام هوكن كذب، كله كذب، إنه اخترع تلك الحكاية عن توني من نسج خياله لأن توني قائده وبطله الكبير وكي يعظم من صورته وشأنه اختلق هذه الحكاية. لم أقل شيئاً، ولم أظهر له أي رد فعل أو أي تعبير على وجهي كنت أقف وعيوني شاخصة وبصري على الطريق الذي سيأتي منه توني، هز هوكن قضيبه كي تنزل آخر نقطة من بوله، ثم أدخل قضيبه داخل السروال، والتفت إليّ مرة أخرى، كنت أشم رائحة البول الدافئ الذي سال على التراب على بعد خطوات مني وسألني هوكن:

- ماذا عنك يا كيم؟ هل سبق لك ومارست الجنس من قبل؟ أقصد مارست الجنس مع فتاة؟

التفت نحو هوكن رأيت عيونه الأشبه بعيون خنزير عطشى، وبها رغبة ملحة لمعرفة الجواب كما أنه لا يستطيع أن يخفي علامات الاستهزاء وابتسامته الساخرة التي تظهر على ملامحه، فكرت أنّ من المفترض أن أشعر بالخوف منه الآن أو بنوع من الذل لأنه يكرهني ربما لأنني تلميذ أو صبي توني الجديد المبتدئ الذي يتدرب تحت يده، وأعرف أنه يحمل سكيناً معه دائماً، ولكن ذلك لا ينفع معي، لم أفعل لم أستطع أن أخاف منه، كان هوكن

يبتسم كأنه اكتشف سري وأصبح لديه أخيراً حجة قوية يفضح بها أمري، لكنني شعرت فجأة بالأسف والشفقة عليه، وأنا أنظر إلى جسده الممتلئ الذي على وشك أن ينفجر من كثرة الدهون وأصابعه الخرقاء المرتبكة ودماغه الفارغ، والخالي من الخيال، سابقاً كانت له حظوة ومكانة عند توني، ولكن الآن أنا أخذت مكانه لقد تهدم عالمه الخاص مع توني، ولم يبق له شيء يذكر كنت على وشك أن أقول له نعم إنك على حق وإنني لم أمارس الجنس مع فتاة أبداً، ولكن سرعان ما سمعنا ضجيج محرك السيارة قادم من الطريق وتوقفت السيارة أمامنا، وتوني جالساً وراء المقود.

ذات ليلة ولأول مرة منذ فترة طويلة خلدت إلى النوم في وقت مبكر، كنت قد أمضيت عدة ليال متتالية سهراً مع توني وكنت أشعر بالنعاس الشديد ورغبة في النوم من شدة التعب والسهر، لكنني استيقظت فجأة مرة أخرى على صوت نزعة مفاجئة سريعة أصابتني برعشة في جسدي، سمعت في أذني الأنثوية أصواتاً مألوفة، أصواتاً أعرفها تغلغلت إلى مسامعي سرقت النوم من عيني وجعلتني أصحو وأسمع أصوات ضحكات وموسيقا آتية إلى مسامعي ناعمة ضعيفة في سكون الليل كما لو أنه صوت فأر يتحرك ويخربش تحت أوراق الأشجار الساقطة على الأرض، أزحت اللحاف عن جسدي وانسللت من السرير وسرت خلسة كي لا أوقظ والديّ، سمعت صوت غمغمة مكتومة تأتي من التلفزيون.

كان أبي وأمي قد خفضا صوت التلفزيون وجلسا في غرفة المعيشة يشاهدان التلفزيون، فتحت النافذة بهدوء دون أن أصدر أي صوت ورميت ببصطالي من الشباك إلى عشب الحديقة وتسللت عبر النافذة ودرجت بخفة إلى الحديقة وارتديت حذائي ورحت أمشي، كنت أسير بين

الرصيف وطرف طريق الدراجات الهوائية أتبع صوت رنين الضحكات وكنت اعلم من أين تأتي، ومن هم لكنني لا أرغب في تصديقها، وبقيت أمشي باتجاه الأصوات وكنت أتمنىٰ في داخلي كطفلة طيبة القلب والنيّة أن أكون علىٰ خطأ وأنّ الأصوات قد تكون شيئاً آخر خلاف ما أظن.

كانت مومو وبيلا جالستين خارج بيت مزهر الورود، تجولت بنظري وأنا أطوف حول أجسادهن الأنثوية، كانت أجسامهن تفيض حيوية وتشع ضياءً مع أضواء الشوارع الصفراء الخفيفة، وانعكاس المرايا، كانت علب المكياج أمامهن وعلىٰ وجوههن المقنعة يظهر مسحوق البودرا وشفاههن مطلية بأحمر الشفاه وهنالك الرموش السوداء جميلة وعلىٰ خدودهن مستحضر تجميل الخدود الأحمر، كانت مومو واقفة خلف بيلا تجدّل لها شعرها الأحمر الطويل لقد مشطته بالفرشاة وضفرته بين أصابعها وربطته بحباسة، كانت بيلا تحمل مرآة أمام وجهها تغير ملامحها، وتنظر إلىٰ شكلها بالمرآة فتتباهىٰ وتتغزل وترسم مختلف الملامح والأشكال علىٰ وجهها الملون بالمكياج كأنها تحاول أن تكتشف أشكال وجهها وتعابيره المختلفة، كان لديهم حفلة تنكرية إنها لعبة مومو وبيلا.

إن أصواتهن كانت مثل الشرارة المشتعلة، لقد حلّقت باتجاهي وجعلتني مسرورة مولعة مرة أخرىٰ، كانت بوابة مزهر الورود مفتوحة وهناك في الداخل كانت الزهرة العجيبة تومئ برأسها، لكنها لم تهبني نظرة واحدة كأن الصورة الجديدة التي في المرآة أخفت الصور القديمة وأزاحتها عن وجه الأرض، وحلّت محلها أقنعة الوجه الجديدة.

كنت أقف هناك في الجهة الأخرىٰ من الحديقة بعد سياج شجيرات الصنوبر الصغيرة وكان الظلام كثيفاً وبدا ظلي من بين الظلام والضوء

وخيالي الأسود على أرضية الشارع كالأحجية غير المفهومة أمام عيني، كنت أنظر إلى وجوههن الملونة، وأنظر إلى الحدود الفاصلة التي أصبحت بيننا، والتي لا يمكن التغلب عليها ومن غير المقبول تجاوزها ثم انتابني شعور بالحزن، وانهال عليّ اكتئاب ثقيل، كانت هناك ألعاب لعبناها معاً وأجسادنا توحدت في كل شيء، ضاع ذلك الآن وفقد معناه بالنسبة لي، أنا من تخلّى عن ذلك كله، شعرت بألم شديد يجتاحني ويوجعني وانتابتني رغبة مفاجئة في أن أنضمّ إليهن، ولكن ليس بتلك الوجوه التي يظهرن بها، فأنا لا أستطيع أن أكون فتاة الآن، لا أستطيع أن ألعب هذه اللعبة معهن إطلاقاً، فليس بوسعي أن أسير معهن في ألعابهن أو اتجاهاتهن...

كنا نركض لاهثين أنا وتوني عبر الغابة وأنا أحمل الأدوات في الحقيبة على ظهري إذ بصوت جرس الإنذار يدوي خلفنا ونحن نركض ولم يبق أمامنا سوى خطوات قليلة وننجو مرة أخرى، ولا ندع الشرطة تمسك بنا، لقد اندهشت من نفسي كيف تفوقت على كل التوقعات عندما أطفأت جرس الإنذار ودخلت إلى المخزن وأخذت الأغراض، ثم خرجت مسرعة خلال أقل من دقيقة، وكان توني قد تسلّق فوق السياج وصعد قبلي وساعدني كي أخرج عبر فتحة ضيقة في السياج وعندما سقطت على الأرض انتشلتني ذراع توني بحرص وحذر، وشعرت بيديه وهي تمسك بي بلطف ليساعدني على النهوض، وأوقفني على قدمي، ثم أعطاني دفعة خفيفة على ظهري كي أواصل الجري ورحنا نركض معاً.

كان توني يركض أمامي والحقيبة على ظهره وقد بدا مظهره أمامي كأنه رجل عجوز منحنِ الظهر ذو حدبة كبيرة بشعة وكنا نركض ونركض وندعس بأرجلنا الأعشاب والأغصان ودبابيس شجرة الصنوبر وبقع

المياه، وكان كل شيء يتطاير حول أقدامنا، فلا أجد أي صعوبة في اللحاق بتوني، فقد كنت أركض قريبة منه خلفه تماماً وكنت أسمع دوي أقدامه وهي تضرب أرض الغابة، وكنت أسمع صوت أنفاسه ولهاثه الثقيل أمامي، كنت أعلم أنه يبتسم وصدره مليء بالحماس والحيوية وهو يركض، أسرعت بخطواتي أسرع وأسرع كي أركض إلى جانبه، لكن تشابكت أقدامنا وتعثرت مع بعضها فسقطنا على الأرض معاً وانقلبنا وتدحرجنا وكنا أشبه بدبّين اثنين يحضنان بعضهما يدوران ويلفان ويتدحرجان ويتمايلان حول بعضهم البعض على أرضية العشب الخضراء، كان وجه توني قريب جداً من وجهي وسال لعابه على خدودي وأصبح ريقه كالمطر يرش المياه على وجهي، كنا نصرخ ونضحك بصوت عال من الألم والمرح، ثم توقفنا عن الدوران ونحن مستلقون على العشب.

وانتهى بنا الحال أنا تحت توني تماماً، كان توني مستلقياً فوقي، كان جسداً ثقيلاً قوياً وأنفاسه سريعة، كانت ساقاه مقفولة بعنف على وركي وذراعه تمسك بخصري وهو في مزاج متهيج، شعرت بقضيبه المنتصب صلباً ثابتاً على فخذي، كان وزن توني ثقيلاً ولم أستطع أن أحرك جسدي وبقيت مستلقية تحته، نظرت إلى وجه توني رأيت شدّة الاندهاش والتعجب في عينيه، كان يعلم بأني أعرف بانتصاب قضيبه وأشعر بنبضه فوقي، كان يعلم أنني أشعر بقضيبه فوق أفخاذي يشتهيني، كان بإمكان هذه اللحظة أن تكون مدخلاً لحدث جديد في علاقتنا، كان يمكن أن نطلق هنا في منتصف هذه الغابة المظلمة، وعلى هذه الأرض الطرية المليئة بالأعشاب بدايةً جديدةً لعلاقتنا، كنت قادرة على أن آخذ رأس توني وأحضنه بين ذراعي وأقوم بتقبيل فمه بشفتي الصبيانية، كان يمكن أن أفعل ذلك، كنت أود أن

أهمس في أذنه وأقول له يمكننا أن نحب وأن نقيم علاقة حميمة بيننا وأن لا نخشى أحداً، كان بإمكاني أن أحضن جسده بذراعي وأمسك به مسكة قوية كالمصارعين، وأقول له هذا الكلام مراراً وتكراراً إلى أن يستوعب:

- هناك حب بيننا يا توني هناك كمية هائلة من الحب في داخلي أود أن أقدمها لك، دعني أمنحك هذا الحب، إنك تبحث عن الموت، ولكنك في الحقيقة تبحث عن الحب أنت بحاجة إلى الحب فقط، هذا ما تحتاج إليه وهو موجود عندي أعلم أنك تحبني، لقد رأيت هذا في عينيك، لسنا مضطرين للتصنّع والتهرّب بعد الآن، لا يوجد هناك شيء نخشى منه كل محبة العالم موجود في داخلي أنا أملك الكثير من الحب لك يا توني!.

كان عليَّ أن أبقيه وأتمسك به وأحضنه تلك الليلة لأجعله يستكشف جسدي الصبياني كان عليَّ أن أجبره على البقاء معي فترة أطول كي يرى جسدي الآخر أن يراه جيداً يتعرف عليه بما يكفي، لكنني لم أفعل شيئاً، ولم يحدث أي شيء جديد على أرض الواقع لتطوير علاقتنا، كان ذلك كله في خيالي وتصوراتي فقط، قفز توني مسرعاً من فوقي كأنه أحس بنيراني فاحترق، وقف يعدل ملابسه مرتبكاً ويتحسس قميصه الملتف حول صدره، كان توني متأثراً بشكل عجيب وارتسم على محياه ملامح فزع غريب مثل حيوان شم رائحة أنثاه واستكشفها فشعر بالتهيّج والشبق الجنسي، راح توني يركض ويركض بخطوات طويلة ومسرعة واستمر يركض وبمساعدة يديه القويتين بدأ يركض بقوة أكبر كما لو أنه أراد أن يهرب بعيداً عن نفسه.

كانت لحظات قصيرة إلا أنها ساحرة ومؤثرة بعمق، إنها فرصة ذهبية لحدوث شيء بيني وبين توني، لكنها ضاعت ذهبت أدراج الرياح دون حدوث أي شيء، بعد ذلك نهضت من الأرض ونفضت ملابسي، كان

بنطلـوني مبلـولاً مـن الخلـف بـسبب العـشب النـدي ورطوبـة الأرض، وشعرت بأن قضيبي انكمش وتقلص من شـدة الـبرودة، إن بـرودة الغابـة ورطوبة العـشب ذهبـت بـالحرارة والـدفء الـذي كنـت أشـعر بهـما قبـل لحظات، ثم بدأت أركض خلف توني وواصـلت ركـضي وبقيـت أركـض بأقصى سرعتي، وأضرب الأرض بقدمي، وكدت أطير مـن شـدة سرعتـي الخارقة إلى أن لحقت بتوني وسبقته بخطوات.

لم يعد توني ينظر في عيوني بعد تلـك الليلـة، عنـدما أتيـت لرؤيتـه ألقـى التحية عليَّ لكن دون أن ينظـر إلى عينـي كعادتـه وأومـأ برأسـه فقـط، وهـو يتطلع إلى فوق رأسي أو ينظر إلى أبعد، إلى مستوى مستقيم مباشر من خـلالي لم يعد توني ينظر إليَّ بعـد الآن ومـن دون نظراتـه كنـت أشـعر بـأنني أنهـار، أتحطم، وبدأت أخفق في عملي معه عندما كنا نحاول سرقة أحد المخازن كان جرس الإنذار على وشك الانطلاق وكـلاب الحراسـة بـدأت تقـترب منـي وارتفع نباحها عاليـاً وخـرج تـوني مـسرعاً إلى الخـارج، لكننـي تجمـدت في مكاني، أنزلت ذراعي ووقفت هناك، وأنا أحمل المسروقات في يدي لا أتحـرك كما لو أن كل شيء تجمد في داخلي، قلبـي توقـف لم يعـد ينـبض في صـدري، أقفلت ذهنياً، وانتشر القلق في نفسي وشعرت بإحساس غير مريح، ثـم عـاد توني إليَّ وبدأ يجرجرني من ذراعي ويـشد وسـحبني إلى خـارج المخـزن، ثـم أدخلني عبر فتحة عالية موجودة على السياج كي لا تمسك بي الكلاب.

عندما عدت سيراً إلى البيت كان الفجر على وشك البزوغ وخيوط الشمس تلوح في الأفق، كنت أمشي وأشعر بألم حـول معـصمي وكـان هنـاك علامـات زرقاء على ذراعي، مِنّ آثار قبضة توني وضربته القوية. عنـدما نجونـا وابتعـدنا عن المخزن والكلاب وأجهـزة الإنـذار ووصـلنا إلى الغابـة، كنـا في أمـان بـين

الأشجار فضربني توني على خدي بقوة أطاحت برأسي وطرحني جانباً فشعرت كأنني لمحت النجوم تطفر وتتناثر من بين أجفاني، كنت أستمع إلى أصوات الكلاب، وهي تحاول شمَّ رائحتنا هناك خلف السياج فأغمضت عيني بعد الضربة وأنا أستمع إلى صوت توني كأنه يبرد آلامي ويشفي أوجاعي:

- كان يفترض بي أتركَكَ إلى الكلاب تمسك بك!.

لم أرد عليه ووضعت كفي الباردة على خدي المتألِّم فشعرت ببرودة بشرتي المحترقة من حرارة الضربة.

كنت أسيرُ بين البيوت المجاورة لبيتنا في طريقي إلى المنزل ورأيت شباك نافذتي لايزال مفتوحاً، كما تركته إن هذه هي المرة الأولى منذ فترة طويلة التي أتحرّق فيها شوقاً لغرفتي الأنثويّة وأحن إلى فراشي، فراش الفتاة، كانت تنتابني رغبة قوية للاختباء في غرفتي الأنثويّة، أن أخبئ نفسي وأخفي جسدي، جسد الفتى الرجولي خلف جسدي الأنثوي، البنّاتي، كان جسدي الرجولي غير كافٍ هذه المرة لأفتخر به، بل كان مليئاً بالعار والفشل، إنه جسد فاشل غير كاف للمهمات والأمور الرجالية، كنت أشعر بهذه الأحاسيس عند وصولي إلى نافذتي، رفعت شباك النافذة إلى الأعلى، وأنا أنظر إلى نوافذ الجيران النائمين، رأيت شباكاً واحداً تضيء أنواره، إنها نافذة غرفة مومو، ورأيت ظل مومو من وراء الشباك واقفة منشغلة بشيء ما على طاولة الخياطة لكنها لم تلاحظ وجودي، رفعتُ الشباك ودخلت إلى غرفتي عبر النافذة.

تدفّق تعب ثقيل إلى جميع أنحاء جسدي وشعرت بإرهاق شديد وأنا أخلع ملابسي، زحفت إلى السرير وأدخلت نفسي تحت اللحاف الذي غطى جسدي حتى صرت محاطة بالعتمة والظلام من كل مكان، انطويت على نفسي وحضنت الظلام وجعلته يحضنني ونمت.

بعد أقل من مرور دقيقة بالكاد كنت على وشك النوم، سمعت طرقاً على النافذة نظرت بحذر إلى النافذة وعبر أضواء الشارع الخارجية، التي تتسرب إلى غرفتي فرأيت مومو واقفة في الخارج حافية القدمين مرتدية قميص نوم وعليه معطف فقط، سحبت الغطاء وغطيت جسمي الصبياني؛ كي لا تراه مومو، واستلقيت جامدة في مكاني بصمت وهدوء بصورة ساكنة كي تظهر الغرفة فارغة على أمل أن تعتقد مومو أنني غير موجودة أو ربما أكون غاطّة في رقاد عميق، لكنها أصرّت على طرق نافذتي بصوت أعلى وأعلى وظلت تطرق وتطرق كأنها تعرف أنني موجودة، لفيت حول جسدي اللحاف، وأنا أفتح لها النافذة، وحاولت بكل جهدي أن أُبقي وجهي مخبأً في الظل كي لا ترى مومو وجهي الرجولي:

- كفّي عن الطرق ستوقظين والديّ!

تسلقت مومو إلى غرفتي عبر النافذة دون أن تقول كلمة واحدة ودخلت الغرفة وسارت تتخبط في الظلام وأنارت مصباح السرير وأضاءت الغرفة، أغمضت عيني بسرعة فائقة؛ لأنني كنت لا أتحمّل الضوء المفاجئ، ولا حتى نظرات مومو وهي تنظر إلى وجهي الصبياني، ولكن وجدت أنه لم يظهر عليها أي استغراب عندما فتحت عيوني، نظرت إلى مومو وقالت لي:

- يبدو شكلك متعباً جداً!

وضعت يدي على وجهي لا إرادياً دون تفكير، ثم وضعتها على فمي كأنني أحاول أن أخفي أكاذيبي إلا أن مومو نظرت إلى يدي ولاحظت معصمي المتورم المنتفخ، وعليه كدمات زرقاء وحمراء، وقالت وهي مقطوعة النفس:

- ماذا فعل بك؟!

أدخلت ذراعي تحت اللحاف وقلت:

- سيختفي الجرح وأشفى منه عندما أستيقظ!

ابتسمت مومو وقالت بسخرية واستهزاء:

- يا للروعة كي يتسنى لتوني في المرة القادمة أن يؤذيك أكثر، وسيتمكن في المرة المقبلة أن يؤذيك بالمزيد والمزيد لا يجب أن يقوم بتدميرك أكثر وأكثر!

قالت مومو وتنهدت بقلق واقتربت من سريري وجلست على فراشي، ثم زحفت إلى جواري، جفل جسدي وصعقت عندما اقترب جسدها مني أحسست بشيء غريب كما لو أن ذكرى لشيء ما كنت قد تركتها ورائي فترة طويلة ولم أتزحزح إلى الجانب بل بقيت في مكاني، ولم أبعد جسدي عنها، بل كنت موافقاً وسمحت ليدها الناعمة أن تأخذ يدي الصبيانية وتمسك بها:

- أنت تخيفيني يا كيم! أنت على وشك أن تصبح شيئاً مروعاً لا أعرف ما هو، ستكون شيئاً ممزقاً غير كامل، أنت في طريقك إلى الانهيار، إنه يقوم بتكسيرك وتحطيمك، أنت تحطمين نفسك بنفسك، وسوف تحطمينا نحن الثلاث إذا لم تنهِ علاقتك معه وتتوقفي الآن فستنتهي علاقتنا وتتكسر يا كيم ولن نعود أصدقاء.

قالت مومو، ثم عضت شفتها السفلى.

- أنا قلقة على بيلا، فهي طوال النهار ممسكة بسماعة الهاتف تجري مكالمات دولية بمعاهد علم النباتات وتبقى واقفة على الخط في لائحة طويلة من المتصلين لساعات طوال، وفي الليالي تجلس أمام جهاز الكومبيوتر تبحث عن معاهد أخرى للنباتات، كنت هناك ليلة أمس، كان شكلها يبدو أشبه

بجثة كأنها ميتة، عندما فتحت لي الباب، وقالت لي ليس لديها وقت لتراني وغمغمت وتمتمت عبارات حول دعم الحياة، وأنه يجب عليها اتخاذ إجراءات، وعن الجينات والتلقيحات الوقائية، وكان صوتها غريباً ومختلفاً:

كيم لقد تغيرت بيلا وأصبحت شخص آخر مختلف تماماً لا أعرفه.

رفعت نظري من اللحاف دون رغبة وقلت:

- هل تعلم بيلا أنني لازلت أذهب إلى الوردة هناك وآخذ جرعات من سائلها؟

ضحكت مومو وقالت:

- بالطبع تعرف! ماذا تعتقدين؟ إنها تأتي إلى هنا كل ليلة بعد منتصف الليل تبحث عنك تنظر من خلال النافذة إلى فراشك ترى فيما إذا كنت هنا أم لا، عندما تجد فراشك فارغاً تعود إلى مزهر الورود تقضي ما تبقى من الليل إلى الصباح وهي تحاول أن ترعى الزهرة وتهتم بها وتطبب جراحها قدر ما تستطيع.

تخيلت بيلا أمامي ورأيتها كيف تتسلل بخفة إلى مزهر الورود، وكيف تدور هناك حول رأس الزهرة تهتم بها وتراعيها وتهدهدها كالأم حين تهدهد طفلها المريض ليستكين؛ ورأيت أيضاً كيف تأتي إلى نافذتي وتطل من خلف شباكي لتراقبني وأنا نائمة، وكيف ترى وجهي الصبياني على حقيقته دون غطاء أو وقاية أو احتراس.

كانت مومو لا تزال جالسة إلى جانبي على الفراش وتمسك يدها بيدي.

- إن بيلا تفعل ذلك؛ لأنها تتحرق شوقاً إليك وأنا أيضاً.!

أردت أن أبعد عيوني ونظراتي عن مومو، لكنني لم أستطع، كانت نظراتها تشدني كأنها أمسكت بي فأقفلت عيوني على عيونها.

- أريدك هنا يا كيم، عندي، يجب أن أسترجعك إليَّ مرة أخرىٰ.!

كان شيء من الخوف يلمع ويتلألأ في عيني مومو فارتبكت وأمسكت وتحسست بيدي الذكورية راحة يدها فلم تمانع ورأيت كيف اشتد فمها وتوترت شفتاها، ولم تنسحب جانباً، بل لا زالت لا تمانع، سمحت لي بذلك، تشبثت بها، انحبس الدم بين أصابعي، وأخيراً حصلت عليها وانفجرت في بكاء شديد وهطلت دموعي بغزارة وانطمس وجه مومو وأصبح مضبباً غير واضح أمامي من كثرة الدموع ودوّت في صدغي ففقدت السيطرة علىٰ جسدي وسقطت كالفريسة علىٰ كتف مومو وأنا أبكي فأحاطتني بذراعيها، ولفّت يديها حول صدري وهي تهدهدني وتهمس في أذني:

- سيكون كل شيء علىٰ ما يرام بطريقة أو بأخرىٰ ستكون الأمور جيدة!

وأخذت وجهي بين يديها ومسحت دموعي من علىٰ خدودي، ثم وضعت فمها علىٰ فمي كانت شفتاها رقيقتين ممتعتين فتحت فمي أنا أيضاً واقتربت إليها أكثر كنت أرغب في أن أكون بالقرب من جسدها الساخن الدافئ الذي يفيض قوة ويشع حيوية وحياة، انسلّت مومو إلىٰ فراشي واستلقت إلىٰ جانبي وأصبحنا قريبن جداً من بعضنا ثم أدخلت مومو يديها تحت غطاء اللحاف وأدخلت يدي تحت قميص نومها، وراحت تداعب جسدها، كنا نلامس بعضنا بقوة ورقّة وكنا متلاصقتين وكانت أصابع مومو تنغرز في جلدي وتبادلنا القبلات، وبكينا معاً، وتركنا أجسادنا تمسك ببعض، ولفت مومو ساقيها حول خصري، وانزلقت يدي بين ساقيها والىٰ الداخل، فوجئت عندما شعرت بفرجها، كان مبلولاً ورطباً، عندها تنهدت وتحسرت عليها بعمق فأدخلت قضيبي في فرجها وشعرت بمومو في داخلي،

كنت أشعر بها في كل مكان حولي، كان فمها بالقرب من أذني، وجاء صوتها يهمس لاهثاً، وشعرت به كصعقة تيار كهربائي تسري عبر جسدي:

- ابق معي لا تفعلها مرة أخرىٰ لا تذهب إليه بعد الآن أبداً!

ثم خطرت علىٰ بالي فجأة صورة توني ورأيت عيونه تومض أمام عينيّ ورأيت يدي وجسدي مستلقياً تحت جسده هناك في الغابة، ثم فجأة شعرت بقضيبي ينكمش ويتقلص وخرج من داخل مومو واستلقىٰ علىٰ أفخاذي وبدا صغيراً ومبلولاً ومتجعلكاً، لم أتحرك من مكاني، وبقيت مستلقياً علىٰ الفراش هادئاً أمسّد علىٰ شعر مومو فقط بيدي الذكورية في محاولة حمقاء لمواساتها رفعت مومو جسدها، واستندت علىٰ كوعها، وهي تحاول أن تبتسم وقالت:

- ما كان هذا؟

أغمضت عينيَّ هرباً وكنت أتمنىٰ أن يكون المصباح مطفأً كي أتفادىٰ نظرات مومو وترىٰ الكذب علىٰ وجهي:

- أنا متعب فقط! أشعر بتعب شديد!.

لم تقل مومو شيئاً ظلت صامتة لحظات، ثم سحبت غطاء اللحاف وغطتنا به وقالت:

- سأنام هنا هذه الليلة، سأقول إنني نسيت مفتاح البيت هناك في الداخل ولم أستطع العودة!.

أومأت برأسي بهدوء وعيناي لا تزال مغمضتين، أدارت مومو جسدها وأعطت ظهرها لي ووضعت ذراعي حول خصرها ولم أنم، بل بقيت مستيقظاً فترة طويلة، وأنا أفكر في خصر مومو وملمس بشرتها الناعم الرقيق وكنت لا أرغب في أن أزيح كفي عنها، لكنني رفعت ذراعي بحذر عندما

شعرت بنَفَسها أصبح عميقاً، وبعد أن تأكدت من أنها غطّت في نوم عميق نمت أنا أيضاً وعندما استيقظت في صباح اليوم التالي لم أجد مومو بقربي.

بقيت في غرفتي البناتية، غرفة الفتاة بضع ليالٍ متتالية لم أخرج منها، كنت أشعر بالضيق والاختناق كلما يأتي الغروب ولا أعرف إلى أين أذهب، وأدرك أنه لم يعد هناك جسد واحد يناسبني وعندما يأتي الفجر وتشرق الشمس تندفع إلى رأسي موجة من الصحو وأشعر بالاستيقاظ بسرعة وأصحو من أحلامي وأوهامي دفعة واحدة في تلك الساعات المبكرة، كنت أنظر من حولي إلى ملامح الغرفة فأرى ألوانها مغبرة باهتة، وكنت أشعر بألم في بطني، ألم حاد أيقظني من نومي وكان الوجع يأتي من أسفل بطني تحت الصرّة مباشرة كان يأتي على شكل وخزات صغيرة مؤلمة إنه ألم جديد، ولكنه مألوف أيضاً.

طرت قافزة من فراشي ووقفت على سريري، شعرت بأضواء نجوم تتراقص منبثقة أمام عيوني، واندفع الدم ينزل إلى أسفل جسدي، كانت أضواء حمام منزلنا البيضاء تضيء بقوة صارخة، سمعت من الطابق العلوي صوت أحد والديّ وهو يتقلب بثقل على فراشه، انحنيت وجلست على أرضية الحمام الباردة ووضعت يدي بين الساقين، كان هناك سائل يشكّل مزيجاً مخاطياً باللون البني والأسود التصق بين أصابعي فأخذت قطعة من ورق التواليت ومسحته وفركت بيدي بقوة فامتلأ الورق ببقع لزجة وكتل بلون الصدأ.

إنها علامة تطور حتمي لا مفر منه، خرجت حافية القدمين إلى خارج المنزل ركضت على إسفلت الرصيف، امتصت الأغصان المرسومة على رداء النوم الصدأ الأحمر، وكنت أشعر الألم الحاد في بطني يقطع أوصالي ويضربني في كل خطوة أخطوها على الرصيف فقد كانت الأحجار الصغيرة والتراب يتوغل ويحفر باطن قدمي، وكانت الشمس وهي على وشك الشروق يحجبها

بعض الغيوم في السماء وكنت أركض ويدي تضغط بقوة على بطني لأخفف ألمي، وكانت دموعي تتساقط بغزارة وملوحتها تحرق خدودي.

كنت لا أرى شيئاً غير أرض الرصيف التي أركض عليها، والشمسَ التي ترسل أشعتها الدافئة عبر نوافذ بيت مزهر الورود، وجدرانه الزجاجية في ذلك الصباح الرمادي، كانت جدران بيت مزهر الورود الزجاجية تضيء وتشع باللون الأصفر المائل إلى الاحمرار "البرتقالي" وتفيض إشراقاً في كامل المكان المبلل الرطب تماماً، دخلت إلى المزهر، وعندما اقتربت من الزهرة العجيبة رأيتها منهكة أومأت برأسها المنحني إلى الأسفل، كانت في غاية التعب والإرهاق في حالة احتضار تنتظر الموت، مما جعلني أبكي وأنوح بصوت عالٍ، نظرت إلى أغصان الزهرة وأوراقها المتجهة إلى الأرض، يبدو أنها أصبحت بشكل أصغر منكمش، وقد أصابها إعياء شديد.

حركت الزهرة رأسها تحاول رفعه إلى الأعلى لتنظر إلى وجهي أمسكت برأسها وأخذته بين يدي ورفعت فتحتها أمام وجهي، كانت بلا طاقة ولا قوة لا تقوى على حمل نفسها فرفعت ثقلها في يدي، ومن دون أن تلاحظ أدخلت يدي في جوفها ووخزت بظفري أحد أكياسها المليئة بالسائل، أحست الزهرة برعشة صغيرة، وانتفضت قليلاً ثم بدأت أمسد عليها بكفي الأخرى بينما السائل ظلّ يسيل على أصبعي وهمست بأذنها:

- سامحيني أيتها الزهرة سامحيني لأنني لا أستطيع العيش بدون هذا السائل يجب أن أشرب هذا السائل وأتحول إلى ذكر وإلا فإنني لا أستطيع الاستمرار بالعيش!.

كنت أتحرق شوقاً لأتحول إلى صبي ولم أحتمل الصبر أكثر فأفرغت كل السائل الذي في جوف الزهرة على أصبعي ثم أدخلت أصبعي كله في فمي

وامتصيت بنهم وشراهة السائل حتى شربته كله، ولكنه لم يكن كافياً ليجعلني أتحول إلى صبي كان جسدي يصرخ كله راغباً في المزيد من السائل أكثر وأكثر فوخزت كيساً آخر، ثم آخر، ثم آخر وامتصيت حلاوته إلى أن شعرت بذلك الشعور المألوف الذي يشبه صعقة كهربائية تسري في جسدي، ظلت تدور في داخلي وعلمت حينها أنني تحولت إلى ذكر ولم أكن بحاجة إلى مرآة كي أتأكد من ذلك؛ لأنني كنت أشعر بذلك التحوّل والرعشة، كانت تسري في كل خلية داخل جسدي، ثم راحت يدي إلى الأسفل تبحث بشوق وحماس بين أفخاذي فوجدت قضيبي والخصيتين هناك، ولم يكن هناك ثقب يخرُج منه دماء صدئة، انحنيت إلى الأسفل جلست القرفصاء ووضعت يدي الصبيانية حول رأس الزهرة وهدهدتها وجسدي يهتز ويتأرجح إلى الأمام والخلف فقد كنت أشعر بتأنيب ضمير يقرع ويدق بعنف من خلال جفوني، فتحت عيوني بالكامل، ورأيت صورتي يعكسها زجاج النافذة، تأملتها جيداً، فوجدت وجهاً صبيانياً بنظرة فارغة لم يعد فيها أي لمعان ولا شرارة لتبرق وتتلألأ.

كانت حرارة الشمس تلسعني، شعرت بضيق عندما استيقظت ووقفت بصمت وهدوء، هناك شيء يشدني من الأسفل كان الدم جافاً لاصقاً بين ساقي، تحسسته ولمسته بيدي، كان يبدو كالدبق القذر، لم أعد أنزف، كان تدفق الدم قد توقف، سمعت صوت محرك سيارة يشتغل في الشارع وأصوات أطفالٍ يلعبون في الخارج على الرصيف، كنت أرتدي بيجامة وأنا لا أزال داخل بيت مزهر الورود، كان شعري مبلولاً من شدة التعرّق وقدماي حافيتين مسودتين من التراب وشدة الوسخ.

وضعت جبهتي على زجاج مزهر الورود، وأنا أضحك بيأس فقد كان شيئاً أشبه بالجنون، كان كله عملاً متهوراً وفكرة حمقاء أن آتي إلى هنا، مر

وقت طويل، وأنا داخل هذا الجو الخانق، إنه أشبه بدهر إلى أن ظهرت بيلا في بيت مزهر الورود، كانت بيلا قادمة من المنزل من غرفتها في الطابق العلوي تجر بأقدامها مرتدية قفازات في كفوفها تسير نحو مزهر الورود عندما دفعت الباب بيلا، ودخلت إلى بيت مزهر الورود فزعت قليلاً من رؤيتي، ولكنها لم تهتم بي وأزاحتني جانباً، واتجهت نحو الزهرة واضعة جلَّ اهتمامها وتركيزها عليها، انحنت بيلا على الزهرة، وكان النعاس لا يزال في عيونها، وضعت يدها على جبينها بقلق وقالت:

- كم عدد الأكياس التي وخزتها من الزهرة؟

لم أرد على سؤالها، نظرت بيلا إلى داخل الزهرة وعندما رأت جميع أكياس الرحيق فارغة تنهدت حسرةً طويلة، ثم أمسكت ذراعي بقوة وأخرجتني من البيت الزجاجي، ودفعت بي خارج البوابة، تعثرت أقدامي، وكدت على وشك السقوط عندما ترنّحت على أرضية الإسمنت، لكنني استطعت أن أتوازن، وبقيت واقفة، بينما عادت بيلا إلى الزهرة لتتفقد وضعها وتطببها. قامت بيلا بعمل مزيج وخلطت الماء مع مغذي الزرع في قنينة ذات رشاش، وبدأت ترش بحرص وحذر على تربة الزهرة وأغصانها وبتلاتها، وعندما انتهت وخرجت من البيت الزجاجي دفعتني بضربة قوية على ظهري أمامها نحو المنزل وسرت أمام بيلا ورأسي منحن إلى الأرض، كانت عيون بيلا حمراء تلمع غضباً.

اغتسلت في حمام بيلا وفركت السواد الذي على أقدامي، وحاولت أن أنظف ساقي، لكن بقي هناك بقع عالقة وبعض من آثار التراب واختراقات الحصى على كاحل قدمي.

فتحت بيلا باب الحمام مباشرة دون أن تدق أو تستأذن فتحته فقط ورمت لي بملابس من ملابسها النظيفة لأرتديها، ثم خرجت مرة أخرى وأغلقت باب الحمام قبل أن أتمكن من شكرها، عندما خرجت كانت بيلا تجلس هناك عند طاولة المطبخ اتجهت نحوها. كانت ملابس بيلا واسعة جداً على جسمي فطويت السروال تحت الحزام، كان السروال يصدر خشخشة القماش، وأنا أسير باتجاه المطبخ، جلست على الكرسي المقابل أمام بيلا، ورفعت إحدى قدمي ووضعتها على المقعد وقلت:

- كيف حال الزهرة الآن؟

كان الغضب لا يزال يتطاير من عيني بيلا، ولكنه بدا أخفَّ؛ وذلك لأنها غدت أكثر استسلاماً الآن.

- ما زالت تعيش.

أسندت بيلا يدها على جبينها وقالت بحدة أقل:

- كدت على وشك أن تقتلها، إنك تسلب كل طاقتها، تفرغ قوتها وتحرمها منها، ولم تبالِ قيد أنملة بما تفعله ما دمت تحصل على الرعشات الخاصة بك.!

كانت عضلات وجه بيلا تهتز وفمها مشدود وخصلات شعرها الأحمر المجعدة تتمايل، وهي تكلمني وتحرك رأسها غير راضية عن أفعالي:

- يكفي هذا يا كيم يكفي، لم يعد لدي طاقة بعد الآن، يجب عليك أن تتوقفي!

نظرت إلى وجه بيلا، ومن ثم إلى نهودها الطرية التي تظهر من تحت قميصها إنها على وشك أن تصبح امرأة، ستنمو بيلا وتعيش في جسد امرأة،

كيف لها أن ترغب بهذا الشيء؟! كيف لها أن تختار ذلك؟ لا أستطيع أن أفهم، رفعت حاجبها وهي تحدق في وجهي وآثار الدهشة على عينيها:

- هل سمعت ما قلته لك؟

قبضت على راحة يدي بقوة وشعرت بأظافرها كالمسامير تخترق كفي:

- إنك تضيعين حياتك يا بيلا.

ضحكت بيلا باستهزاء وقالت ساخرة:

- أنا؟ أنا من يضيع حياته، أم........؟

ولكني لم أدعها تكمل كلامها نهضت من مقعدي وصرخت في وجهها:

- هل نسيت كيف كانت حالنا وما كنا عليه؟ هل نسيت ما كان الصبيان يفعلون بالناس أمثالنا في المدرسة؟ هل نسيت ذلك أم لا؟ إن الحال لن يتغير أبداً مهما كبرنا في السن مادامت أشكالنا باقية هكذا!

ثم رفعت ذراعي الاثنين إلى الأعلى وأظهرت جسدي الأنثوي ووضعت يدي الاثنين فوقه وبقيت واقفة، وظلت بيلا جالسة ساكتة للحظات قصيرة، كان كتاب عالم النباتات مفتوحاً أمامها على الطاولة، وبدأت تتحسس صور الأزهار، وتتلمس النباتات المختلفة وتمرر أصابعها ببطء على الجذور والأغصان والورود الملونة إلى أن أجابت في النهاية:

- لا لم أنس!

ثم نظرت إليَّ قالت:

- لكنني لن أحتقر نفسي فقط من أجل مجموعة صبيان بائسين احتقروني، لا لن أدعهم ينتصرون!

أغمضت عيني ونظرت من خلف الجفون، نظرت إلى نفسي عبر أرضية المطبخ التي أقف عليها وبدأت أرى من خلال عيون بيلا كيف يمكن لها أن تراني أو ترى الأشياء، ألقيت نظرة شاملة سريعة لصور منظورها، استوعبت أن بيلا لا يمكن لها أن تفهمني إطلاقاً، وذلك أنه لا يمكن لها أن ترى ما لم يكن مرئياً من أعماقي وباطني، ولم أقل لها شيئاً عما أشعر به، كما وأنه ليس لديها التبصر لتتفهم أنها تراني خارجياً فقط، لذا لا يمكن لبيلا أن تتفهم أن كيم لم يعد لها وجود، وأن هذه الواقفة أمامها هي ليست كيم وإنما شخص آخر، إنها تنظر إلى الجسد فقط وقشرته الخارجية إنها ترى غطاءً تنكرياً فقط، لا يمكن أن ترى الرجل الذي في داخلي........

نهضت بيلا من مقعدها وسارت على أرضية المطبخ وسمعتها تقول:

- تكلمت مع معهد علم النباتات سيأتون لأخذها، لقد أعددت كل شيء الآن كل شيء جاهز!

فتحت عيوني وشعرت بذعر ينتشر في جسدي ويعلو في جذور شعر رأسي فانتصب شعري كاللؤلؤ المنثور:

- ماذا قلت لهم؟

- إنها زهرة مميزة لكنهم لا يعرفون قدراتها وإمكانياتها وما بوسعها أن تكون؟

- متى يأتون؟

عضت بيلا على شفتها:

- قالوا لي خلال وقت قصير، أعتقد أنهم سيحضرون في أي وقت!.

أمضيت تلك الليلة جالسة في غرفتي الأنثوية وعيوني مغمضة، أضغط بقوة بيدي على أذني، كنت أحاول إبعاد الأصوات والضجيج القادم من

الخارج عنهما، لكن دون جدوى وكان الصخب يتسرب من بين أصابعي ويشق أذني ويخترق طريقها ويدخل عيوني ويدق إسفيناً تحت أجفاني وكنت أسمع أصوات المدينة والميناء والشوارع تأتي إلى رأسي، كنت أسمع أصواتاً تعلو من المصانع التي كنا نسرقها أنا وتوني، أسمع أصواتاً تأتيني من بيت مزهر الورود من المرآة، وحتى من تحت خلايا جسدي، أسمع أصواتاً تستدعيني، كانت كلمات بيلا تتردد على مسمعي وهي تقول:

- في أي وقت سيحضرون لأخذها!

سيأخذون الزهرة.... سيأخذون الزهرة....

في كل لحظة كانت تمر كنت أسمع هذه الكلمات تتردد على مسامعي وأشعر بالاختناق، إنها كلمات تخنقني، تقتلني كأنها تضع حبل المشنقة حول عنقي وعن قريب لن يكون هناك ثمة وجود لكيم، سأكون في حالة غير ممكنة سأكون في حالة موت فقط.

خرجت إلى الشارع وتجولت في الحارة المظلمة على غير تعيين دون أن أخطط إلى أين أذهب، كنت ألمح بيت مزهر الورود الزجاجي يلوح من خلف منزل بيلا فطافت في رأسي الصور والذكريات، وكيف كان توني ينظر إليَّ في كراج السيارات وكيف كانت يدي قرب وجهه وأنا أشعر بحرارة أنفاسه على بشرتي، وكيف فتح عيونه وهو ينظر إلى وجهي متمعّناً في عيوني، كان الوجه وجه فتاة، ولكن العيون كانت عيون رجل.

كانت جميع الأضواء مطفأة في منزل مومو إلا ضوء الحمام رأيت خيال ظل أحد ما داخله، فطرقت على الشباك، وإذا بالظل يرتد ويقفز، ثم فتحت مومو النافذة فتبادلنا التحية وتصافحنا بالأيدي، أخرجت مومو رأسها من النافذة، وهي تحمل في يدها فرشاة الأسنان ومعجون الأسنان يملأ فمها،

توقفت مومو عن تنظيف أسنانها عندما رأتني فسال خيط من المعجون إلى أسفل فكّها، وهي تقول:

- ما هذا؟ ماذا تفعلين هنا؟

- يجب أن أفعلها مرة أخرى يا مومو لابد لي أن أفعلها مرة أخرى إنها المرة الأخيرة!.

أدخلت مومو رأسها سريعاً وسمعتها تبصق معجون الأسنان من فمها، ثم أخرجت رأسها مرة أخرى:

- ماذا ستفعلين؟

أشرت بيديّ الاثنين إلى الأعلى مؤشرة على جسدي البناتي وأكلمت قائلة:

- سوف أريه كيف أتحول إلى هذه!

وعندما أشرت إلى جسدي فتحت مومو عينيها مصدومة وقالت:

- يا لك من حمقاء أنت غبية!

ثم حنت مومو جسدها وأخرجته من النافذة، وكانت على وشك أن تسقط، وقالت وهي تمدد جسدها بتلعثم:

- أنت.... إنه لن يكون.... الوضع بأكمله لن....

رفعت صوتي أعلى من صوتها كي أطغا على صوتها وقلت:

- أعلم هذا لذلك أقول لك: اسمعي يا مومو إذا لم أعد إلى المنزل ينبغي أن تبحثي عني.!

ألقيت نظرة على الرصيف وحدقت في الحجر الأحمر الملقى بجوار بيت (مزهر الورود الزجاجي) وقلت:

- اذهبي إلى بيلا بعد قليل وقولي لها: إنني آسفة أعتذر منها بشدة!

ثم أدرت ظهري لمومو وذهبت إلى بيت مزهر الورود، سمعت وأنا أسير مومو تغلق النافذة خلفي.

توقفت السيارة على مشارف نهاية المنطقة الصناعية التي تقع على أطراف المدينة، عندما خرس صوت المحرك ساد الصمت، كنت أسمع صوت أنفاسي فقط وصرير المقعد الجلدي الذي بدأ يصرّ تحت حركة جسدي، وضعت يدي على لوحة القيادة، وشعرت ببرودتها على أصبعي ورحت أتخيل فرأيت توني أمام عيني بوضوح تام كيف سيفاجأ ويفتح عينيه من شدة الاندهاش عندما يراني شاخصة أمامه، ثم يمتلئ حماساً ويأخذ مقود السيارة مني، ويبدأ يقود السيارة على الطريق السريع، ويبدأ يضغط على عداد البنزين بأقصى سرعته، وتخيّلت كيف أكون جالسة إلى جواره وأشعر بأنفاسه، وتلهفه من شدة الإثارة ونحن نبتعد عن المدينة كثيراً، ونظل نقود باتجاه الأمام لا يمكننا العودة إلى الوراء، ابتسمت بيني وبين نفسي وشعرت فجأة بالسعادة، هذا هو الاختطاف، سيكون أشبه بالاختطاف، فكرت في أن أخطفه، أغريه وسيكون جسدي المموّه والسيارة هما الطعم، نعم هذا هو تخطيطي، أن أسرق انتباه توني وأغريه بخطر السرعة والمجازفة التي يحبها، وبهذا أخدعه وأجعله يقود إلى مكان بعيد حيث نكون وحدنا، وعندما نتوقف سأدعه يرى من أنا وأظهر له حقيقتي ومن أكون.

كان توني جالساً على الصخرة عند ساحل المياه وعند وصولي، كان شكله يظهر بين النور والظلام، إنه مكان مألوف بمنظر ظل مألوفاً للسماء ومياه البحر، كان شيء ما يحدث هناك، كانت النار تشتعل وحولها زجاجات الخمر وعلب الجعة ولمحت هناك المزيد من الصبيان والفتيات أيضاً واقفين

عند مدخل الغابة، بعيداً عن توني، كانوا يأخذون خطوات واسعة يتصايحون ويصرخون بخطابات منمقة مع بعضهم البعض حول الأشجار وأصواتهم يتردد صداها بين أغصان أشجار الغابة، لمحت ظل هوكن من بينهم فقد كان من الصعب التعرّف عليه في العتمة، لكنني شاهدت بلوزه الذي عادة ما يرتديه رافع الأكمام إلى الكوع ويده المبلولة من علبة الجعة التي يحملها، وعندما اقترب مني رفع هوكن علبة الجعة إلى الأعلى وقال:

- ماذا تفعل هنا بحق الجحيم أيها "الفرج" لم يدعك أحداً أبداً!

ثم بدأ ينظر نحو الغابة مسدداً نظره نحو الفتيات اللاتي كنَّ يسرحن ويمرحن هناك بين الصبيان، مرتديات كعباً عالياً رفيعاً وهنّ يضحكن ويصرخن في الوقت نفسه، عندما يُرش الماء فوق أيديهن ويتصايحن بأصواتهن المشرقة الرقيقة، ابتسم فم هوكن بشكل مائل باتجاه واحد فقط وقال:

- يمكنك أن تتناول ما تبقّى من الجعة الباردة أما الشراب الآخر، فلا، لا يمكنك الحصول عليه؛ لأننا تقاسمناه فيما بيننا!

قال هوكن بصوت مبحوح وهو يضحك، ثم ذهب بعد ذلك إلى النار المشتعلة، وبدأ يحرك في جمراتها، تناول توني جعة وفتحها بأصبعه فسالت بعض الرغوة على يده، ثم استدار نحوي ورماني بنظرة كلها تساؤل وفلسفة وظل يحدّق بي لحظات قبل أن يومئ برأسه أن بإمكاني أن أتقدم وأقترب منه، ناولني توني علبة جعة باردة وندّية فتحتها بأصبعي وفعلت تماماً مثل ما فعل وسالت بعض الرغوة على ظهر يدي وقلت:

- إذاً ما الذي نحتفل به اليوم؟

التفت توني نحو المياه مرة أخرى ورشف من العلبة، ثم قال:

- إنه عيد ميلادي!

ابتسمت وقلت له:

- ممتاز جميل؛ لأن لديّ مفاجأة لك!

فجأة رأيت بريق الاهتمام والإثارة يلمع في عيني توني مما جعلني أشعر بجمرات ساخنة تخرق جسدي، وتجري بين ضلوعي ثم انحنيت بجسدي إلى الأمام وكنت على وشك أن أقول له عن السيارة التي سرقتها من أجله، ولكنني لم أفعل وصمت فجأة عندما رأيت عنقه.

كان لون بشرته شاحباً كالعادة؛ وبدا شكل شحمة أذنه طرياً ومليئاً بالزغب الناعم، ولكن تحت أذنه كان ما يشبه الظل على جلده الشاحب باللون الأزرق والأحمر، لقد رأيت كل نقطة صغيرة بجسمه وكنت منتبهة إلى كل أوعيته الدموية، وكيف يتنفس، كان توني قد انحنى برأسه على الجانب وسمح لشخص ما أن يفعل ذلك كان توني قد أعطى الإذن لشخص ما وسمح له بأن يضع شفاهه حول عنقه كي يمتصه ويعضه ويحك جلده، انطفأت الشرارة في داخلي وبرد اللهب الذي كنت أشعر به وأصبح كالقطعة الحديدية ثقيلة العبء تخدش قلبي وتثير غضبي ولم أعد أعرف ماذا يمكنني أن أفعل بيدي، لقد اختفت جميع الكلمات من على لساني، ولم أعد أعرف ماذا أقول غير أنني استطعت أن أضع علبة الجعة على فمي وأشرب وأشرب إلى أن شربت جرعة طويلة دفعة واحدة، ثم صرخ هوكن بصوته المزعج ودعا توني أن يتبعه إلى غرفة الملجأ كي يحصل على هدية عيد ميلاده، ثم ذهب توني، وكان الجميع هناك إلا أنا بقيت جالساً في مكاني وتناولت علبة جعة أخرى من على المنصة هناك وبدأت اشرب منها وقلبي يغلي من الغيرة، أحاول عبثاً التخلص من صورة العلامة المطبوعة على عنق توني.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، هدأت الحفلة وهدأ الضحك والأصوات العالية، وتحول الصراخ إلى همس يهمس به الجميع وهم جالسون حول النار، كنا نجلس على حافة هضبة بعيدة، منعزلة بعض الشيء، كان هوكن مهووس بتوني يقدم له كل شيء ويخدمه طوال الليل ويهتم به ويحاول أن يرفّه عنه ويسليه عن طريق تعليقات وألفاظ خشنة ونكت بذيئة، حتى توني لم يكن يتلفظ بها يوماً من قبل، ولكن الآن استلقى هوكن على الأرض الإسمنتية في غرفة الملجأ بعيون نصف مغمضة، ثم تصاعد تنفسه وبدأ يشخر وراح يغط في نوم عميق وكنا نجلس أنا وتوني وكان البرد في الجبل يكاد يشق قماش بنطلون الجينز من على رجليه من شدة البرودة، كان النهر يضيء ويلمع أمامنا والغابة صامتة هادئة خلفنا، لم تعد تهمني العلامات المطبوعة على عنق توني مادام هو من اختار أن يجعلني خارج هذا الموضوع مرة أخرى، ولم يشاركني به، عندما كنت جالساً قرب النار اتجه توني نحوي، ومد يده لي كي يساعدني على الوقوف ومسكني بقبضة يديه الكبيرة ورفعني إلى الأعلى وقال لي:

- هيا لنذهب في نزهة معاً!

عندما أوقفني توني على قدمي أصبحت قريبة تماماً منه، كان أنفي قد امتلأ بروائح الحطب والنار والدخان، مشينا وابتعدنا بعيداً عن الآخرين واستنشقت الهواء النقي مما جعلني أشعر بدغدغة ونَمَلٍ بين أصابع قدمي وأسفل القدمين، لقد ناولني توني علبة الجعة بعد أن أفرغها تقريباً، وطلب مني أن أكمل ما تبقى منها، عندما بدأت أشرب دفعني توني على ظهري فشهقت ونزلت البيرة في بلعومي بشكل خاطئ، فشعرت باختناق القصبة الهوائية، وبدأت أسعل وأبصق وتوني يضحك من رد فعلي، لقد كان صوت

ضحكته مبحوحاً أجشَّ، لكنها تخلو من التهديد والوعيد أو غضب أو زعل، ثم سألني بصوت متشوّق متلهّف:

- ماذا حل بالمفاجأة؟!

رميت العلبة الفارغة على شكل قوس واسع عريض باتجاه النهر وسقطت في مياهه، ثم توقفت ومددت يدي وناولتها لتوني كي يمسك بها، وقلت له:

- تعال!.

سرت فوق الساحل الصخري وتوني يتبعني، كان الظلام والغابة أمامنا والسيارة واقفة هناك، وبدأت أفكر وأقول لنفسي أن الذي تخيلته سيحدث الآن فسنذهب في السيارة إلى تلك المغامرة الرائعة التي حلمت بها، ثم سمعت صوتاً ينادي باسم توني إنه صوت جذاب مغر مفعم بالرقة والميوعة لقد عرفتها إنها تلك الفتاة الحميراء التي كانت مع توني تلك الليلة التي ذهبت بعدها مع توني لمنطقة إطلاق النار، وعلمني الرماية، كانت الفتاة تسير نحو توني مباشرة وهي في حالة سكر فاقدة السيطرة تلوح بيديها الطويلتين النحيلتين تتمايل بهما في الهواء، ثم تسقطهما فوق رأسها، كنت أرغب في أن أمد يدي وأنتزعه منها واسحبه إلى الغابة، ولكنني لم أفعلها، واكتفيت فقط بدعس الأرض كأنني أدوس على الفرامل بقدمي لكني لم أنبس ببنت شفة كي لا أتدخل في نطاق خصوصيات توني ووضعت يدي في جيوب بنطالي، وكنت أشعر بضربات قلبي تدق وتدق في صدري بقوة، كان توني يتأمل خطوات الفتاة بصمت، ثم صوّب نظرة إليَّ وأضاءت عيناه لمعةٌ داكنةٌ من شدة زرقتها، ثم التفت إلى الفتاة، وأشار إليها أن تأتي وتقترب منا، ووقفنا هناك عند الساحل أنا وتوني والفتاة، وكانت تلمس بأصابعها

النحيلة ذراع توني كل لحظة لتحرك مشاعره وتؤثر فيه، لكننا وقفنا هناك فترة قصيرة، ثم أومأ توني برأسه نحو الغابة وقال:

- لنتمشىٰ قليلاً في الغابة ونحرك أرجلنا!

قال توني هذا ورمق الفتاة بنظرة، ثم حملق بي وسدد نظرة أخرىٰ إليَّ حيث كان حاجباه مرفوعين وعلىٰ فمه لاحت ابتسامة خفيفة كأنها بداية لضحكة ساخرة.

كنت أعرف ما كان مرسوماً علىٰ ملامح توني، لكنني لم أعطِ لنفسي الفرصة لتفسير ذلك التعبير الذي ارتسم علىٰ وجهه لأنني لم أبال لذلك، ولا أرغب أن أرىٰ إلىٰ أبعد من تلك الحدود، التفتُ وأبعدت نظري وبقيت أنظر فوق مياه البحيرة، إن الفتاة في حالة سكر ونظراتها متلهفة كجرو صغير فأمسكت يد توني بحماس وأخذت بالسير معه إلىٰ الغابة، فقد كانت تعتقد أن توني يعني ما يقول بأن هناك شيئاً مميزاً بينهما، وأنهما قد يصبحا علىٰ علاقة قوية، أما أنا فوقفت في مكاني عندما لاحظ توني أنني لم أتبعه التفت إلىٰ الخلف وقال:

- ألن تأت معنا؟

كان توني يضع يده علىٰ أسفل ظهر الفتاة وكانت سيقانها النحيلة غير مستقيمة في مشيتها وتضع يدها المزينة بالإكسسوارات حول خصر توني، أومأت برأسي مشيراً أنني لن أرافقكما فرفع توني حنكه ونظر إليَّ وعلىٰ تعبير وجهه حيرة وتساؤل، كانت عيناه أشبه بأزرار معدنية تلمع من تحت قبعته في الظلام، ربما تلمع باللون الغامق؛ بسبب خيبة أمله بي لأنني لم أرغب في مرافقته، قاد توني الفتاة بعيداً نحو الغابة وكان يسحبها ويجرجر بها عندما لا تستطيع السير بسبب كعب حذائها العالي، ثم سمِعت صوت ضحكة الفتاة المرتبكة التي كانت أشبه بنسمة الهواء الطائر فوق مياه البحيرة.

مشيت بهدوء وصمت نحو الغابة وكان الظلام يطبق على الغابة ويغلقها، منتشراً بين الأشجار، كانت أغصان الأشجار اليابسة مثل أرجل العنكبوت تمسك بمعطفي وتخدشني وأنا أسير، توقفت قليلاً وأنا أنصت إلى حفيف الأشجار الجاف، وأستمع إلى أصوات همهمة غير واضحة، عندما أصبحت عيني معتادة على الظلام رأيت كل شيء رأيت توني والفتاة، كان توني يلمس نهد الفتاة برقة وكانت يدها حول عنقه كانت الفتاة مستلقية تحت جسد توني على الأرض وجسد توني ممدد فوق جسدها تماماً كما كنت يوماً مستلقياً تحت ذلك الجسد وتذكرت كم شعرت بثقله وحرارته ونبضات قلبه.

وقفت هناك كالجليد متجمّدة في مكاني أنظر إلى حركاتها وانفعالاتها، وبينما أنا واقف هناك أراقب تحركاتها رأيت فجأة كيف تغيَّر كل شيء وتحول إلى عنف كبير لقد كانت الفتاة تشعر بالضيق وبدأت تتلوّى وتعصر بجسدها وتحاول أن تتحرر من ثقل جسد توني، لكنها لم تتمكن من ذلك، ثم تحولت حركتها وأصبح انفعالها مليئاً بالذعر والفزع وأشد قسوة وهي تحاول بكل قوتها أن تزيح جسد توني، لكنها لم تستطع فبدأت تخرمش بأظافرها الطويلة الملونة البيضاء سترة توني وخدشتها من جهة الصدر وأخذت ترفس بأرجلها وقد حفر كعبها العالي حفرة في الأرض وأنا أقف قربها أستمع إلى صرخات استغاثتها، وكيف يرغمها توني على ممارسة الجنس معه بالرغم من ممانعتها، لقد كان صوتها منخفضاً خفيفاً في بداية الأمر، ثم بعد ذلك لم تتمكن من إخفاء انفعالها أكثر فبدأ يرتفع صراخها إلى أعلى، وتحولت الممانعة إلى اعتراض ورفض، ومن ثم إلى شكوى وصراخ أعلى قبل أن يتحول إلى بكاء ونحيب شديد، بعدها توقف توني لحظات دون حراك وهو لايزال مستلقياً فوق جسدها، رجعت بهدوء إلى الوراء

دون أن أصدر صوتاً أو ضجيجاً كي لا يكشف أمري، وبقيت أراقب المشهد، لكن توني لم ينقلب أو يزيح جسده عنها ولم يحرك ساكناً ولم يعر اهتماماً لممانعة الفتاة ولم يخل سبيلها، بل وضع يده على فمها وأدخل أصبعين من أصابعه بقوة بين شفتيها وحفر بأصبعيه فمها واخترقه وخنق صوتها وكتمه فسكتت الفتاة وساد الصمت لحظات كانت عيونها تلمع هلعاً في الظلام صارخة من شدة الخوف بينما كان أنفها يئز ويصدر خشخشة واهتزت خياشمها وارتعدت بشكل هستيري، وهي تحاول يائسة الحصول على الهواء لتتنفس، كنت أرى ظهر توني ومؤخرته البيضاء التي كانت تشع بالظلام وجسد الفتاة المرعوب النائم تحت جسده، كان توني يدفع قضيبه ويدخله بها دون رضاها إنه يدخل في جسدها وليس في جسدي أنا.

شعرت بالعجز ولم أستطع فعل شيء، لكن مادة الأدرينالين بدأت تفرز وتغذي ساقي، وهي تدفع أقدامي إلى الأمام كنت أسير (كالروبوت)الرجل الآلي كنت لا أسيطر على حركة أقدامي، وسارت هي لوحدها وكان جسده يتحرك فوقها بغير اتزان، كان يفترسها بحماقة، لا يأبه لشيء وكانت مشعرات إنذاراته مغلقة عاطلة لا تعمل، فقد تحوّل إلى شخص أعمى لا يسمع ولا ينتبه إلى أي صوت من حوله، كان معمياً بالرغبة العارمة التي تعتريه لممارسة الجنس وكنت أسير نحوه وفي رأسي قد نما عش كبير للأفاعي، كانت كتلة سوداء من الأفاعي تزحف أمام عيني، لم أعد أحتمل ما كنت أراه، وما كان يفعل لن أحتمل كيف كان يستغل الناس، ثم يرمي بهم كأن شيئاً لم يكن، وكيف كان الأمر برمته دون أهمية بالنسبة إليه لم يعجبني هذا، ولكن الأمر كان مهماً بالنسبة لي، كان يهمني، فلن أدعه يأخذ أكثر أبداً، تقدمت إليه وضربته بكل ما أملك من قوة.

ركلت توني بقدمي وأصبته بحذائي الحديدي وضربته ضربة قوية على رأسه تدحرج جسده وانزاح بعيداً عن الفتاة وظل مستلقياً على ظهره ينظر إليَّ ولم أنتبه ماذا حلَّ بالفتاة غير أنها زحفت بعيداً عنا لم أكن أرى أمامي شيئاً غير صدر توني فقط كان صدره منفتحاً دون حماية فرحت أركله وأركله مرة وأخرى، وبقيت أضرب جسده وأركله مراراً وتكراراً. كان مستلقياً على الأرض والدم يسيل من فمه وفتحة بنطلونه كانت لا تزال مفتوحة وملامح الاستغراب تبدو على وجهه، وفي خضم كل هذا كان قضيبه لايزال منتصباً كأنه يهزأ مني ويضحك عليَّ مما جعلني أفكر كم كان ذلك غريباً، لقد ظل قضيبه منتصباً واقفاً، رغم كل الركلات والضربات التي أوسعته بها مما أثارني وجعلني أضربه أكثر وأكثر وضربته على قضيبه وخصيته، تنهد توني تنهيدة مع أنفاسه المقطوعة وجسده الخائر على الأرض والذي لا طاقة فيه ولا قوة، وسمعت لغطاً وأصواتاً من بعيد، لكنني لم أتوقف ولم أستطع أن أمسك نفسي عن ضربه واستمريت بالركل، ثم سمعت صراخاً قادماً عبر الفضاء يحمله الهواء إلى مسامعي إنه صوت لم يكن غريباً على مسامعي، صوت مألوف أعرفه تماماً، لكنني لم أسمعه منذ فترة طويلة، لقد أدركته متجهاً نحوي بوضوح تام، نعم إنه صوت مومو، ثم أشرق وجه مومو الصبياني من خلال فروع الأشجار، كان يرتسم على وجهه علامات الاستغراب والقلق وعيونه السوداء البريئة تتطلع باتجاهي، وهو يركض ضارباً كل الأغصان والأشجار التي أمامه صارخاً دون كلمات، إنه صوته القادم فقط نحوي ووراء مومو، كان يقف الضيوف والآخرون يحاولون أن يعلموا ما يحدث ويمدون بأعناقهم ويرفعون أقدامهم وهو يحاولون الوقوف على أرجلهم غير المتوازنة من شدة السكر ويلوحون ويشيرون نحو الغابة وهم لا يفهمون ماذا يجري.

تعثرت في حذائي وسقطت على الأرض وأنا أركض في الغابة، ثم نهضت وبدأت بالركض مرة أخرى كنت أركض وأنحني بجسدي أمام أغصان الأشجار الكبيرة، لكن تركت الأغصان الصغيرة تخرمش جسدي، وقد خربشتني في وجهي وأخرجت الدماء من جبهتي وجبيني، كنت أركض وأسمع صوت مومو يتبعني قادماً من ورائي، كان صوتاً متعباً يصرخ وهو يتعثر ويسقط على الأرض وينهض، ثم يصيح بي عالياً أن أتوقف عن الجري، لكنني لم أتوقف بل كنت أشعر بجذور الأرض كما لو أنني أعرف كل شبر فيها، حفراتها، فجواتها، وكأنني كنت قد ركضت عليها مرات عديدة من قبل، استمريت بالركض وبقيت أركض وركضت بعيداً إلى أن هدأت الأصوات خلفي، ولم أعد أسمع شيئاً ورائي، لم أعد أسمع سوى صوت نبضات قلبي، كنت لا أتذكر أين أو متى انتهت المسافة التي تركت بها الغابة، كنت لا أتذكر كم من الوقت مضى وأنا مختبئ في حاوية الزبالة، لكنني أتذكر تلك الغيوم التي كانت تشق الفضاء فوق رأسي وقد امتلأت السماء بالسحب وغطتها بالكامل، وأتذكر ألم الحرقة في حلقي كيف كان يلسع بلعومي ويحرقني كلما تنفست أو أخرجت الهواء الضيق من قصباتي الهوائية.

كنت أسمع صدى السيارات القادم من الطريق السريع، ورأيت رافعات الحديد جامدة هناك عند الميناء القريب، زحفت ببطء وخرجت من مخبأي وسرت باتجاه الميناء، ثم جلست القرفصاء على رصيف الميناء وخلعت حذائي وجواربي الرطبة وشعرت بالهواء البارد يتوغل بين أصابع أقدامي، عندما وضعت حذائي على جنب لاحظت الاحمرار والكدمات على يدي، وقفت هناك لحظات وأنا أنظر إلى قدمي، كانت قدماي متسخة وبدت كأنها بعيدة عني كأنها أقدام غريبة واقفة هناك تحت إلى الأسفل تبعد

عن جسدي بمسافة طويلة، كما لو كان الجزء العلوي من جسدي لا ينتمي إلى جسدي السفلي، ويبدو أنهما وضعا معاً عند ذلك الجسم.

عندما وصلت إلى المنطقة السكنية، وظهرت الفلل أمامي كانت جواربي قد تمزقت واهترأت وكانت ساقي قد شُلَّت من شدة البرد من أصابع أقدامي إلى ركبتي ولم أعد أشعر بالألم ولا بالبلل فقد كان رأسي أشبه بحفرة مليئة بالثقوب والأفكار تدور في دماغي مثل بثور منتفخة ملتهبة تنزّ خراجاً وجراحاً، وضعت يدي على وجهي تحسست الخدوش والجروح الخفيفة المرسومة على خدودي وجبهتي وكان وجهي أشبه بخريطة من الجروح كوجوه الحرب المطلية بالألوان، كانت المنطقة السكنية هادئة صامتة عندما فتحت باب سياج حديقة بيلا، لم أسمع أي صوت، كان بيت مزهر الورود الزجاجي يشع نوراً وضياءً من تأثير أضواء الشوارع الخارجية، عندما وصلت إلى الباب وجدت المفتاح داخل القفل الكبير على البوابة، فتحت الباب الزجاجي الرفيع ودخلت إلى المزهر كان رأس الزهرة منحنياً إلى الأسفل، وقد وصل إلى أرضية البلاط الإسمنتي، وهناك الكثير من بتلاتها وأوراق أغصانها البنفسجي الغامقة اللون متساقطة ومتناثرة على الأرض، وهناك بعض البتلات الأخرى لا تزال تتشبث بالزهرة، لكنها متقلصة مصفرّة اللون عند أطرافها، كان يبدو شكلها كأنها مصابة بمرض السرطان، كنت أرغب أن ألمسها كنت أتشوق لمسك رأسها الطري بيدي، لكنها هشة ويبدو أنها في وضع حرج وحساس جداً، أي لمسة قد تؤدي إلى سقوط جميع أوراقها وبتلاتها، لا أرغب أن أراها في هذا الوضع السيئ لا أريد أن أراها صلعاء عارية من أوراقها وأغصانها، لا أريد أن أرى ما يتعرض له داخلها الحساس تنهدت بحسرة، ونفخت الهواء بقوة حيث وصل إلى الزهرة اهتزت أغصانها مما أدى إلى سقوط بتلة أخرى هبطت تتهاوى إلى أسفل، لم يتبق من

الزهرة شيء غير جرح عميق في رأسها وفمها المفتوح من الدهشة "فغر فاها" وكان غبار الطلع الأصفر الذي على رأسها قد تحول إلى لون بني مخضر.

عدت أدراجي ومشيت بحذر نحو بوابة الخروج كي لا يتحرك الهواء، ويصدر من حركتي شيء قد يؤذي الزهرة أكثر قبل أن أغلق الباب انحنيت برأسي تجاهها وهمست لها بهدوء:

- لن تنتظري طويلاً سيأتون عما قريب ويعتنون بك!

رميت ما تبقى من جواربي المهترئة في التواليت وسحبت السيفون عليه، ثم غسلت ساقي وشعرت بألم خفيف في قدمي فشطفتها بالماء الدافئ، وفيما أنا أصب الماء الساخن على قدمي كان الماء يتلوّن من شدة القذارة واختلط الدم والتراب معاً، وامتلأ حوض الحمام وظل الماء يلف ويدور هنا وهناك قبل أن ينزل إلى أنبوب المجاري لتشفطه البالوعة وبعدها ارتديت بجامتي البناتية واستلقيت على السرير وأنا أحدق في السقف مركزة بصورة عمياء إلى سقف الغرفة الذي كان مضاءً بشكل خافت بأضواء الشارع الخارجية، لقد كنت منهكة وأشعر بألم في كل أجزاء جسدي، هناك علامات زرقاء وحمراء، آلام جروح وخدوش منتشرة على ذراعي وساقي كانت تحرقني، ولكن في الوقت نفسه أشعر برعشة برد في قدمي، وكانت أعماق صدري كما لو أنها فارغة لا شيء فيها ولم أفعل شيئاً، فقط أغمضت عيني، كنت لا أرغب في أي شيء ولا أريد أن أكون أي أحد، كان صوت مومو يحلق ويحوم كالهواء في رأسي، كنت أسمعه يصرخ في تلافيف دماغي، كنت أراه يمر عبر الغابة راكضاً وهو يطقطق أغصان الأشجار اليابسة سمعت صوت تحطم زجاج حاد يتكسر ويسقط على الأرض متناثراً تاركاً وراءه طنيناً هنا وهناك، عندها فتحت عيناي وقفزت من نومي بقوة من الفراش، سرت مترنحة نحو نافذتي ونظرت

من الشباك هناك لمحت ظل أحد ما قرب بيت مزهر بيلا للورود توجهت نحو الباب وأنا أسير على السجادة لم أشعر بقساوة شعيراتها على أقدامي المتعبة، ولم أشعر بالبلاط البارد، ولا بالتراب القاسي تحت أرجلي كنت أنادي فقط، ولكن صوتي لا يخرج من حنجرتي، كان جسدي يسير في حديقة بيلا ببطء كالكابوس لكن عيناي متيقظتان جيداً وصاحية وترى بوضوح، لقد رأيت ظل مومو كأنه ظل فتى نحيل يتحرك يمشي داخل بيت مزهر الورود رأيته من وراء زجاج جدران البيت الزجاجية، كانت يداه ترش سائلاً وترميه بسرعة في جميع أنحاء المكان، ثم أخرج ولاعة وأشعل بها المكان ولف وجهه نحوي، ثم خرج مسرعاً من البيت الزجاجي، لقد أشعل النار واشتعل المكان بأكمله، كان اللهيب يتصاعد إلى الأعلى ويلتهم كل شيء.

تسمّرت قدماي ووقفت مدهوشة لم أتحرك من مكاني، كنت أشعر بتمزق في داخلي، كنت أشعر كأن عموداً حديدياً يشقني من رأسي إلى أخمص قدمي ويقسمني إلى نصفين لم يكن لدي أي مرآة، لكنني كنت أعلم بما يجري في داخلي فقد كنت أعرف ما يحدث في أعماقي، كنت أمر بحالة أشبه بالموت، كان نوعاً من الموت تماماً كما تخيلته سابقاً، خرج الصبي من داخلي تقلص وذبل، ثم مات، وكنت أقف هناك مهملاً وحيداً بجسدي الأنثوي بعد أن غادرني الصبي الذي في داخلي التفت بحذر إلى أسفل ونظرت إلى ذراعي، رأيت يداي منتفخة ومتورمة ومحمرة قليلاً، لكن عدا ذلك فقد كانت يدايَّ يدا فتاة عادية، مرتخيتان بعد أن كانت لي قبضة صبي مشدودة بقوة، وكان أنفي محتقناً ينزف خيطاً رفيعاً من الدم، مددت لساني وتمكنت أن أتذوق طعم الدم الغامق الساخن قبل أن ينطلق الناس مسرعين ويتجمعوا في منطقتنا ليروا الحريق.

أُضيئت جميع النوافذ في حارتنا واحدا تلو الآخر، فُتحت الأبواب وهُرع الناس خارجين من بيوتهم في قمصان النوم حفاة الأقدام يصرخون وينادي بعضهم بعضاً لطلب المساعدة، صاح أحدهم يطلب الماء وآخر يقول عليكم الاتصال واستدعاء رجال الإطفاء، انفجرت شبابيك بيت مزهر الورود الزجاجية واحداً تلو الآخر من شدة حرارة الحريق وتصاعد دخان كثيف أسود إلى الأعلى خارجاً من السقف، كانت مومو لا تزال واقفة هناك قرب مدخل الحديقة غادرها أيضاً جسد الصبي واختفى ولمحت وجهها الأنثوي، وجه الفتاة في ضوء النيران، كانت خدودها متسخة من الدخان وملطّخة بالسخام واللون الأسود وخطوط من الدموع مرسومة على وجنتيها، عندما تقدم أحد الرجال أمسكها من يدها وأبعدها عن المكان، لم تبدي أي حركة مقاومة، ولا أي رد فعل، ثم سمعت أصواتاً لشخصين كانا يقفان بقربي استغرق بعض الوقت قبل أن أستوعب أنهما والديّ، كان صوتهما كأنه قادم من قعر هاوية سحيقة، ظلّ والدي يناديان باسمي، هزّت والدتي جسدي ووالدي رجّ ذراعي، ثم انتبهت لهما وأشحت بنظري من بيت مزهر الورود بعد أن أمسك بي أحدهم من يدي وقادني بعيداً عن الدخان والنار وأنا أدعس بقدمي على ممسحة الباب الخشنة، سمعت صوت صراخ وعويل عال يصل إلى عنان السماء التفت برأسي نحو الصوت وإذا بي أرى مجموعة من الرجال يمسكون بقوة ببيلا لمنعها من الركض والاندفاع نحو النيران.

كان والديّ يتهامسان وكنت أسمعهما من خلف الجدران وأنا مستلقية هناك على سريري وكانت قارورة الماء الساخن قرب أقدامي في الفراش، لكنني لا أشعر بحرارتها وكان والديّ يتناوبان على الجلوس قربي على

الفراش، وهما يحاولان تدليك أصابع أقدامي وعقب القدم، بالتأكيد كانت أيديهما ناعمة لطيفة، لكنني لم أكن أشعر بهما كأنهما لا يلمسان جلدي أتذكر بعض الكلمات التي كان يقولونها مثل:

- إنها الصدمة!

- أعطها بعض الشراب الساخن تشربه!

- لنمنحها الهدوء والراحة!

وكانا يتمتمان أيضاً عبارات أخرى عن الفتاتين الاثنتين الأخريين، عن جنون الغضب الذي اجتاح الفتاة ذات الشعر الأحمر عندما شاهدت ما حدث لبيت مزهر الورود وتلك الفتاة الأخرى الجالسة في منزل والديها تبكي وتبكي، ولم تقل لماذا هي تبكي، وأنا كنت الفتاة الثالثة، الفتاة التي لم تحرك نظرها في ذلك اليوم اطلاقاً.

عندما جاء الليل وحل الظلام واسترخى جسدي وأطلق سراحه ولم أعد أشعر بشلل أو تحجّر أو أي عضو من أعضاء جسدي نهضت من الفراش بهدوء وارتديت ملابس دافئة وكتبت رسالة إلى والديّ وتركتها على السرير كتبت لهما أقول:

- عند ذهابي لا تبحثا عني سأشتاق إليكما!

ثم وضعت بعض الغيارات والملابس في كيس وارتديت سترتي، ثم وضعت قبعة الجاكيت على رأسي وتسلقت خارجة للمرة الأخيرة من نافذتي البناتية ونزلت إلى الأرض ورحلت.

كانت بقايا النباتات المتبقية من الحريق تضيء في بيت مزهر الورود، تلمع في ضوء القمر، ولم يكن في نيتي الذهاب إلى هناك، لكنني عندما اقتربت من

البيت الزجاجي سمعت صوت لهاث أنفاس، روح تلتقط نفسها بصعوبة، فتحت بوابة القضبان الحديدية وتسللت بهدوء وتقدمت إلى الأمام أمشي على أطراف أصابعي كي أرى بشكل أفضل، إنها بيلا، كانت بيلا تجلس هناك على ركبتيها بين قطع الزجاج المكسور وحطام أصيص الزهور والأواني الخزفية وأدوات الحديقة المتفحمة ممسكة بيدها مجرفة صغيرة تنبش التربة وتصفيها وتنظفها من رماد الحريق، وكانت ترفعها إلى السماء لترى بوضوح على ضوء القمر وتغربل الغبار ليتسرب من بين أصابعها وهي تشتم وتلعن، و عندما رفعت بيلا يدها إلى فوق ولمحتني واقفة هناك، كنت مترددة في الاقتراب منها وأفكر هل أسير إليها أم لا، لكنني تقدمت عدة خطوات ومشيت نحوها، ثم توقفت لأترك عدة أمتار بيننا وسألتها:

- هل جرحت نفسك؟

قامت بيلا وقفت على رجليها تجاهلتني وبدأت تنفض التراب من على ركبتها لتزيل الرماد عن بنطالها ولم يكن تنفيض البنطال ينفعها بشيء، فقد كان ملطخاً بالتراب والغبار والرماد وكان تنظيفه ميؤساً منه لكنها فعلت ذلك بحركة تلقائية كدلالة على أدبها ونظافتها وكانت يدها مليئة ببقع الرماد ووجهها يبدو من دون ملامح، وذلك من شدة الحزن أو ربما الكراهية أو ربما لأنها لم تتعرف على صوتي بعد، لم أكن أعرف سبب تلك التعابير المرسومة على وجهها، سحبت بيلا يدها ومسحت بالجزء الخلفي من كفها جبينها مما طبع السخام عليه وزاده اتساخاً فامتلأ وجهها بالسخام والسواد أكثر مما كان عليه:

- ماذا تريدين؟ قالت بيلا.

هززت كتفي مشيراً أن لا أعرف، ثم انحنت بيلا وأنزلت ركبتيها على الأرض مرة أخرى، وأكملت حفرها بالأرض وكان أصبعها المصاب يمتد بغير اتساق مع الأصابع الأخرى، كان الجرح واضحاً تماماً، عندها صمتنا لحظات، ثم قالت بيلا:

- هل صحيح ما قالته مومو؟

- ما هو الصحيح؟ ما الذي قالته مومو؟

- إنك قتلتِه!

حركت قطعة من الخزف المكسور بقدمي وضربته بحذائي بعيداً وقلت:

- لا أعلم أظن ذلك، لقد كان جامداً لا يتحرك!

كانت بيلا تحدق في الرماد، حملقت بنظرها بصورة عمياء على التراب دون تركيز وشفتها السفلى تهتز وترتعش، أردت أن أتحدث إليها أكثر، كنت أرغب أن أقول لها المزيد، بحثت عن كلمات وعبارات، لكنني لم أتفوّه، بل أردت أن أقول لها:

- كانت هناك فتاة في وضع حرج تصرف توني معها بصورة سيئة، لقد كان يؤذيها، وكان تونيـ........

كانت هذه الكلمات على طرف لساني إلا أنني لم أستطع نطقها بصوت عالٍ إنها كلمات صعبة جداً ومؤلمة لا يسعني نطقها على فمي، التقطت أنفاسي من جديد، وقلت:

- كل شيء تحطم وانكسر في داخلي عندما رأيت تلك الفتاة!

لم تقل بيلا شيئاً فبقيت الكلمات التي قلتها تواً تلف وتدور وهي تنتظر في أذني:

- لقد كانت فتاةً تلك التي تصرف معها توني بحقارة وقام بإيذائها وأنا لم أكن أعلم فيما إذا كنت أتحدث عن نفسي أم عن تلك الفتاة التي كانت تضطجع تحت جسد توني، توقفت بيلا عن الحفر، ورأيت خديها المبلولة والملطخة بالرماد تحت ضوء القمر:

- إذاً ما الذي سنقوم به الآن؟ برأيك؟ لقد انتهى كل شيء، كل شيء تدمّر لم يتبق شيء لنا نحن الثلاثة.

ثم ملأت بيلا قبضة يدها كاملة بالرماد وتركت ذلك السواد ينزل وينسل من بين أصابعها.

شعرت بوجع عميق وشيء ما تفجر داخل أعماقي وشعرت برغبة كبيرة أن ألقي بنفسي بين أحضان بيلا وأحضنها بذراعي وأمنحها كل ما أخذته منها، كنت أرغب لو أستطيع منحها حياتي، وكل ما تبقى منها لفعلت ذلك، ولكنني لم أفعل شيئاً، كل الذي استطعت أن أقدمه لها هو أن فتحت فمي، وقلت لها بضع كلمات هزيلة مجرد عبارة بسيطة من عدة كلمات لا معنى لها.

- حسنٌ، ينبغي علي أن........ يجب أن أذهب........

صمتتْ بيلا لحظات، ثم أومأتْ برأسها وقالت:

- نعم يجب عليكِ أن تذهبي!

ثم عادت بيلا إلى عملها واستمرت بحفر الأرض واتجهت إلى سياج البوابة، وأنا أشعر بثقل في كتفي وثقل الدموع التي تجمعت خلف جفوني وعيوني، وفي كل خطوة أخطوها نحو الباب الخارجي كنت أتمنى أن تناديني بيلا وتوقفني لتقول لي: لا لا تذهبي إن هناك حلاً آخر لمشكلتنا

هناك مخرج آخر، يمكن لهذه الأزمة أن تمر لكنها لم تقل شيئاً وراحت كل واحدة منا في طريق.

إن آخر ما أتذكره من بيلا هو صورة مظللة لفتاة ترتدي بلوزة فتيات على جسدها المراهق ذي الأربعة عشر عاماً جالسة على ركبتيها وسط الرماد تحفر وتحفر في الأرض، تحفر في بقايا الخراب التي خلفه دمار الحريق، تحفر أعمق وأعمق تحاول أن تعيد ما تبقى من بيت مزهر الورود لتستعيد فردوسها المفقود.

كانت غرفة القبو فارغة، وكان هناك على بعد عدة أمتار طوق وأشرطة وحواجز، كانت الشرطة قد أغلقت مكان الجريمة، حاولت أن لا أنظر بذلك الاتجاه، وتقدمت مباشرة إلى غرفة القبو عندما فتحت الباب أصدر صوتاً بدا كأنه أشبه بالصراخ في سكون ذلك الليل، توقفت قليلاً أسترق السمع ثم التفت إلى الوراء، وأنا أنصت بانتباه شديد، وأنظر نحو مكان الجريمة، نظرت إلى حواجز الشرطة، لم يكن هناك أي شيء لا أصوات ولا حتى نباح كلب، دخلت إلى غرفة القبو. كان كرسي الجلد الأحمر هناك في الغرفة العارية لقد كان أشبه بالحارس الذي يرافقني بنظراته أينما ذهبت فتقدمت نحو الكرسي ووضعت يدي على جلده البارد، ثم أدخلت كفي بين المقعد ومسند ذراع الكرسي وأنا أتحسس الشق وأبحث عن المسدس، لم أكن أعلم في أي مكان كان توني يخبئ الذخيرة أو الطلقات، لكنني كنت أعرف أن المسدس هنا وأنه معبأ بطلقة واحدة على الأقل.

عثرت على المسدس وحملته بين يدي وعندما وقفت وأنا أمسك المسدس بقبضة يدي رأيت "توني" فجأة جالساً هناك على الكرسي الأحمر كملك جالس على عرشه، كانت صورة غير مريحة، كان يحك بإبهامه الكبير ذقنه

الخشن، وكان الوشم الأخضر المزرق مرسوماً على يده ويمتد عبر الساعد، وكانت عيناه كالدعابل صافية الزرقة، كانت تلمع وتتلألأ فقط كلما خاطرت أو أوشكت على الموت، قلّبت المسدس بين يدي وتأملته جيداً ونظرت إلى خطوطه الرشيقة وصناعته من الحديد الأسود وتشكيله بهذا الشكل الأنيق.

عندما رفعت نظري إلى الأعلى كان توني قد اختفى من عرشه وظل الكرسي الفارغ يحدق في وجهي ينظر إليَّ كالأخرس دسست المسدس داخل بنطالي، ثم جمعت كل الأشياء ذات القيمة وحملتها معي، بطاقات بنك ائتمانية، مفاتيح سيارات، نقود، خرائط، سكاكين وغيرها، وعندما امتلأ صندوق السيارة غادرت المكان وتركت بوابة القبو الحديدي مفتوحاً للشاطئ والهواء.

كنت أقود السيارة على غير هدى أجوب الشوارع والطرقات ساعات طويلة وكنت أبيت خارج السيارة في الهواء الطلق عندما يكون الجو دافئاً، وعندما يكون الجو بارداً أنام داخل السيارة لياليَ كثيرة، لم أكن أستطع النوم على الإطلاق، كنت أنطوي وأتكوّر على جسدي كالجنين داخل بطن أمه وأتجمد على مقعد السيارة البارد، وأترك الذكريات تلعب وتدور في رأسي كدخان الضباب أتذكر صوت توني وأنفاسه في تلك الليلة التي كان يمارس بها الجنس مع تلك الفتاة، صرخات مومو العاتية وهي تنادي عليّ، صمت بيلا وسكوتها.

كان وجهي يعكسه زجاج السيارة أمامي و كنت أحدق به، لكنني لا أرغب بالنظر إليه، لا أريد أن أعرف نفسي، لم أعد فتاة، لقد تخلصت منها منذ فترة طويلة، والصبي الذي في داخلي حطمته، مزّقته، وابتلعته ولم يعد هناك صبي أيضاً، كان هناك وحش، كل ما تبقى في داخلي هو وحش، رفعت يدي

إلى فوق ووضعتها أمام وجهي كما لو أنها مرآة ورحت أبحث عن وجه ثالث جديد ربما أعثر عليه في يدي، ولكن لم يكن هناك وجه ثالث يمكن لكفي أن تمنحني إياه وليس لديها العزاء والراحة ولم أجد مواساة لتمنحني إياها.

في الأشهر القليلة الأولى التي مضت لم أتذكر إلا القليل منها كأن تلك الأيام أشبه ببحيرة من ضباب حليبي أبيض غامض يرتفع من داخل تلك البحيرة جزيرة صغيرة تطفو بين فترة وأخرى لتظهر على سطح الذاكرة، أتذكر اقتحاماتي لبعض البيوت الصيفية الفارغة إذ كنت أتسلل بخفة وأسطو على المنازل الخالية من أهلها وآخذ كل ما أنا بحاجة إليه وأهرب.

بعض البيوت كنت أمضي فيها عدة ليالٍ والأخرى كنت أقيم بها بضعة أسابيع وكنت أحرص أن لا أترك أي أثر يمكن تعقبه بعد رحيلي أو بصمة تدلّ على وجودي به، وكنت أغادر دائماً في الوقت المناسب أي قبل عودة أصحاب تلك المنازل.

عند وصولي لإحدى المدن رأيت صوراً سوداء لبعض ملامح وجهي على صفحة الجرائد مطلوباً من قبل الشرطة، الصورة الأولى عبارة عن صبي يضرب صبياً آخر يحطم جسده ويكسره ولم يكن لدى الشرطة صورة لي وكانت الصور عبارة عن شبح وهمي لوجه أسود اللون وتجويف لعينين مثقوبتين وقسمات خشنة حول الفم شكله كالرجل الآلي في أفلام الرسوم المتحركة ثم حدقت في الصورة، وركزت على قسمات الوجه، لم تكن الملامح مرسومة بدقة، ولكنها كانت لي، ثم جاءت بعد ذلك صورة الفتاة، كانت صورة قديمة قبل بضع سنوات تبدو الفتاة أنها مجرد طفلة تبتسم وعيونها مفتوحة بريئة، كانت الفتاة قد اختفت من منزل والديها في ظروف غامضة ولا يعرف أحد عنها شيئاً وكان البحث عنها جارياً لكنهم لم يعثروا

على أثرٍ لها ولا لجسدها، ولا لأي دليل أو خيط يوصل إليها، وكانت هناك صور لوالديها أيضاً في صفحات الجريدة كان الأب والأم يجلسان جنباً إلى جنب في غرفة المعيشة داخل منزلهم، وكان يرتسم على وجوههم الحزن والقلق، حركت يدي ومررت أصابعي على الصورة، ولمست خدودهم ومررت يدي على وجوههم المألوفة إلى أن تلوّنت أطراف أصابعي باللون الرمادي من حبر الجريدة، لكنني لم أرد على نداءاتهم لي، إنهم لم يفتقدونني أنا وإنما يفتقدون الفتاة التي لم تعد موجودة، ولم يعد لها وجود بعد الآن.

كانت بعض الذكريات واضحة تلمع كلمعان الزجاج أمامي وكان هناك طريق ترابي مليء بالحصى وله سياج وبوابة مفتوحة، إنها ساحة لسيارات الخردة كانت مليئة بالسيارات العاطلة القديمة، وكان هناك رجل عجوز واقف قرب غطاء محرك أحد السيارات مرتدياً "أوفرول" سروال عمل قذر، وكان ظهره منحنياً على محرك السيارة، وعند قدومي لم يكن وجهه ظاهراً ولم يرفع رأسه، بل أدخله أكثر داخل السيارة نحو الكابلات، كانت ساحته لتصليح السيارات هي نهاية ذلك الشارع الذي كنت أقود فيه.

خطر على بالي في بداية الأمر أن أقود السيارة وأعود إلى الطريق الذي أتيت منه، لكنني لم أتكلم مع بشر منذ عدة أيام؛ لذا قررت أن أتروى قليلاً وأتحدث إلى هذا العجوز، كانت ساحته تبدو كالخرابة مليئة بإطارات السيارات وقناني الزيت الفارغة، أوقفت السيارة وأطفأت المحرك، ثم ترجّلت من السيارة وسألته إذا كان باستطاعتي شراء لترين من البنزين منه، رفع العجوز رأسه وهو يلوك علكة في فمه ببطء وأخذ ينظر إليَّ بتمعّن وصمت، ثم ظهرت فجأة على وجهه ابتسامة خفيفة، وكان في فمه السعوط "علكة التدخين" وقال:

- أنت مطلوب من الشرطة؟ صحيح؟

لم أستطع إجابته وانحبس صوتي ولم أقل له شيئاً، واكتفيت فقط بهز رأسي بقوة ووضوح تام بمعنى لا، ثم أصبحت ابتسامته أعرض وقال:

- نعم أنت مطلوب للشرطة أنت الصبي الشيطاني الذي رأيت صورته في الصحف!

ثم أصبحت نبرة صوتي قوية وحاسمة، وأنا أقول دفعة واحدة:

- لا، أنا لست صبياً!

ضحك الرجل مني بسخرية واستهزاء، ثم بصق لعاب بني اللون من فمه على الأرض فوق الحصى، ثم لف رأسه وأعطاني ظهره وعاد إلى عمله مرة أخرى وكان يتوقع مني أن أغادر المكان لكنني ذهبت إليه واقتربت من محرك سيارته، ووقفت أمام وجهه المنحني وفتحت أزرار بنطلوني وخلعته أمامه، وكشفت له عن عورتي نظر الرجل العجوز إليَّ وعدّل ظهره وأخذ ينظر إلى الشق الذي بين ساقي، وقفنا لحظات دون حراك هو ينظر إلى ما بين أفخاذي وأنا واقفة، لم ينزل بصره عن فرجي أبداً وظل ينظر إليه طويلاً إلا أن نظراته لم تلامسني، ولم تمسني بشيء أو تصيبني بين ساقي، كانت ملابسي فوق جسدي البناتي "الأنثوي" وكان جسدي الأنثوي فوقي "أنا" لذلك لم أشعر بأنه جسدي، وبالتالي يمكنه النظر كما يشاء إلى أن يشبع فضوله، وينتهي ويضجر من دون أن أتأثر قيد شعرة، ثم صارت شفاه العجوز تلمع وهو يتقدم نحوي رفعت بنطلوني ونظرت مباشرة إلى عينيه، وعندما وقع بصره عليّ وتلاقت نظراتنا وشعرت عندها كأنني عارية، ومع ذلك لم أتحرك من مكاني وظللت واقفة وشعرت برائحة السعوط تفوح من أنفاسه، كانت تخرج من فمه الرائحة قادمة نحو وجهي مباشرة، ومع ذلك لم أتراجع خطوة

واحدة إلى الوراء، كان الرجل العجوز لا يزال يعلك وبدأ يحك رقبته بظفر أصبعه، ثم أمسك بقطعة قماش ومسح الزيت من يديه وقال بإمكاني الحصول على خمسة عشر لتراً مقابل مئتي كرون فقط أخرجت النقود من جيبي فوراً بينما هو راح يجلب حاوية بنزين فارغة ليعبئها بالبنزين.

أعطيته النقود وأخذت البنزين وشكرته ودخلت السيارة، ثم بعد ذلك أدرت المقود على الحصى والتراب ورحت أقود السيارة نحو بوابة الخروج والغبار يتصاعد خلفي تاركة ورائي العجوز وسياراته الخردة وساحته.

كنت أنظر عدة مرات خلفي عبر مرآة الرؤيا الخلفية كان الطريق فارغاً وخالياً من البشر والسيارات، وتأكدت أيضاً من أن ذلك العجوز لم يتبعني.

لم أكن أتصور أن ذلك العجوز سيجد سيارتي، كنت أقف هناك في السيارة داخل الغابة على بعد نصف ميل على الأقل عن مزرعته واستيقظت في منتصف الليل على ضجيج وضوضاء حولي من خارج السيارة، كان الرجل العجوز يحاول فتح قفل الباب بحذر لاقتحام سيارتي، لكنني لم أشعر به ولم أر أثراً لأي سيارة قادمة نحوي لابد أنه جاء سيراً على الأقدام على طول الطريق من مزرعته إلى هنا وفتحت باب السيارة، وبدأ باللهاث وأمسك بحزام الأمان الذي كنت أضعه على جسدي وارتفع صوت أنفاسه عالياً أمسكت بحديدة قربي وضربته على منخاره الكبير ورأيته يتراجع قليلاً وتردد لحظة واحدة حينها ضربته بقوة بساقي على صدره ورحت أرفسه إلى أن تراجع إلى الوراء وسقط إلى الخلف، لكنه لم يغادر ولم يذهب في طريقه وظل واقفاً هناك يصدر أنفاساً ولهاثاً فقط، كان سكراناً وصوته متماوجاً من شدة تناوله للكحول، وبدأ يصرخ ويقول: إنني مخلوق مشوّه، وأنه سوف يجعلني إنساناً طبيعياً! ضغطت على قفل باب السيارة وقفلتها وزحفت إلى

مقعد السائق دون أن تغفل عيني عنه، ثبت نظري عليه وأنا أراقبه بحذر، جلست على المقعد الأمامي وأمسكت بمقود القيادة كي أشغل المحرك، وقف أمام السيارة يترنح ويتمايل بشدة وخبط بيده على غطاء المحرك، في هذه الأثناء شغلت المحرك وانزلقت إطارات السيارة الخلفية، وظلت تحفر بالتراب وتصدر صوتاً عالياً فألقى نفسه برعونة على جانب الطريق وبدأ يصرخ وهو يقول كلمات لم أسمعها وذلك لأنني كنت قد قدت السيارة وابتعدت بعيداً عنه.

في الليلة التالية اقتحمت مكان الكراج التابع للرجل العجوز كسرت قفل بوابة القضبان الحديدية ودخلت إلى ساحته عثرت على نقوده التي كان يدخرها لعدة أسابيع والتي كان يحتفظ بها في علبة القهوة داخل ثلاجته القذرة وأخذت أيضاً بنزين وحملت منه في الحاوية وأخذت إطارات وسلاسل إطارات للثلوج وشموع ووسائل لإشعال النار لأيام البرد وبطاريات ووضعت كل هذا في صندوق السيارة، ثم بعد ذلك قدت السيارة بعيداً عن البيوت والمباني والضواحي وابتعدت إلى أبعد ما استطعت إلى أن انتهى بي الطريق، وجدت بيتاً قديماً حين وصلت إلى هناك في المساء، كانت ليلة خريفية، والشمس لا تزال تتّقد متوهّجة تتسلل من بين أطراف قمم الأشجار، كان باب المنزل مفتوحاً؛ لأن إحدى القابضات الحديدية معلقة وصدئة ومكسورة، وكان الكثير من زجاج النوافذ مكسوراً.

وكان هناك نبات متسلق أصبح حصيرة متشابكة وغليظة من الطحالب المتعفنة، وقد تهاوى بعيداً عن الجدران، دخلت إلى المنزل المتهالك كان سقف الغرفة منخفضاً، وكان ورق الجدران قديماً جداً سقطت أجزاء منه على الأرض، وعلق بدلاً عنها جرائد وصحف مصفرة من شدة قدمها وكان

أثاث المنزل مغطىٰ بشراشف، وقد أصبحت داكنة من شدة الوساخة، وكان هناك في إحدىٰ زوايا الغرفة مرآة معلقة مغطاة بالغبار نظرت إلىٰ وجهي فبدا شكلي منهاراً محطماً أشبه بالمجمد في تلك المرآة الملطخة بالوساخة والسواد، لمست خدي، كانت عظام وجهي ستخرج من تحت جلدي قسمات وجهي حادة، وكانت خصلات شعري كأنها كومة من القش علىٰ رأسي.

كان المخلوق الذي في المرآة أشبه بالميت كأنه صادف أن أعدم ذات يوم، ولكن عادت إليه الحياة مرة أخرىٰ عن طريق الخطأ، قلبت وجه المرآة إلىٰ الحائط وأكملت السير في باقي أنحاء المنزل كانت هناك كومة من أوراق الأشجار ملقاة علىٰ الأرض كانت قد تطايرت وتجمعت ودخلت إلىٰ داخل المنزل، كان هناك فضلات طيور تجمعت في إحدىٰ الغرف أيضاً، وأخرىٰ كان بها قطع من الأقمشة والأحزمة، وقد كانت فراشاً لأحد الحيوانات التي دخلت من الباب أو من أحد النوافذ واتخذت المكان مأوىٰ لها، كان المكان مليئاً بالفضلات، وقد تعفن وأصبح مكاناً للزبالة والقمامة، كانت المواد الغذائية محفوظة في أكياس داخل الخزانات؛ وذلك كي لا تصلها العصافير والحيوانات الأخرىٰ الصغيرة وقد كانت باقي المواد ملقاة علىٰ الأرض وعلىٰ الرفوف، وقد مزقتها الحيوانات ونثرتها وتركتها تالفة متحللة، ثم عثرت علىٰ معلبات عديدة، كان علىٰ بعض العلب آثار مناقير عصافير حادة تركت علامات عميقة علىٰ لوحة العلب؛ لذلك لم أتمكن من قراءة محتوياتها، والبعض الآخر لم أسمع به من قبل ولابد أن هذه المعلبات كانت موجودة هنا منذ سنوات طويلة، كان هناك موقد حطب كبير للتدفئة وطباخ من الخشب، و هاتف أسود قديم الطراز لا أتوقع أنه يعمل، لكن عندما رفعت السماعة ووضعتها علىٰ أذني سمعت صوت حرارة ولشدة

دهشتي سمعت هناك رنيناً مشوشاً بعيداً بعض الشيء كأنه كان منسياً، نسوا أن يقوموا بقطع خط اتصال الشبكة عنه سنين طويلة فأصبحت الحرارة في الهاتف أوضح كأنه بدأ يستيقظ من سباته، وبدأ ينهض من جديد كأنه كان نائماً لفترة طويلة، والآن استيقظ من نومه.

بقيت في ذلك المنزل غطيت جميع النوافذ بقطع من الورق المقوى السميك وأصلحت مقبض الباب الأمامي العاطل ثم قمت بتنظيف البيت وأخرجت جميع الفضلات وبقايا العصافير والحيوانات إلى الخارج، وهكذا فعلت، حاولت قدر استطاعتي أن أعيش وأسيّر أموري فيما كان لدي، ولكن بين فترة وأخرى أضطر إلى أن أجمع أشياء جديدة وأحضرها إلى هنا. بعد أول عاصفة خريفية لم يعد ينفع الورق المقوى الذي وضعته على النوافذ لذلك اضطررت إلى أن أحضر صانع ومركب ألواح الزجاج كي يركّب زجاج جديد للنوافذ، وأعطيته ما تبقى من نقود لدي وبدا عليه الرضا، وشكرني وهو يعد المال، انتظرت إلى أن اختفت شاحنة مهني الزجاج وبعد أن تأكدت من أنه أصبح بعيداً ذهبت لإحضار سيارتي، كنت أركنها بعيداً عن الأنظار وكل مرة أخفيها في أمكنة خالية لا أحد يعمل بها أو شبه مهجورة أو بين الأشجار.

سارت السيارة متثاقلة على الحصى وبين أغصان الأشجار الصنوبر، وراحت تسير وغالباً ما ينتهي بها الطريق لتصل إلى منزل مهجور بعيد منعزل.

كان ينبغي أن أشعر بالاستياء وعدم الراحة؛ لأنني اقتحم بيوت الناس، وعن قصد أكسر أقفالهم وأبوابهم المغلقة وأجول بين غرفهم الغريبة أبحث بين أغراضهم عن أشياء أسرقها، ولكن المسألة لم تكن بهذا الشكل، فأنا لم

أشعر بالاستياء أو التكدر أبداً، فقد اكتشفت أن تلك الغرف الفارغة هي أشبه بغرف معلبة، كل منها تعبّر عن حياة هؤلاء الناس الآخرين، كما لو أنها حيطان إضافية داخل عتباتهم تثير روائح أرواحهم وأشيائهم التي يستعملونها، لقد كانت جدران المنازل تعبِّر عن روائح أصحابها، تعكس عطورهم وروائح أجسادهم، أكياس الخزامى نوع دخان السجائر التي يدخنونها، البهارات التي يستعملونها في طعامهم لفترة طويلة، ويمكنني وأنا أسير فوق أرضيتهم الخشبية وأدور عبر طوابقهم وغرفهم الخاصة أن أرى وأشعر بكل تفاصيل حياتهم، لقد كنت أتصفح كتبهم أقرأ خططهم وملاحظاتهم الشخصية، أقرأ خربشاتهم على الطاولة قرب الهاتف المنزلي، يمكنني أن ألمس أقمشة ملابسهم المطوية بعناية داخل الأدراج وأتحسسها بأصابعي، كنت أنظر إلى جدرانهم المليئة بالصور الشخصية لعوائلهم وأقاربهم ورسومات أطفالهم، وكنت أتخيل أن كل هؤلاء هم ملك لي أنا، كنت أقف هناك وأومأ برأسي لصور وجوههم الشخصية، أبتسم لرسومات الأطفال المرسومة بالألوان المائية الجميلة وأضع يدي على إمضائهم الممتد بغير تناسق وانتظام، سرعان ما كنت أسمع ضحكاتهم وأراهم يتراكضون حولي، وأنا أنظر إلى أقدامهم العارية وطبع أثرها على الأرض.

عندما يحل الظلام ألتقط على الفور كل ما سأحتاج إليه وأستفيد منه في المنزل، كنت آخذ من خزانة المطبخ طحيناً وقمحاً وبسكويتاً وغيره من الطعام، ومن خزانة الحمام أتناول مراهم خاصة للجروح ومسكن آلام وصابوناً ومناديل ورقية وغيره، لقد كنت أمرر أصابعي بمهارة على الأفرشة أفتش عن أشياء ثمينة مخبئة هناك، كنت أنكش الفراش بأظافري وحين لا أجد شيئاً آخذ قطعة القماش المطرزة يدوياً والمدروزة على الفراش،

أحلّ خيوطها وآخذها، وكانت عندما أزيلها عن الفرشة تترك أثر ندبة على القماش ويبقى طبعها كأنها أشبه بجروح بيضاء على السرير، كنت أشق الفرشة كالسمكة عند قطع وسطها ليخرج أحشائها من بطنها أعثر على النقود آخذ نصف المبالغ المخبئة هناك، وأترك النصف الباقي مخبأً بين المفروشات، أضع اللحاف بشكل جميل مرتب فوقها وأذهب.

عند خروجي من المنزل كنت أوصد دائماً الباب بالمزلاج وأرحل، وأنا أقود السيارة بعيداً دون أن ألتفت ورائي، وأظل أقود إلى أن أختفي عن الأنظار.

عندما نَفَد الطعام من مخزن المواد الغذائية لدي اخترت اتجاهاً آخر وذهبت أبحث عن بيوت جديدة بيوت مختلفة؛ كي أعيش بها حياة الناس الآخرين، ولو لفترة قصيرة من الوقت، وجدت منزلاً آخر جديداً حيث يمكنني العيش فيه مؤقتاً وهكذا كنت أمضي وقتي أشعر بالبرد تارة، ثم أشعر بالدفء، ثم أشعر بالبرد تارة أخرى وذات يوم سقطت شجرة كبيرة على سطح المنزل فهدمت بعضاً من أجزاء السقف ولم أتمكن من إصلاحه؛ لأنني كنت لا أملك النقود الكافية لإصلاحه، وذات مرة امتلأ قبو المنزل بالمياه بسبب مد أنهار الربيع وفيضانها فامتلأت أرضية القبو، وقفت هناك في الطابق السفلي والمياه تصل إلى ركبتي فرحت أغرف بالجردل المياه وأفرغ الأرض منها وذات يوم صيفي في أوائل فصل الصيف اكتشفت شجيرة ورد عند حائط المنزل نثرت على الجدار أغصانها وكان الحائط مغطى كله بزهور زرقاء صغيرة تفتحت فجأة بين ليلة وضحاها وقد خرجت كأنها كتيبة في جيش عسكري أطاعت الأوامر، وخرجت دفعة واحدة، لا أعرف ما اسم هذا النوع من الزهور، لكنني قطفت اثنين منها بحذر ووضعتهما

بين أوراق أحد الكتب القديمة التي في المنزل وتركتها لتجف هناك إلى أن أصبحت أوراقها جافة ورقيقة كالحرير ثم بعثت بإحدى هذه الزهرات إلى منزل والديّ ووضعت الأخرى داخل غلاف ظرف فترة طويلة دون ان أكتب عنوان عليها وأبقيتها قرب السرير الذي أنام عليه، كنت أنظر إلى ذلك الغلاف كل ليلة قبل أن أغفو وكان هو أيضاً يبادلني النظرات إلى أن قررت ذات ليلة قبل بضعة أشهر أن أكتب عليه عنوان بيت مزهر ورود بيلا القديم، وأرسله إلى هناك.

كنت أقود السيارة مدفوعة إلى آخر نقطة في البلد حتى أنني تعديت ما كان مرسوماً على الخرائط التي كنت أستدلّ بها على الطريق، كنت أقود بجنون قاطعة كل المسافات، أمرّ على الحقول والغابات والأراضي الزراعية الشاسعة، كنت أتعدى المدن والسواحل، سرت بين الجبال والمنحدرات الوعرة والصخور ولم يعد معي الكثير من الوقت، بدأت عيوني تؤلمني وقدمي اليمنى تشنّجت وشعرت بعدم القدرة على مواصلة الطريق؛ لأنها ممدودة طوال الوقت، كما أشعر بخدر في ذراعي، ثم أصبح الطريق بعد ذلك متعرجاً يلتوي تدريجياً، ثم صار ضيقاً أكثر وأكثر إلى أن صار بالكاد يتسع لسيارتين فقط يمكن أن يتقابلا ذهاباً وإياباً، وكانت حافات الرصيف خطرة لا يسهل تجاوزها عندما يحلّ الظلام ولا أتمكن من رؤية الإشارات على الطريق جيداً ولا المنافذ إلا إذا اقتربت جداً منها لأقرأها في آخر لحظة، لهذا اضطررت إلى التوقف وغيّرت المسار واتجهت إلى الغابة ورحت أقود السيارة داخل الغابة، كانت الأشجار الكبيرة تمتص آخر ضوء في السماء قبل أن يحل الظلام ويغلق على كل شيء وتصبح الغابة في ظلام دامس، كانت أضواء السيارة قديمة بالكاد تنير بضعة أمتار أمامي.

أخذت السيارة تتأرجح في طريق غير مستو، وأصبحت قيادتها أصعب وأصعب، كنت أمسك بمقود السيارة بإحكام وأحدِّق باهتمام إلى الأمام مباشرة ولم أعد أر أي ضوء من بين الأشجار أصبحت الغابة مظلمة أكثر وأكثر، وكانت أطراف الأشجار وأغصانها تنحني إلى الأمام نحوي كأنها تتكئ عليّ، عندها ضغطت على دواسة البنزين، كنت أريد أن أجد طريقاً للخروج من الغابة، لكن انزلقت عجلات السيارة على طريق مبلل وتعثرت الإطارات وبدأت السيارة تتباطأ في حركتها حتى اصطدمت فجأة بحاجز معترض ملتو أمامي وغاصت السيارة عند المنعطف وتوقف المحرك وأضاءت الأضواء الأمامية وأنارت إشارات إنذار الأحمر والأصفر غاضبة.

كان ضجيج الصمت يصدر رنيناً في أذني مما يشعرني بالخوف ولم أكن أرغب أن أعترف لنفسي بذلك الشعور الغريب الذي ينتاب صدري، إنني أعرفه منذ زمن بعيد ولا يمكنني إخفاؤه مهما طال الزمن ولازلت أتذكر جيداً كيف أُصاب بالهلع عندما يحل الظلام، وما هو الشعور الناتج عنه، بدأت أشعر بالألم في فكي وأصبح فكّي متوتراً مشدوداً، وأنا أحاول أن أفتح فمي ولا أقدر، وفي محاولة لطرد الخوف من الظلام جعلت صوتي قوياً وقلت لنفسي بصوت عال واثق:

- إنها مجرد بداية للسير! لا يوجد حل آخر غير أن أبدأ وأسير!

أصدر باب السيارة ضجيجاً عندما فتحته، بقيت جالسة للحظات وأنا أسترق السمع إلى صمت الغابة وهو يهفهف بالـ"صصصصصصص" وقبل أن أضع قدمي على الأرض الترابية خارج السيارة سمعت صرخة عالية قريبة مني، كانت أشبه بصيحة كبيرة تصدر في هذا السكون المخيف

ثم تحركت أغصان الأشجار وتمايلت وشعرت برياح باردة تهب وتندفع نحو وجهي ثم سمعت صوتاً لأجنحة تضرب وتصفق بقوة وشراسة في كل مكان من حولي، فرميت بنفسي - مرة أخرىٰ - إلىٰ داخل السيارة وشغلت محرك السيارة لأهرب وبعد محاولات تدوير المحرك مراراً وتكراراً اشتغل ونجحت في ذلك وكان الإدراك والوعي في رأسي يقول لي:

- إن ذلك مجرد رفرفة طيور!

كنت أدرك ذلك وأقول لنفسي:

- إنه مجرّد طائر جعلك تشعرين بالخوف!

لكنني كنت لا أستطيع الاستماع إلىٰ ذلك الصوت وعند الرجوع إلىٰ خلفية أفكاري تصبح الأمور أصعب؛ لأن الخوف يتسلل ويأتي من داخل رأسي ويخرج من أعماق الأفكار، لا شيء في الخارج، لكنه موجود هنا في رأسي كأن الظلام أطلق سراح جميع مخاوفي من جديد، وإن صرخة الطيور أيقظت خوفي من الظلام الذي كنت أحمله في داخلي طوال تلك السنين.

لقد رأيت وجهيهما أمامي، رأيت وجه بيلا ومومو وهما تنظران إليَّ إلىٰ أسفل تنظران إليَّ من فوق قمم تلك الأشجار العالية وكنت أدرك ماذا تريدان مني، إنها المحاكمة علىٰ وشك أن تبدأ وطريق النهاية قَرُب أن ينتهي وأنا في طريقي إلىٰ المحكمة وإن الماضي ينتظرني في نهاية الطريق إنه يلحق بي أينما ذهبت يريد أن يقبض عليَّ إنه يلدغ ساقي ويريد أن يبتلعني بشكل كامل، كنت أرىٰ كل ذلك أمامي وأنا أحاول قيادة السيارة إلىٰ الخلف، لكن إطاراتها تنزلق وتتزحلق في الطين وكان هناك انهدام خطير علىٰ الطريق مما يصعب قيادة السيارة في تلك الأرض الزلقة.

كنت أملك غريزة الهروب في داخلي، إنها نزعة مبنية على الفطرة في أعماق نفسي فأنا أستطيع أن أدير وجهي وأهرب لأدنى شيء يحصل، نعم فأنا أهرب ركضاً في جميع المواقف التي لا أستطيع تحملها، أنا لا أبقى ولا أواجه ولا أقاوم الأمور؛ لأنني لا أعرف الكثير عن ذلك، ولا كيفية التصرّف فيما إذا غيرت رأيي وحاولت البقاء في مكاني، ثم فجأة اهتزت السيارة وتوقف المحرك وبدأ الطين يمتص إطارات السيارة من تحت، ثم استسلم المحرك وتخلى عن مقاومته وبحسرات أضاءت السيارة قليلاً في الظلام قبل أن ينطفئ المحرك ويتوقف عن العمل بشكل نهائي.

انطفأت أضواء السيارة الداخلية أيضاً واحداً تلو الآخر، انطفأت بشكل كامل أمام عيني وعندما أدرت مفتاح المحرك لم أسمع أي شيء ولا حتى صوت تشغيل ودار المفتاح بلا مقاومة، وعند إطفائه انتهى كل شيء هنا حيث لا طريق للعودة أو التراجع، أغمضت عيني ببطء وضغطت بيدي على جبيني.

كان ذلك الوضع مألوفاً لي و غير مألوف بنفس الوقت، فقد كان غريباً بعض الشيء، فأنا لم ألمس المسدس منذ أخذته من مقر توني، لكنني الآن أمسكه بقبضة يدي في انسجام تام وأنا أسمع صوت توني يأتي منخفضاً من بعيد داخل رأسي، وجّهت المسدس إلى رأسي ووضعته داخل فمي إلى سقف الحلق مباشرة متجهاً إلى الأعلى نحو الرأس، وبعد ذلك تضغط على الزناد ضغطة واحدة فقط، وينتهي كل شيء، ربما تشعر بالألم للحظات لكنه سيتوقف ويتوقف كل شيء، ثم لا شيء بعد ذلك، كل شيء سيكون قد انتهى، ثم بعد ذلك لن تشعر بشيء أبداً. أغمضت عيني لبضع ثوانٍ وأنا جالس هناك في الظلام على المقعد لا أتحرك، وفجأة لمحت حركة خارج

السيارة إنها حركة بمنتهى البساطة مثل رفرفة أجنحة خفاش، فتحت عيني وإذا برياح تمر عبر الجو، أزاحت الغيوم عن السماء وكشفت عن القمر. أضاء القمر بنوره المكان، وانهمر ضياؤه على الغابة كلها وأصبحت أرى كل شيء بوضوح لقد كان زجاج السيارة الأمامي مليئاً بالفراشات.

كانت الفراشات صغيرة جداً غير واضحة، أجنحتها شاحبة البياض ضئيلة، جسدها بني رمادي مكسو بالشعيرات يرتكز على ستة أرجل هشة متشبثة بزجاج السيارة على شكل مربع، ثم ارتفعت الفراشات جميعها ككائن حي واحد، وبحركة واحدة اختفت كلها في الظلام دفعة واحدة وامتصتها عتمة الليل، ثم خرجت من السيارة وخبطت الباب ورائي فصدر عنه صدى صوت تردّد صداه بين الأشجار، كنت أتجول وحيداً مع الليل وصوت همهمة السكون بين الأغصان، ضغطت على المصباح اليدوي فأضاء المكان، وبدا الظلام صارخاً خارج حزمة المصباح، كنت أشم رائحة الغابة كأنها قطعة قماش مبللة على منخاري وكان هناك رائحة خليط من التوابل والأعشاب وأشجار الصنوبر وحرائش النباتات المتشابكة المتحللة.

كنت أسمع أصوات لغط وتمتمة وغمغمة تدور حولي، كانت هناك تنهدات وأنفاس خفيفة تطن في أذني، لكنني كنت أعلم وأرى على شبكية عيني وفي ذهني، إنها أصوات وطنين الفراشات، كنت أسير وقدمي تتعثر فوق الحفر وجذوع الأشجار كنت لا أرى ضوءً إلا بعد كل مئة خطوة حيث ألمح بصيص ضوء من بعيد.

كان هناك فانوس معلق على أحد فروع الأشجار وأسراب من الفراشات تحوم حول ضيائه، إنها ترمي بأجسادها بحماس لتلتصق على زجاج المصباح، وتحت المصباح كان هناك كيس من القماش معلق أيضاً وقرب فتحة الكيس

هناك قطعة ورقية علقت بمسمار معدني، كانت الفراشات تحبو زاحفة فوق قماش الكيس والورقة في طريقها إلى ضوء المصباح المعلق أمسكت بالورقة ونزعتها بحذر من المسمار وقلبتها بين يدي، كان مكتوباً عليها كلمتين خُطتا بعناية فائقة محفورتان بالفحم الأسود وبدأت أقرؤها:

"هل تذكرين!"

نظرت إلى الكلمتين للحظات وتمعنت بهما، ثم أنزلت كيس القماش لأرى ما يخفي وراءه، فتحته باحتراس وحذر لألمح ما يمكن أن يكون في داخله، كان هناك شيء يلمع ويشع فكرت ربما يكون داخله مليئاً بالنجوم الصافية البراقة، وتخيلت فقد تكون هناك خيوط باللون الفضي تبرق، ثم أخرجت محتويات الكيس وسحبتها بلطف وتفجرت فوراً في رأسي الذكريات وبدأت تدور وتدور حول بعضها كدوامة الرياح وبدأت تتكاثر وانتشرت موجاتها وهزاتها بين أطراف أصابعي المرتجفة، كان في الكيس قناع لباس قائد الطيور الذي أخاطته لي مومو، قماشه باهت اللون، لكنه لايزال يلمع بلونه الرمادي الذي يميل إلى لون رقبة العصافير كانت قطع الكارتون من الورق المقوى المرسومة على الصدر تمزقت بعض الشيء هنا وهناك، وبعض الأربطة المطاطية تصلبت وتصدعت، وتحولت إلى شكل جامد إلا أنها لاتزال تصلح وعلى مقاسي عندما ارتديتها، مررت بيدي على القطع المتقلصة لأمسدها فشعرت بالبسمة تجري بحذر بين أطراف أصابعي.

وجدت قناع الوجه المصنوع من الجبس في أسفل الكيس، كان لونه الفضي قد شحب وتقشر الطلاء قليلاً هنا وهناك ومنقار العصفور المنحني فقد قوته وأصبح أكثر انحناءً للأسفل واعوجاجاً ومليء بالغبار، وعند محاولتي إصلاح المنقار بدأ يصدر الجبس طقطقة، نفضت الغبار عنه

ووضعت الخيط المطاطي خلف رأسي وارتديت القناع فوق وجهي، كان مناسباً وأصبحت عيوني عيون العصفور، عندها فقط شعرت أن الوقت لم يتغير والزمن لم يمضِ.

أنا قائد الطيور أسير بخطواتي في الغابة أمرّ عبر الأشجار والورود والفراشات تطير من حولي تتبع الضياء الذي يشع من ملابسي اللامعة، أصبحت أقدامي وساقي أقوىٰ من جذع شجرة، الآن كنت أمشي بشموخ كالملك فوق العشب وبين الأغصان، كان هناك حديقة منزلية عند حافة الغابة وقربها منزل صغير مطليّ باللون الأخضر، أمام الحديقة توجد هناك كراس قديمة وطاولة متصدعة قوائمها غير ثابتة علىٰ شكل نصف دائرة، وحولها أضواء شموع وشعلة ووهج مشاعل تشتعل في الهواء الطلق تلقي بظلالها علىٰ العشب حتىٰ ليصل إلىٰ الأشجار العالية، وعلىٰ الطاولة الخشبية المتهالكة إبريق من الشاي ومجموعة من الأكواب وجرة من العسل الذهبي، كان باب المنزل مفتوحاً جزئياً، وكنت أحاول الإنصات إلىٰ الأصوات القادمة من الداخل، لكنني لم أستطع سماع شيء، كنت أستمع فقط إلىٰ رياح الليل تندفع عالياً تحرك أطراف رؤوس الأشجار، ثم مشيت علىٰ العشب، وأنا أتجه نحو الطاولة، ثم رفعت غطاء إبريق الشاي وكانت الأبخرة الساخنة تطفو وترتفع إلىٰ الأعلىٰ وتفوح منها رائحة جميلة تضفي روحاً حميمة علىٰ الحياة والحديقة، استنشقت الرائحة التي دخلت إلىٰ أعماق رئتي، ثم استمعت إلىٰ الأصوات القادمة من داخل المنزل، كانت ضحكات وخشخشات وحفيف أوراق أشجار جافة.

وضعت غطاء الإبريق وأعدت إغلاقه ووضعت يدي علىٰ ظهري وشعرت بدقات قلبي تضرب بقوة تحت ملابسي التنكرية، ثم رأيت ظلال خيال

لشخصين ينمو يزداد ويكبر عند مدخل باب المنزل فخرج شخصان يخطوان بخطواتهما الجميلة وسارا على السلم باحتفالية مميزة وجو رسمي منظم:

- كم هما جميلان! إنهما جميلان جداً!

كانت زينة ملابس كائن الصحراء أُحكم ربطها بأزرار هنا وهناك، مما جعلت صدره يبدو مشدود العضلات على الرغم من أن بعض الأزرار كانت مفقودة وجميع خيوطه مفتوحة يمسك بخيط واحد فقط من اللباس التنكري كأنه على وشك أن يسقط.

لكنني لازلت أذكر ذلك الشعر الكثيف الغامق السواد الذي كان مثل سجادة ضخمة معلقة على ظهره، وكان قناع الوجه مضحكاً بعض الشيء؛ لأنه أصبح متصدعاً من الجبين ويمتد إلى الذقن، وكان يبدي تعبير نظرة قلقة والأنف والفم منعطفاً بشكل منحن بالكاد تسعه ملابسه التنكرية المخططة كلعبة الشطرنج، لقد تم إزالة الياقة، مثلث القبّة، مما جعل من أطراف مستوى خط الرقبة معلقة تحت الذقن، لكن كانت القبعة والقناع أشبه بالجديدين، فقط الخدود الحمراء اللامعة أصبحت الآن تميل إلى اللون البني الغامق إنهما قادمان نحوي، اقتربا أكثر وأصبحا قريبين مني تماماً وأيديهما وصلت إلى يدي وذراعهما لامست ذراعي، وعندما حضننا بعضنا البعض تفتقت خيوط اللباس التنكري وتقشر الجبس وتكسرت الأقنعة وأصدر منقاري طقطقة عندما حشرت رأسي حول رقبة بييرو وأصبحت أجسادهما قريبة من جسدي وذراعهما وأنفاسهما في كل مكان حولي.

ما هي الذكريات؟

وماذا تحتوي؟

من أي شيء مصنوعة؟

كيف يمكن لها أن تثير المشاعر بهذا الوضوح وتشعل النيران في الـذاكرة وتضخها بالنشاط والحيوية مرة أخرىٰ؟

الىٰ أي مدىٰ الذاكرة القوية الحية تهز مـشاعر الإنـسان، ويمكـن لهـا أن تسمي ذلك حقيقة الواقع؟

إن أذني تتذكر أن رئتيّ وأصابعي وشفاهي وكل جزء من أجزاء جسدي يتذكر، فأنا لازلت أحمل تلك الطفلة في داخلي إنها استيقظت الآن، وبـدأت تسير ليلاً بفضول في الغابة تستنشق الهـواء برئتيهـا، تمـدد أعـضاء جـسدها بلباسها التنكري الفـضي اللامـع الجامـد الحركـة، وتطـل عـلىٰ زملائهـا في اللعب وتنظر إليهم من خلال ثقب للعيون، في قناع الجبس الجامد هذا، ثـم لعبنا لبضع ساعات أنا وكائن الصحراء وبيرو، لعبنا تحـت وهـج المـشاعل والشموع نرفع أكواب أنخابنا، نضحك نتكلم في الوقت نفسه مـع بعـضنا نتذكر حركات الرقص ونرقصها، نتـذكر الأغـاني ونغنيهـا بـصوتنا عاليـاً، وبصورة مصطنعة لدرجة أن طيور الخفاش والبوم تومض عيونها من فـوق الأشجار، ويحاولون التأكد من أننا كنا حقيقة أم أننا خيال؟ هل كـان ذلـك حقيقياً أم لا؟ لا أعرف.

كان الليل يأتي والقمر الكاذب يمشي بتعجرف في السماء، تارة ينـير بـين الأشجار وتارة يغيب ويحجب رؤيته عنا في السماء، لكننـا لـن نتوقـف عـن اللعب، ولن نرغب بالتوقف أبداً، كنا لا نستطيع أن نكتفي، ولم نـشبع مـن اللعب مع بعضنا أبداً، كان رجل الصحراء يسير علىٰ يديه يلـف ويـدور في الحديقة علىٰ العشب، وأنا وبيرو كنا نرقص رقصة رجال الطب نلف حولـه ونوزع الأدوية، كنا ندوس بقوة الأرض ونحفر التراب حفاة إلىٰ أن تـصبح

أقدامنا سوداء اللون. كان قلبي ممتلئاً بسعادة كبيرة، وفي الأخير نسقط فرحين مبتهجين على العشب المبلل البارد، والمشاعل تنطفئ والشموع تبهت، كان الجو بارداً إلا أننا كنا لا نشعر بالبرد إطلاقاً، ونحن مستلقون قرب بعضنا وفوق بعضنا نشعر بالدفء ونشكل كومة كالجبل العالي رأس بيلا يستريح على صدري وساق مومو ملتفة بين ساقي وأجسادنا كلها متشابكة مع بعضها البعض.

إن ملابسنا التنكرية الآن صارت قديمة ممزقة وأصبحت كالخرق البالية معلقة على أطراف أيدينا وأرجلنا كنا قد رمينا بأقنعتنا على العشب وتفوح من حولنا رائحة العرق واللعب، وكانت ترتفع من أجسادنا الروائح كالبخار مختلطة مع برودة الجو كنت أنظر إلى القمر الذي انحنى بمسيره ونزل ليسقط على رؤوس الأشجار ويغرق بين أغصانها، وكانت تقف على يدي فراشة وحيدة دون حراك تبدو كأنها نائمة بأجنحتها الشاحبة، كانت أنفاس بيلا تنتشر عبر جسدي، وكنت أشعر بها وبثقلها وهي تتغلغل ببطء في أنحاء جسدي، أثناء نومها حولت بيلا رأسها إلى الجهة الأخرى، ثم وضعت أنفها على بلعومي وحنجرتي، وكانت مومو مستلقية هناك كالمهزوم وذراعاها ممدودتان على العشب وفمها مفتوح وتصدر صوت شخير خافت، تركتهم يتساقطون، وأنا أبتسم وأصبحت جفوني ثقيلة ورحت أهيّئ نفسي وأحضرها ليبتلعني النوم أنا أيضاً، ثم شعرت بحركة طفيفة كالدغدغة الخفيفة عندما طارت الفراشة عن يدي، ثم أدرت رأسي بحذر وأنا أتبعها بنظراتي وهي تطير نحو أحد شبابيك المنزل.

كنت قد لمحت لمعاناً وصوت حركة غير واضح هناك قرب النافذة، كانت الفراشة تخبط بزجاج النافذة وهي تطير وترمي بنفسها نحو الضوء

مرة تلو الأخرىٰ، زحفت كالأفعىٰ وتمكنت من إزاحة بيلا وومومو بهدوء عن جسدي وانسللت بخفة ودرجت في الغرفة علىٰ أطراف أصابعي كي لا أوقظ أحدهم من نومه، تمزقت خيوط قائد الطيور وسقطت من علىٰ جسدي أزياء العصفور التنكرية، وأنا أسير نحو العشب وتشكل خلفي درب طويل مغطىٰ بعلامات من قطع الكارتون المقوىٰ الملونة والأقمشة المتسخة، تركتها ورائي وبقيت عارية تماماً بلا ملابس.

كان المنزل صغيراً يحتوي علىٰ مطبخ وغرفتين، كان في أحد الغرف سرير واحد، وفي الأخرىٰ مكتبة مليئة بالكتب من أسفلها إلىٰ أعلاها، وعند أحد الجدران كانت هناك أوانٍ كبيرة للنباتات المنزلية مملوءة بالتراب وقرب الحائط الآخر هناك كرسي متحرك وعليه بطانية وقربه ضوء للقراءة، كانت منضدة الكتابة مليئة بالقواميس المفتوحة الصفحات، نظرت إلىٰ الألوان البارزة علىٰ القواميس وشعرت برغبة في الدخول إلىٰ الغرفة كي أقرأ ما كانت بيلا تقرؤه وأتعرف علىٰ ما كانت تزرعه في أوانيها، ولكن عند دخولي إلىٰ عتبة الغرفة وقعت عيني علىٰ مرآة كبيرة تتكئ علىٰ أحد جداران الغرفة، كانت كبيرة الحجم بما يكفي لتعكس جسد رجل راشد كامل، ورؤيته بوضوح كامل، كان إطار المرآة مطرزاً باللون الذهبي وباهتاً بعض الشيء ومقشراً من بعض الجوانب، وكان خشب الغرفة مخلوعاً هنا وهناك، ولكن زجاج المرآة كان واضحاً لا غبار عليه، وكنت أرىٰ نفسي بوضوح تماماً نظرت إلىٰ ذراعيّ الطويلتين، كانت كفوفي خشنة جداً، وليس هناك الكثير من اللحم في جسدي، وكانت عضلاتي أشبه بالكرات والعقد تحت جلدي أما ثدييّ فكانا غير بارزين وكان صدري مستقيماً مسطحاً تقريباً وحلماتي غامقتي اللون وقاسيتين من البرد، خلف عظام الترقوة يدخل جلدي إلىٰ

الداخل من منطقة فوق الصدر، ثم تأتي رقبتي فيزداد انتفاخ بعض الأوردة والشرايين البارزة الزرقاء.

كصورة للصبي كان الصبي لايزال باقياً في داخلي، وحان دور المرأة فقد ظهرت وبرزت صورتها أمامي، لكنها توقفت عن النمو في داخل جسدي لقد كان انعكاس صورتي في المرآة يعكس صورة الصبي، كان يبدو صبياً هزيلاً ضعيفاً لم ينم جسده بصورة طبيعية كبقية الصبيان الآخرين، ولكن جاء نموه أقل عن المعدل الطبيعي فهو لا يملك شعراً أو شوارب أو لحية كالصبيان الآخرين، وكانت المرأة تطغى عليه في داخلي، وتغطيه كالغشاوة، وتقوم بحمايته كحجاب فوقه لحمايته، ولكنه في النهاية إنسان.

إن الشخص الذي أمامي سواء أكان إنساناً أو إنسانة رجلاً أم امرأة، لم يكن امرأة مئة بالمئة، ولم يكن رجلاً مئة بالمئة، لكنه على الأقل إنسان، إنه إنسان، لمست جسدي بأطراف أصابعي وتحسسته وشعرت ببشرتي وجلدي على أطراف أصابعي بتمرير أصابعي على جلدي، وضعت كفي على انعكاس صورة كفي في المرآة، واتكأت بجبيني وأنا أميل على صورة جبيني في المرآة ونظرت بعمق في عيني، هناك انعكس بريق وتلألأت نظرة الراشد لامعة في عيني، لكنه لم يكن ميتاً إنه لم يمت بعد، لم تعد هناك نظرة حزينة ولا واهنة، لا بل كانت نظرات مليئة بلمعان الحياة ابتسمت لها وابتسمت هي لي أيضاً.

عندما استيقظت كان الصباح قد أتى، والشمس أشرقت وصارت مرتفعة في الخارج، كنت جالساً على الكرسي الهزاز وجسدي يلف ببطانية حوله كله، كان الباب الخارجي مفتوحاً، وأسمع زقزقة العصافير تأتي من الحديقة وشخص ما يدندن لحناً ونغمة موسيقية، نهضت بهدوء وسرت

بصمت، وأنا أمسك بالبطانية حول جسدي وأمشي على أطراف أصابعي على ألواح الأرض غير المستوية، كانت مومو نائمة في غرفة النوم على السرير الكبير ويدها تحت خدها وقناع رجل الصحراء متدلٍ حول عنقها كتذكار صيد، لمستها بحذر ومسحت على جبينها ابتسمت لي، وتنهدت قليلاً وأخرجت نَفَساً وهي نائمة للحظات قصيرة، لقد كنت أبحث عن ملابسي قبل أن أتذكر أنني تركتها عند مصباح الرياح خارج المنزل، والآن أصبحت الملابس مبللة غارقة بالندى والطحالب، هناك على الأرض يوجد بنطلون أخضر وقميص أصفر إنها ملابس كبيرة المقاس جداً ارتديتها وابتسمت لضعف جسدي، وكيف غرقت في تلك الملابس.

- أنت مستيقظة هذا جيد جداً!

التفت برأسي ورأيت بيلا، كانت ترتدي بنطلوناً ذا علاقات وقميص أيضاً، لكن جسدها يملأ ويعبئ الملابس بشكل ممتاز، كان ثديها منتفخاً وخارجاً من تحت القميص والعلاقات والحزام، وكان خدها يتوهج حمرة وحول شعرها ترفرف سحابة من أجنحة الفراشات الملونة، كانت تزحف فوق يديها وساقيها، وكانت هناك مجموعة كبيرة منها تمتد على كفها التي كانت ترفعها إلى الأمام وقالت:

- هيا تعال إنها تنتظرنا!

في هذا الربيع نكون قد أكملنا سن الرابعة عشر (بيلا وموموو و أ نا)

لقد كنا معاً طوال كل تلك السنين، عادة ما كنا نلتقي في ظهيرات الشتاء الماطر أو عندما يكون الجو بارداً في غرفة مومو، لكن في هذا الموسم من العام وأثناء الأيام الدافئة من السنة غالباً ما نكون في حديقة بيلا. وعندما تمطر السماء ندخل مسرعين إلى حديقة النباتات الزجاجية، حيث كنا نعيش في خضم الحياة والنمو والتحول، وكنا نفيض حيوية ونشعَ نشاطاً وتتطاير منا الطاقة كتطاير شظايا الشرر من مواقد النيران، كل ذلك كان يجعلني أنسى أنني كنت كيم، وأنسى أن جسدي قد نما وتفجّر وتغيّر، وصار أكبر على حين غفلة.

كان بيت (مزهر الورود الزجاجي) هو المنطقة الحرة التي تشعر بها كيم وصديقاتها بالحرية التامة، كانت الفتيات يذهبن كل يوم إلى تلك الحديقة، وهناك حيث تعاني كل منهن (بيلا وموموو وكيم) من انتهاكات الأولاد لهن، وفي كل ليلة يرتشفن رحيق الزهرة الغريبة، وذلك كي يتحوّلن إلى أولاد.

كانت كيم تحب صديقاتها، وهذا لا يمكن. لأنها فتاة مثلهن.

إنها تجربة من الإثارة والجاذبية

رواية الأولاد هي للأولاد في سن المراهقة تصوير لا مثيل له

تجمع بين الحياة وشكلها المؤلم مع سحر جميل وحكاية كيف يكبرون

وعن التحول والجنس الثالث والصداقة والأخوة والمحبة القوية.





